الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء التاسع عشر

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 7

الجزء التاسع عشر

سورة طه‏

[سورة طه (20): الآيات 1 الى 36]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

طه (1) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏ (2) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى‏ (3) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى‏ (4)

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏ (5) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى‏ (6) وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏ (7) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ (8) وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى‏ (9)

إِذْ رَأى‏ ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (10) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى‏ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (12) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى‏ (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (14)

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏ (15) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى‏ (16) وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى‏ (17) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ بِها عَلى‏ غَنَمِي وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى‏ (18) قالَ أَلْقِها يا مُوسى‏ (19)

فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى‏ (20) قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى‏ (21) وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى‏ جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى‏ (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى‏ (23) اذْهَبْ إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏ (24)

قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (29)

هارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (33) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً (34)

إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (35) قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى‏ (36)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 9

ملامح السورة و مصارحها برهان قاطع لا مرد له انها كلها مكية، و فيها من ذكريات التسليات من تاريخ الرسالات و لا سيما الموسوية، ما تطمئن خاطر الرسول الأقدس محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و كما تبدء به «طه» و تختم به: «فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ‏ .. وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ‏ .. وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ .. قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدى‏» 135 و بينهما قصص موسى و هرون، ثم آدم و زوجه و هما أهم القصص الرسالية و معارضيها طول التاريخ الرسالي، و أكثرها ذكرا في الذكر الحكيم.

و يا لها من ظل ظليل يغمر غالبية جوها، علوي جليل تخشع له القلوب و تحار دونه الألباب و تخضع النفوس: تجلي الرب بالوحي بالوادي المقدس على عبده موسى كما تجلى بربوات المقدسين على «فاران» حرى! تلك المناجاة الطويلة في بزوغ وحي التورات، و الليل ساكن و موسى وحيد، و كما ناجى محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في ساكن الليل و الرسول وحيد بفاران، و بين الرسولين و الوحين و الكتابين تشابهات منقطعة النظير عن كل بشير و نذير، مما تربط السورة كلها بهذا البشير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 10

النذير.

طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏ (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى‏ 3 «طه» اسم من اسماء النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نداء ك «يس» «ن» «1» في القرآن او سواه‏ «2» و هنا «عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏» دليلان اثنان على ذلك النداء، و ثانيتهما يبرهن على مدى شقاءه في مرضات اللّه، هيمانا في اللّه، و شغفا في ذات اللّه، ابتغاء مرضات اللّه، اصطناعا لنفسه اكثر مما هي، و اصطناعا للمرسل إليهم اكثر مما هم، و كما أمر بالأمرين في المزمل‏ «قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا .. إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا» فقدم الإمر من الأمرين فقام الليل طويلا طويلا حتى تورّمت قدماه فجعل يرفع رجلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

ففي القرآن ما في تفسير البرهان 3: 29 عن التوحيد للصدوق سعد بن عبد اللّه عن ابراهيم بن هاشم عن غثم بن عيسى عن حماد الطنافسي عن الكلبي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قال يا كلبي كم لمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من اسم في القرآن، فقلت: اسمان او ثلاثة فقال يا كلبي له عشرة اسماء: و ما محمد الا رسول- و مبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد- و لما قال عبد اللّه- طه- يس- ن- يا ايها المدثر- يا ايها المزمل- قد انزل اللّه إليكم ذكرا رسولا- قال: الذكر اسم من اسماء محمد و نحن اهل الذكر ..

أقول: و قيل انه من اسماء القرآن او السورة او اسم اللّه او مفتاح الاسم الطاهر و الهادي، و المصدق منها اضافة الى انه من اسماء رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مفتاحا لصفات من الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و اسما للسورة.

(2)

الدر المنثور 4: 289- اخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم): لي عشرة اسماء عند ربي قال ابو الطفيل: حفظت منها ثمانية: محمد و احمد و ابو القاسم و الفاتح و الخاتم و الماحي و المعاقب و الحاشر و زعم سيف ان أبا جعفر قال: الاسمان الباقيان طه و يس،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 11

و يضع رجلا «1»، و كان يربط نفسه بحبل كيلا ينام‏ «2» و يضع إحدى رجليه على الأخرى‏ «3» و

قد يروى عن أخيه علي (عليه السلام): لقد قام رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه و اصفرّ وجهه يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال اللّه عزّ و جلّ: طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏»

بل لتسعد «4»، و يؤوّل «الليل اجمع» هنا بما يناسب آية المزمل كما أمر «قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا» حيث قلّل قليل النوم لحد كثير حتى صح القول «يقوم الليل اجمع» فلم يكن مخالفا لأمر ربه، بل مرجحا إمر الأمر المخير بين مربعه، ثم «لتسعد» بفتح التاء هي سعادته نفسه بالقرآن، بشقاء العبادة و الذكر عن الخشية، و بضمنها هي إسعاده الآخرين، و المعنيان علهما معنيّان، فتحلّق‏ «لِتَشْقى‏. إِلَّا تَذْكِرَةً» على شئون النزول كلها.

و هي بطبيعة الحال عتاب حنون يدل على شغفه البالغ لحدّ رجح الأكثر مما عليه.

و كما يدل على الجهل البالغ في آباء الجهالات حيث نسبوه إلى الشقاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر اخرج ابن مردويه عن علي (عليه السلام) قال: لما نزل على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يا ايها المزمل قم الليل الا قليلا قام الليل كله حتى تورمت قدماه فجعل يرفع رجلا و يضع رجلا فهبط عليه جبريل فقال: طه- ...

(2) المصدر اخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل كيلا ينام فانزل اللّه عليه طه.

(3) المصدر اخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال كان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يربط نفسه و يضع احدى رجليه على الاخرى فنزله طه ..

(4) نور الثقلين 3: 367 في كتاب الاحتجاج للطبرسي روي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) عن الحسين بن علي (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) و لقد قام رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 12

بنزول القرآن، تركا لما هم فيه و آباءهم من الجاهليات الساقطة ف «بل لتسعد» تفسيرا لمقابل «تشقى» ناظرة الى شأني النزول، فلا هو شقي بنزول القرآن خلاف ما افتري عليه، و لا عليه ان يتعب نفسه به في نفسه و في دعوته، فقد وضع عنه إصر مثلث الشقاء عناء، و رسول الهدى من غير السعادة في الشقاء براء.

ففي ذلك الخطاب العتاب الحنون رد على الذين قالوا

«لقد شقي هذا الرجل بربه فأنزل الله طه» «1»

و علّه مثلث الشقاء، و قد

يروى عن طه‏ «ان الله تبارك و تعالى قرأ طه و يس قبل ان يخلق السماوات و الأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمة ينزل عليها هذا و طوبى لأجواف تحمل هذا و طوبى لألسنة تتكلم بهذا» «2».

و لأن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان دائب العبودية في أصعبها ليطهّر اكثر و اكثر، و كان دائب الدعوة الصارمة حرصا على هداهم، ضائق الصدر عن رداهم، كما «لِتَشْقى‏ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى‏» لمحة إجمالية عنهما، و في القرآن المفصل تفصيلهما، فعله لذلك خوطب هنا بطه، انه الطاهر لقمتها دون شقاء في العبادة، و الهادي لقمتها دون شقاء في الدعوة، فهو الطاهر الهادي فلما ذا يشقى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور اخرج ابن مردويه ابن جرير عن ابن عباس و في تفسير الرازي 22: 3 قال مقاتل. ان أبا جهل و الوليد بن المغيرة و مطعم بن عدي و النضر بن الحارث قالوا لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انك لتشقى حيث تركت دين آباءك فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بل بعثت رحمة للعالمين قالوا بل أنت تشقى فانزل اللّه تعالى هذه الآية ردا عليهم و تعريفا لمحمد بان دين الإسلام هو السلام.

(2) المصدر اخرج الدارمي و ابن خزيمة في التوحيد و العقيلي في الضعفاء و الطبراني في الأوسط و ابن عدي و ابن مردويه و البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ان اللّه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 13

انه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الطهارة القمة فهو «ط» «1» و هو الهداية القمة فهو «ه» و ذلك بعصمة إلهية بما اصطنعه ربه و اصطنع هو نفسه، فتكفيه ما فرض عليه ربه في بعدي العبودية و الدعوة دون زيادة و عب‏ء فيه شقوة، فيا له من مكرمة ربانية شغفا بالغا في تحقيق عدّة العبودية و تطبيق المسئولية في الدعوة، لحدّ يقول له ربه قف يا طه. ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏. إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى‏» و أنت اوّل العابدين و سيد المرسلين و إمام الأولين و الآخرين.

أم انه‏

«طالب الحق الهادي إليه» «2»

فكذلك الأمر، حيث الطلب بالعبودية لاصطناع نفسه و الهداية لاصطناع غيره.

و أما ان «طه» كلمة معربة عن لغة «عك» او النبطية او الحبشية او السريانية «3» فغير وجيه و لا صحيح، و معناها فيها «يا رجل» فكيف يخاطب اوّل العابدين و سيد المرسلين ب «يا رجل» و هو رسول و نبي في ساير القرآن؟ و مع الغض عن ذلك الغض في مكانته فلما ذا لم يأت «يا رجل» في صيغته العربية، انتقالا الى لغة اجنبية غير بهية؟!.

و لا أنه بمعنى «طأ» قلبا لهمزته هاء، قلبا لرجله الى الأرض بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البرهان تفسير الثعلبي في «طه» قال جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) طهارة اهل بيت محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ثم قرأ آية التطهير.

(2)

نور الثقلين 3: 367 في كتاب معاني الاخبار باسناده الى سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه‏ و اما طه فاسم من اسماء النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و معناه يا طالب الحق الهادي اليه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد»

أقول: علّ التاء هنا مفتوحة و مضمومة حملا على بعدي السعادة لنفسه و الإسعاد لغيره.

(3) و هي مروية على الترتيب عن الكلبي و سعيد بن جبير و عكرمة و قتادة كما في الدر المنثور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 14

رفعها ما رفع، مهما وردت به رواية، فانها مردودة الى راويها حيث تنافي القرآن البيان.

كلا! انه الطاهر الهادي، او طالب الحق الهادي اليه، كما يروى في اخرى تناسب موقف القرآن لفظيا، و الخطاب معنويا «ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏».

و من الموافقات هنا في منزلة ذلك البدر الساطع المنير أن «طه» حسب حروف الجمل 14.

و هي ليلة البدر، أ تراه بعد متخلفا عن أمر ربه في «تشقى» حتى ينهى هنا؟ كلّا! فان ذلك كان طبيعة الحال في عبد شكور مثله حتى تأتيه الرخصة تخفيفا بعد أمره في المزمل و بعد «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» و كما أجاب سائله‏

«يا رسول الله لم تتعب نفسك و قد غفر لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر؟ فقال: أ فلا أكون عبدا شكورا! «1»»

مما يدل على دؤوبته في صعوبة العبودية على تخفيفه منها بعد طه، و قد عده الامام السجاد (عليه السلام) في مجلس يزيد من مفاخره قائلا: انا ابن من هو «طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏».

و الشقاء منها العناء في طلب الخير تعبا فوق الميسور كما هنا، و منها العناء من جراء الشر و هي الضلالة في الأولى و الأخرى، و ساحة الرسول الأقدس براء عنها، و «ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏» تلمح لمحة لامعة بمناسبة الحكم و الموضوع ان نزول القرآن كان له شخصيا و رساليا منزل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في اصول الكافي بسند عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) قال‏ كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عند عائشة ليلتها فقالت يا رسول اللّه ...

قال: و كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقوم على أطراف أصابع رجليه فانزل اللّه سبحانه‏ «طه ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 15

الشقاء و العناء و لأنه قول ثقيل: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» فالقول الثقيل يقتضي للمقول له العب‏ء الثقيل، و التعبد الثقيل، دون ان يكتفي بالميسور القليل، و لذلك أخذ يتكبد فيما يتعبد حتى جاء امر الجليل بالتقليل‏ «طه. ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏»:

اجل، ليس القرآن مجالا للشقاء على أية حال، حيث المحور الأصيل فيه في كافة مجالاته و جلواته يسردون عسر، فانه ميسّر للذكر لكل مدّكر فضلا عن منزل وحيه و مهبط رسالته: «وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» فلا تتجاوز تكاليفه طاقة الإنسان أيا كان، إذ لا يفرض إلّا ما في الطوق و السعة، نعمة دون شقوة و نعمة.

كما اننا ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏ في حمل الناس على الهدى، فتغيّظا و تضيّقا حين لا يؤمنون، و استزادة حين يؤمنون، إذ ليس عليك هداهم، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولاتك في ضيق مما يمكرون، فإنما الغاية القصوى منه محصورة في:

«إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى‏» تذكرة للمدّكر، و تبصرة للمتبصر، «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ» (36: 11) و الاستثناء هنا من أوصل المتصلات دونما انقطاع، «ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏» في الأولى او الأخرى، و لا لأمور اخرى‏ «إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى‏» و مما يشهد لذلك الحصر ان الذكر هو من أسماء القرآن الأصيلة، ذكرا لكافة الآيات آفاقية و انفسية جملة و تفصيلا.

و قد تتوسع «لتشقى» و ما أولاها، الى انك تشقى و تتعب في نفسك و دعوتك تذكرة لمن يخشى، حيث تنذر به قوما لدا، فما شقاءك و عناؤك كرسول إلّا للذكرى، و اما أنت يا رسول الهدى فقد يكفيك ما أنت دون نصب في تعبدك فإنك‏ «أَوَّلُ الْعابِدِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 16

فالمعني إذا- ضمن ما يعنى- «ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى‏» هكذا «إلّا» شقاء و عناء «تذكرة» بهذا القرآن‏ «لِمَنْ يَخْشى‏»! فلولا تعب المذكر في اصطناع نفسه ثم المحاولة في اصطناع غيره، لم تكن التذكرة تلك الكافية البالغة لمن يخشى.

و الخشية هي الضراعة في الجوانح كما الخشوع للجوارح، و هي خوف يشوبه تعظيم عن علم بما يخشى منه‏ «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» (35: 28) و على ضوءها الخشية من الحياة الأخرى: «إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها» (79: 45): «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» (21: 49).

فحين لا تكون خشية فحمل القرآن حمل و شقاء، و إذا جاءت الخشية فحمله نعماء مهما كانت فيه من عناء، و أنت يا اوّل العابدين في شغف بالغ من خشية اللّه، يسهل عليك كل عناء في سبيل اللّه، و لكن لا عليك أن تشقى بالقرآن فوق ما عليك.

و لأن التذكرة ليست إلّا عن غفلة، فلتكن مادتها موجودة لمن يخشى، و هي كذلك لمن يخشى و من لا يخشى، حيث الفطر مفطورة على معرفة اصول المعارف الدينية، و العقول الصافية الضافية تتبناها في نضدها و نضجها، استيحاء من وحي اللّه التي يكملها و يفصلها، فالعقول تأخذ من الفطر بشمائلها الميمونة، و من الوحي بأيمانها الميمونة، و ذلك المثلث البارع ينتج دينا بارعا لا عوج فيه و لا ريب يعتريه.

و هكذا يكون القرآن تذكرة بالفعل لمن لم تحجب فطرته، و لم تكسف عقليته، فهو خاش للحق، متحر عن الحق، متربص تشريفه ليتذكر ما استغفل، و يكتمل على غراره ما هو قاصر، فمن يخشى و هو يسعى فالقرآن له ذكرى، و من لا يخشى و هو يتلهى لم يكن له ذكرى، باقيا في غفلته،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 17

باغيا في غفوته و شقوته.

و ترى لماذا التعبير عن عب‏ء التعب ب «لتشقى» دون صيغته الأصيلة السائغة للكتاب البيان؟ لأنه لا يعني- فقط- منعه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن التعب البالغ في بعدي الرسولية و الرسالية، بل و جوابا عما افتري عليه: «انك لتشقى حيث تركت دين آباؤك» إذا «لتشقى» بيان مجمل جميل عن هذا المثلث، سلبا للشقاء عناء و غير عناء، و تثبيتا لشقائه و عناءه بعض الشي‏ء تذكرة لمن يخشى.

إذا فشقاءه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في «لتشقى» بين موجبة و سالبة، موجبة دون الحرج تذكرة لمن يخشى، و سالبة حدّ الحرج إذ تورمت قدماه، و سالبة ثانية هي فرية المفترين عليه ان في نزول القرآن شقاءه إذ خرج عن دين الآباء!.

و طبعا ليست «لتتعب» لتعني ما عنته «لتشقى» من مثلث المعنى المعني حسب شئون النزول هنا.

تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى‏ (4).

ذلك القرآن المنزل عليك ذكرا و تذكرة لمن يخشى، حقا فيه الكفاية لكل تذكرة، دونما حاجة الى نسخ او تكملة، لأنه‏ «تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى‏» فكما ان خلقه التكوين يعم الكون كله، كذلك كتابه التشريع التدوين يشمل الخلق كله‏ «تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى‏» في كل ذكرى تتطلبها الحياة الإنسانية العليا على مدار الحياة و مرّ الزمن.

و كما «الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏. لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى‏» سيطرة ملكية و مالكية على الكون كله، كذلك كتابه العظيم مسيطر في ذكراه على العالمين أجمعين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 18

و هنا في «تنزيلا» وجوه عدة و جمعها أوجه: نصبا على المفعولية ل «يخشى» حيث يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض و السماوات العلى».

و نصبا، بدليا عن «القرآن»: ما أنزلنا عليك القرآن .. تنزيلا، و ثالثا على المدح و الاختصاص: نخص تنزيلا ... و ذلك الاختصاص هو الذي يؤهله للتذكرة العامة الدائبة، و رابعا على الحالية للقرآن المنزل، و مربع المحتملات محتملات تحتملها الآية لفظيا و معنويا.

و هنا تقابل الأرض للسماوات العلى يلمح انها جنس الأرض الشامل للأرضين السبع، كما تلمح له ثانية «ما تَحْتَ الثَّرى‏» فهما- إذا- تعبيران عن الكون كله ككل كتاب التكوين، تأشيرا عشيرا ان القرآن هو كل كتاب التدوين.

و إشارة اخرى، الأرض هي أراضي القلوب خاشية و غاشية، و السماوات العلي هي القرآن حيث تضم كل سماوات الوحي، يحمله الرسول الخاتم (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، فلا شقاء للسماوات العلى ان تمطر غزيرة الوحي الهاطل على أراضي القلوب، ثم لاشقاء للقلوب في تقبلها تلك الأمطار، لا شقاء العناء و لا غير عناء، مهما شقيت قلوب مقلوبة خاوية عن الهدى، مليئة بالردى.

ثم «العلى» في مواصفة «السماوات» دليل علوها على الأرض كلها حول أكنافها، محيطة بها، حائطة لها، منزلة عليها من ماءها و سائر رحماتها، إذا فالأرض محاطة بالسماوات فمدورة كما السماوات، سائرة حائرة في خضمّها، غير مائرة في حراكها حيث‏ «اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا» (35: 41).

فكما الأمطار تنزل على الأرض من عليا السماوات مكانا، كذلك القرآن منزل من عليا سماوات الوحي مكانة، إذ ليس للّه مكان ينزل منه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 19

القرآن، و انما «تنزيلا» من عليا الربوبية، الى دنيا القلوب.

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏ (5) «الرحمن»- رفعا، خبرا عن «هو» المقدرة، ام مبتدء ل «استوى» أو «اللّه» المؤخرة و كلها صالحة- هي من أعم الصفات الإلهية، شاملة لكل الرحمات تكوينية و تدوينية، فهو مستو مستول بعد ما خلق على كل ما خلق تكوينا و تشريعا، دون تفلّت لها عنه تعالى، و لا تلفت له تعالى عنها، فهو المدبر لها كما هو الخالق إياها، سبحانه و تعالى عما يشركون.

فللّه عرش قبل خلق السماوات و الأرض و هو على المادة الأولية الأم:

«الماء» «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» (11: 7).

و عرش بعد خلقهما في حياتهما الدنيا، و قد تعنيهما العرش هنا «الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏» و عرش في قيامتها «وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ» (69: 17) و كل ذلك يعني استيلاءه على الخلق، مهما اختلف الخلق في مثلث نشآته.

ثم لا عرش للّه فعليا قبل خلق الخلق، حيث السلطة تقتضي مسلطا عليه، اللّهم إلّا كامنا في حيطته العلمية و في القدرة في معنى «خالق إذ لا مخلوق».

فالعرش على أية حال لا يعني مخلوقا هو سبحانه متكئ عليه، مهما كان الملأ الأعلى من العرش حيث تصدر منه أوامره تكوينيا أو تشريعيا بعد الخلق.

و جملة القول في‏ «الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏» انه‏

«استولى على ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 20

دق و جل» «1»

و

«استوى من كل شي‏ء فليس شي‏ء أقرب اليه من شي‏ء لم يبعد منه بعيد و لم يقرب منه قريب استوى من كل شي‏ء» «2»

«استوى تدبيره و علا امره‏ «3»

و

«من زعم ان اللّه من شي‏ء فقد جعله محدثا، و من زعم أنه في شي‏ء فقد زعم أنه محصور، و من زعم انه على شي‏ء فقد جعله محمولا» «4»

و انما

«بذلك وصف نفسه و كذلك هو مستول على العرش باين من خلقه من غير ان يكون العرش حاملا له، و لا ان يكون العرش حاويا له، و لا أن يكون العرش ممتازا له، و لكنا نقول هو حامل العرش و ممسك العرش و نقول ما قال: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» فثبّتنا من العرش و الكرسي ما ثبّته و نفينا ان يكون العرش او الكرسي حاويا و ان يكون عز و جل محتاجا الى مكان او الى شي‏ء مما خلق بل خلقه محتاجون اليه» «5» فهو «المستوي على العرش بلا زوال» «6».

و على الجملة

«ان للعرش صفات كثيرة مختلفة له في كل سبب وضع في القرآن صفة على حدة فقوله: رب العرش العظيم- يقول: الملك العظيم، و قوله: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏» يقول: على الملك احتوى،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 371 في احتجاج الطبرسي عن الحسن بن راشد قال سئل ابو الحسن موسى (عليه السلام) عن الآية فقال: ..

(2) المصدر في كتاب التوحيد عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه سئل عن الآية فقال: ...

(3، 4) المصدر في الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه قوله‏ «الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏» يعني و كذلك (4) فيه عنه عليه السلام.

(5) نور الثقلين 3: 367 في كتاب التوحيد عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل و فيه قال السائل فقوله: الرحمن على العرش استوى، قال ابو عبد اللّه (عليه السلام): ...

(6) المصدر في كتاب التوحيد خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) و فيها:- ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 21

و هذا ملك الكيفوفية في الأشياء، ثم العرش في الوصل منفرد عن الكرسي لأنهما بابان من اكبر أبواب الغيوب، و هما جميعا غيبان، و هما في الغيب مقرونان، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه يطلع البدع و منه الأشياء كلها، و العرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف و الكون و القدر و الحد و الأين و المشية و صفة الإرادة و علم الألفاظ و الحركات و الترك و علم العود و البداء، فهما في العلم بابان مقرونان، لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي و علمه أغيب من علم الكرسي فمن ذلك قال: رب العرش العظيم، أي صفته أعظم من صفة الكرسي و هما في ذلك مقرونان» «1».

ثم الآية التالية بيان لذلك العرش و كما نجد له بيانا في كل آيات العرش:

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى‏ (6).

«له» فقط لا سواه‏ «ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ» و معهما- بطبيعة الحال- السماوات و الأرض‏ «وَ ما تَحْتَ الثَّرى‏».

عرفنا السماوات و الأرض، فما هو الثرى و ما تحت الثرى؟ هذه الآية منقطعة النظير في‏ «ما تَحْتَ الثَّرى‏» فما هنالك آية اخرى تفسرها، إلّا ان آيات انحصار الكون في السماوات و الأرض و ما فيهما و ما بينهما، تجعل ما تحت الثرى مما تحتهما، إما في السماوات أم في الأرض، هذه ام سائر الأرضين المعنية من الأرض؟ فلنفتش عن الثرى و ما تحتها في هذه الثلاث.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عنه باسناده الى حنان بن سدير قال سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن العرش و الكرسي فقال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 22

الثرى هي التراب النديّ، او الذي إذا بلّ لم يصر طينا لازبا، و الأرض الثريّة هي الندية و الليّنة بعد الجدوبة، و أثرى المطر بلّ الثرى، و

في الحديث‏ «فإذا كلب يأكل الثرى من العطش»

أي التراب الندي، و ثرّى التراب إذا بلّه، و ارض مثرية إذا لم يجف ترابها.

إذا «ما تَحْتَ الثَّرى‏» هو ما تحت الترابات الندية للأرض، و هي في الأغلبية الساحقة في باطن الأرض، و هنا الثرى لا تشمل ما في الأرض على أكنافها حيث تشمله‏ «ما فِي الْأَرْضِ» فلتكن الثرى الترابات الباطنة لها، و هي بطبيعة الحال ندية.

إذا «ما تَحْتَ الثَّرى‏» تعم كافة المواد الأرضية التي هي تحت تراباتها الندية من ثروات تحت الأرضية كالفلزات و البترول و الفحم الحجري و ما الى ذلك من أثقالها الباطنة تحت ثراها، و الى الواجهة الخلفية لكل أفق من الأرض، فحينما كانت الكرة الأرضية مستورة الواجهات الأخرى، وراء الآفاق التي كانوا يعيشونها، «ما تَحْتَ الثَّرى‏» تعني- فيما تعني- خلفيات الثرى كلها من ثرواتها، و من الآفاق الخلفية الأرضية ورائها.

إذا فآية الثرى من آيات الكروية الأرضية، و كما تلمح لأرضين أخرى هي ايضا «ما تَحْتَ الثَّرى‏» و توضّحها آية الطلاق‏ «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ» أرضون ست اخرى تماثل أرضنا، و هي كلها «ما تَحْتَ الثَّرى‏» منبثّة حول الكرة الأرضية في خضمّ الفضاء، فان كل أفق من الأرض ما تحتها واجهة اخرى من الأرض، فارض اخرى غير هذه الأرض، فقد تحول الأرضون الست حول هذه الأرض في مكاناتها، كما ان ما تحت الثرى تعمها كلها.

و لماذا «ما تَحْتَ الثَّرى‏» دون «ما فوق الثرى» حين تعني سائر الأرضين؟ لأن المجهول عند الناس حين نزول القرآن و الى زمن بعيد هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 23

«ما تَحْتَ الثَّرى‏» و اما ما فوقها و هي السماء بانجمها فمعروفة للناظرين، إذا فحق الكلام كما هو: «ما تَحْتَ الثَّرى‏».

و اصدق ما يروى و أحسنها تفسيرا لما تحت الثرى ما

عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حين سئل «ما تحت هذه الأرض قال:

خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: ارض، قال: فما تحتها؟ قال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: ارض حتى انتهى الى السابعة ..» «1».

ف «تحت هذه الأرض» تعني تحت الأفق الذي كان يعيشه السائل، و طبعا فيه خلق، فان في كل أكناف الكرة الأرضية خلق كما نحن، ثم «ما تحتهم ارض» هي الأرض الثانية، توسعة في التحت لكل أكناف الأرض! إذا ف «تحت الثرى» تعم التحت المتصل بالأرض و هو ثرواتها، و وراءها، و المنفصل عنها و منها سائر الأرضين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 290- اخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال‏ كنت مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في غزوة تبوك إذ عارضنا رجل مترحّب يعني طويلا فدنا من النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فأخذ بخطام راحلته فقال: أنت محمد! قال: نعم- قال: اني أريد ان اسألك عن خصال لا يعلمها احد من اهل الأرض الا رجل او رجلان فقال: سل عما شئت قال يا محمد ما تحت هذه يعني الأرض قال: خلق ....- الى السابعة- قال: فما تحت السابعة؟ قال: صخرة، قال فما تحت الصخرة؟ قال: الحوت. قال: فما تحت الحوت قال الماء قال فما تحت الماء قال الظلمة قال فما تحت الظلمة قال الهواء قال فما تحت الهواء قال الثرى قال فما تحت الثرى ففاضت عينا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالبكاء فقال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق ايها السائل ما المسئول بأعلم من السائل قال صدقت اشهد انك رسول اللّه يا محمد اما انك لو ادعيت كنت الثرى شيئا لعلمت انك لساحر كذاب اشهد انك رسول اللّه ثم ولى الرجل فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ايها النّاس هل تدرون ما هذا قالوا اللّه و رسوله اعلم قال: هذا جبريل.

أقول: و نحن لا نعلم عما تحت الأرض السابعة مما روي عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) شيئا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 24

و قد تعني‏ «ما تَحْتَ الثَّرى‏» كل ما نجهله من خلق اللّه، فتحت ثرى الأرض منها و هو ثرواتها و خلفها المتصل بها، ثم تحتها من سائر الأرضين الست، هذه الثلاث هي من عامة ما كنا نجهلها، و قد عرفنا شطرا منها بعد أمة من الزمن! ثم يبقى علينا الأرضون الأخرى و لمّا نكشف النقاب عنها، و قد صرح بها آية الطلاق كما لمحت لها آية الثرى، هذا!.

و أما «ما تَحْتَ الثَّرى‏» ككل ما هنا لك‏

«هيهات هيهات عند ذلك ضل علم العلماء» «1»

«عند ذلك انقضى علم العلماء» «2»

«و ما يعلم تحت الثرى إلا الله» «3»

مهما كان الرسول (ص) و الأئمة

«جعلهم الله؟؟؟؟ الأرض ان تميد بهم و الحجة البالغة على من فوق الأرض و من تحت الثرى» «4»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن ابان بن تغلب قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الأرض على اي شي‏ء هي قال: على الحوت قلت فالحوت على اي شي‏ء هو؟ قال: على الماء قلت فالماء على اي شي‏ء هو قال: على الصخرة قلت فعلى اي شي‏ء الصخرة، قال:

على قرن ثور الملس، قلت: فعلى اي شي‏ء الثور؟ قال: على الثرى قلت فعلى اي شي‏ء الثرى قال: هيهات ...

(2)

نور الثقلين 3: 372 في تفسير القمي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) سئل عن الأرض على اي شي‏ء هي؟ قال: على الحوت، قيل له: فالحوت على اي شي‏ء هو؟

قال: على الماء، فقيل له: الماء على اي شي‏ء هو؟ قال: على الثرى، قيل له: فالثرى على اي شي‏ء هو قال: عند ذلك انقضى علم العلماء.

(3)

المصدر في علل الشرايع عن علي (عليه السلام) قال‏ ليهودي و قد سأله عن مسائل: اما قرار هذه الأرض لا يكون الأعلى عاتق ملك و قدما الملك على الصخرة و الصخرة على قرن الثور و الثور قوائمه على ظهر الحوت و الحوت في اليم الأسفل و اليم على الظلمة و الظلمة على العقيم و العقيم على الثرى و ما يعلم تحت الثرى الا اللّه ....

(4) المصدر في اصول الكافي باسناده الى المفضل بن عمر عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه الأئمة (عليهم السلام) و فيه: جعلهم اللّه ... و مثله في بصائر الدرجات بسند عن محمد الجعفي قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: ... و في الكافي عن سعيد الأعرج عنه (عليه السلام) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 25

و الحجة البالغة على شي‏ء عارف- بطبيعة الحال- ذلك الشي‏ء، فضلال علم العلماء و انقضاءه عند «ما تَحْتَ الثَّرى‏» يعني غير الحجة البالغة، و اختصاص علمه باللّه هو حق العلم بما تحت الثرى كما الثرى و ما فوقها.

و ممن تحت الثرى سكنة سائر الأرضين، و الأنجم العامرة التي فيها مدن كمثل التي في الأرض‏ «1».

و الأحاديث الواردة في ترتيب الثرى بما قبلها مجهولة المعنى إلّا في تجهيل من سوى اللّه لما تحت الثرى.

و لنا ان نفتش عما تحت الثرى، كما حصلنا لحد الآن على مواضيع منها، و بقيت اخرى لمّا نصل إليها، منها ما علّنا نصل إليها على ركب العلم روحيا و زمنيا مهما ضل عنها الأوّلون، و منها ما لن نصل إليها كما يشير إليها أئمة الهدى «عند ذلك ضل و انقضى علم العلماء، و ما يعلم تحت الثرى إلا الله».

و بعبارة اخرى و صيغة أحرى، إن العلم الحق و حق العلم بكل ذلك، كما حقّ القدرة و القدرة الحقة، ان ذلك كله مخصوص باللّه تعالى، كما تلمح له «له ..» حيث يدل تقديم الظرف على الحصر، و نحن لا نعلم- فيما نعلم منها- إلّا ظاهرا ضئيلا، و جانبا قليلا «وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»! وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏ 7

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في البحار عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) قوله: ان لهذه النجوم التي في السماء مدائن كمثل التي في الأرض مربوطة بعمودين من نور طولها في السماء اثني عشر عاما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 26

«وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ» أيا كان، مع ربك كما في صلاتك و سائر دعائك، ام مع غيره او نفسك، «فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏» فضلا عن الجهر.

فلما ذا «تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ» مع ربك؟ أ لأنه لا يعلم السر؟ «فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏»! أم لأنك تلتذ بسماع صوت الدعاء الى اللّه منك أو سواك، فلا عليك إذا أن تجهر بالقول، ام لأنك تعني بجهرك أن تسمع الآخرين تشجيعا على الدعاء ام تعليما؟ فكذلك الأمر، ام لأنك ترائي في جهرك‏ «فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏» مهما لا يعلم من نيتك السريرة غير اللّه: وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» (67: 13) سرا و أخفى، و لكن ادب الدعاء يقتضي دون الجهر العال: «وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا» (17: 110) «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ» (7: 205) «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ» (21: 110).

و لقد كان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يجهر- أحيانا- في الدعاء تعليما، و هو محبور دون الجهر العال إلّا إذا اقتضت الحال:

«كان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى:

لا اله إلا الله وحده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شي‏ء قدير لا حول و لا قوة الا بالله و لا نعبد الا إياه له النعمة و له الفضل و له الثناء الحسن لا اله الا الله مخلصين له الدين و لو كره الكافرون» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير روح المعاني للالوسي 16: 163 قد صح ما يزيد على عشرين حديثا في انه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كثيرا ما كان يجهر بالذكر و صح عن أبي الزبير انه سمع عبد اللّه بن الزبير يقول: كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله) ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 27

هذا و لكنه دون المرتفع العال و كما

قال (ص) لمن ارتفعت أصواتهم «يا ايها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم و لا غائبا انه معكم سميع قريب» «1».

اجل و لكل قال مجال، و لكل حال قال يقتضيه المجال، فلا جهر لإسماع ربنا المتعال، و لا فوق العال على أية حال، فلا مرجح لجهر القول في الدعاء في ذاته بل هو مرجوح غير ممنوح، اللهم إلّا لتعليم او تذكير، ام سنّ سنة الدعاء، ام حظوة من سماعها تزيد في عمقها.

ثم ذلك هو السرّ فما هو الأخفى؟

«السر ما أكننته في نفسك، و أخفى ما خطر ببالك ثم أنسيته» «2»

ثم و أخفى من ذلك الأخفى ما لم تنوه، او لم تعلمه ثم تنويه، أو لم تعلمه فتفعله ام لا تفعله‏ «3» و الأخفى المطلقة في الآية تعمهما و ما لن ينوه او يعلمه أو يفعله ابدا، مثلث من الأخفى تقابل السر، و الكل مقابل الجهر، و هذه الخمس في علم اللّه سواء: «سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ» (13: 10) مهما كان لا سواء بالنسبة لنا علما و حظوة في الدعاء الجاهرة في رنينها و طنينها و حنينها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن الصحيحين من حديث أبي موسى الاشعري قال: كنا مع النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و كنا إذا أشرفنا على واد هللنا و كبرنا ارتفعت أصواتنا فقال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ....

(2) نور الثقلين 3: 373 بسند متصل عن محمد بن مسلم قال سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن‏ «يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏» قال: ....

(3) الدر المنثور 4: 290- اخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي في الأسماء و الصفات عن ابن عباس في الآية قال: السر ما اسره ابن آدم في نفسه و أخفى ما خفى عن ابن آدم مما هو فاعله قبل ان يعلمه فانه يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك و ما بقي علم واحد و جميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 28

و قد يعني «السر» ما هو سر عنك كما عن غيرك حيث أنسيته، ثم «أخفى» ما لم تعلمه بعد، و ما لن تعلمه، حيث السرّ هو الكائن السرير، فالأخفى هو غير الكائن الذي بالإمكان كونه بعد ام لا، و عوان بين السرّ و الجهر هو النجوى، فانه جهر لمن تناجيه و سر عن سواه، و هي هنا مشمولة للسرّ، و ان كان مع النجوى كالظرف و المجرور إذ اجتمعا افترقا و إذا افترقا اجتمعا: «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ» (43: 80) «أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» (9: 78).

فلأن الآية في مقام عرض العلم المحيط، لم تكن الأخفى لتختص بما سوف تعلمه او تويه او تفعله، بل و ما لن تعلمه من الحقائق الكائنة في الكون، بل و غير الكائنة كوّنت بعد أم لم تكوّن، كما السر لا يختص بغير النجوى، إذا فالسرّ هو دون الجهر من القول من نجوى يسمعها صاحبها، و من إخفات تسمعه في نفسك و قد يسمعه غيرك، ام إخفات لا تسمعه في نفسك و انما تعلمه و هو النية السريرة.

و مثلث العلم للّه: جهرا و سرا و أخفى، هي المواطن الثمانية، 1- جهرا، 2- دون الجهر نجوى، 3- إخفاتا قد يسمعه غيرك، 4- إخفاتا لا يسمعه غيرك و تسمعه في نفسك، 5- أم لا تسمعه، 6- و سرا عن نفسك ما كنت تعلمه ثم أنسيته، 7- أم لم تكن تعلمه و بالإمكان ان تعلمه، 8- ام ليس بالإمكان ان تعلمه.

فهذه الآية تتكفل عرضا موجزا عن عرش العلم في مواطنه الثمانية كما آية الثرى عرضت عرش الملكية المالكية المطلقة، فهما إذا تفسيران لعرش الرحمن‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

و من ثم الأسماء الحسنى لذي العرش الواحد القهار، عرضا لوحدة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 29

الأسماء الحسنى:

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ 8 «اللّه» قد يكون تعريف التصريح باسم الجلالة بعد المواصفات السابقة السابغة، من‏ «مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ‏ .. الرَّحْمنُ‏ .. لَهُ ما فِي السَّماواتِ‏ .. فَإِنَّهُ يَعْلَمُ» فذلك المربع الصفات هو «اللّه ...» خبرا عن «هو» المحذوفة، و كما انه مبتدء لخبريه‏ «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ- لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏» و الجمع اجمع و أوفر، رباطا بما قدم و أخر، مهما كانت هنا لك احتمالات أخر «1».

في سائر القرآن آيات اربع تتحدث عن اسماء اللّه الحسنى‏ «2» هذه منها، و قد تحدثنا عنها في حشرها «3» و نزيد هنا ان أسماءه الحسنى لا تختص بالصفات ذاتية و فعلية، بل و الرعيل الأعلى من عباده المخلصين هم من أسمائه الحسنى، نتيجة الصفات الفعلية العليا، فإنهم يدلون على اللّه و يوجهون الى اللّه بما يحملون من رسالات اللّه وحيا أو إلهاما.

و فيما أمرنا ان ندعوه بها و نذر ما وراءها: «وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ» (7: 18) تعم الدعوة الدعاء الخالصة، فهي بالأسماء الأولى، كل دعاء باسم يناسبها، و بواسطة المقربين، سواء في دعاء الاستغفار و سواه‏ «وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (4: 64).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كأن يقال‏ «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ- لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏» هما وصفان و «اللّه» خبرا ل «هو» أما ذا و القرآن حمال ذو وجوه فاحملوه على احسن الوجوه.

(2) و كذلك الآيات 7: 137 و 17: 110 و 59: 24.

(3) في الفرقان 28: 265- 266.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 30

أم في دعاء المعرفة و العبودية فهي برجالات الرسالات حيث يعرّفونه كما عرّف لهم نفسه، و يبيّنون طرق عبوديته و مسالك طاعته كما بيّن لهم.

فدعاء اللّه بغير الأسماء الحسنى- سواء الأولى او الأخرى- قبيحة ملحدة نذرها وراءنا ظهريا «أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏» (17: 110).

و أحسن الأسماء الحسنى هو «هو» و هو «اللّه» اسمان للذات المقدسة، و هما مذكوران في كلمة التوحيد التي هي احسن الكلمات، و هي ضمان الجنة كما

يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «ما زلت اشفع الى ربي و يشفعني و اشفع اليه و يشفعني حتى قلت يا رب شفعني فيمن قال: لا إله إلا الله- قال-: يا محمد! هذه ليست لك و لا لأحد و عزتي و جلالي لا ادع أحدا في النار قال: لا اله الا الله» «1».

اجل و هي الشجرة الطيبة الطوبى، و الكلم الطيب، و الحق المتواصى به، و الواحدة الموعوظ بها، و الوقفة المسئول عنها، و القول الثابت في الأولى و الأخرى.

و

قد قال موسى: يا رب علمني شيئا أذكرك به، قال: قل لا اله الا اللّه- قال: كل عبادك يقولون: لا اله الا اللّه! فقال: قل لا اله الا اللّه! قال: انما أردت شيئا تخصني به! قال يا موسى: لو ان السماوات السبع و من فيهن في كفة و لا اله الا اللّه في كفة لمالت بهن: لا إله الا اللّه‏ «2».

و هي بطبيعة الحال ليست فقط قالة القال فانها قال، بل هي قالة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 22: 10 عن انس بن مالك قال قال عليه السلام: ...

(2) تفسير الفخر الرازي 22: 11 ان موسى بن عمران قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 31

حاكية عن الحال على أية حال و هي درجات.

و ترى من قالها بقلبه و لمّا تظهر على لسانه دونما ضنّة و لا استكبار، هل هو من أهلها؟ اجلّ! و انها اجلّ من قالها باللسان لأنها حكاية عما في الجنان، و هو محطة الإيمان، فلو عكس الأمر، قالا باللسان دون الجنان فلا ايمان، مهما قبلت كظاهر الإسلام! هذا- و لكن الذي يعتقدها ثم لا يبرزها بلسانه، كيف يعرف ايمانه في كتلة الإيمان؟ و حتى إذا عرف فما باله لا يبرزها باللسان و هو شعار الايمان و شعور بالايمان! «1» اللهم‏ «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ» (16: 106) و طبعا فيما إن كانت البقية على نفسه أنفس من ظاهرة الإيمان.

ثم بعد اسمي الذات، الأسماء الثلاثة لصفات الذات: الحي العليم القدير، و من ثم سائر التسعة و التسعين هي أسماء صفات الفعل، و كلها حسنى.

فاختلاق اسماء اللّه في أيّ من هذا المثلث إلحاد في أسمائه، كما اختلاق رسالة ليست من اللّه إلحاد في أسماءه.

وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى‏ 9 إِذْ رَأى‏ ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً‏ 10 «وَ هَلْ أَتاكَ؟» و متى أتاه و من أين و هو أمي «و ما كنت تدري ما الكتاب و لا الإيمان» (42: 53) إلّا ان يأتيه بالوحي، و قد ذكرت القصة في القصص بتفصيل اكثر مما هنا، و هي بطبيعة الحال مؤخرة عن «طه»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير الرازي 22: 10- ان عمر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): من قام في السوق فقال: لا اله الا اللّه وحده لا شريك له له الملك و له الحمد يحيي و يميت و هو حي لا يموت بيده الخير و هو على كل شي‏ء قدير «كتب له اللّه الف الف حسنة و محا عنه الف الف سيئة و بنى له بيتا في الجنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 32

و إلّا فقد أتاه حديث موسى ان كانت مقدمة عليها، مهما كان في النقلين فوارق تكمّل كل الأخرى، و الاستفهام هنا لتقرير العجاب عن حديث موسى و اولى به ثم اولى.

فالقصص تقص الذي حصل لموسى قبل قصته هنا، و هذا بداية الوحي الرسالي لموسى بعد وحي النبأ من ذي قبل: «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى‏ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (28: 14).

«إِذْ رَأى‏ ناراً» «فَلَمَّا قَضى‏ مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» (28: 29):-.

«فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا» مكثا يسيرا «إِنِّي آنَسْتُ ناراً» و الإيناس هنا مما يلمح أنه كان في برد قارص كما يدل عليه‏ «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ» «أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» كما تلمح انه ضل الطريق و كان الليل مظلما «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً» «1» و كما يقال انه في رجوعه من مدين ضل الطريق في ليلة ظلماء و بردة قرصاء، و ريح عاصفة و غنم له متفرقة و طلق الزوجة، فرا نارا فقال لأهله امكثوا، كأنهم كانوا ناظرين فرجة إلهية و هي الآن على مشارفها!.

و قد نهتدي من‏ «أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً» الى تفرّسه من هذه النار هدى رسالية بعد ضلاله في سنيّه العشر، كما «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ» قد يخبر بهذه الفروسية.

و طبيعة الحال في هذه الفترة الطائلة عشر سنين تقتضي ان يتفرس في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 373 عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: آتيكم منها بقبس «يقول: آتيكم بقبس من النار تصطلون من البرد او أجد على النار هدى- كان قد اخطأ الطريق- يقول: او أجد على النار طريقا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 33

رجعته هذه من النار نورا «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ»- «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً» و على هامشه القبس الجذوة لعلكم تصطلون، «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً» لعلكم تهتدون.

هنا موسى- و هو بمنصرفه من مدين الى مصر و معه اهله- يأنس من جانب الطور نارا، و ذلك- بطبيعة الحال- استئناس شخصي لموسى دون اهله، و إلّا فلما ذا «إِذْ رَأى‏ ناراً» دون اهله؟ و لو كانت اهله ترى ما يرى فلما ذا «قال‏ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً» دون «ألا تستأنسوا نارا» و قد أكد شخصية الرؤية ب «إني» ثم‏ «لَعَلِّي آتِيكُمْ» دون «تعالوا معي الى النار» مما يؤكد ان رؤية النار و أنسها كانت له دونهم، فقد يطمئن انه تفرس من النار نورا، فان كانت نارا «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ»- «أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» و ان كانت نورا «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً» دون «نجد» إذا فهي في الأصل هدى شخصية، مهما كانت على هامشها هدى الطريق لأهله‏ «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ».

و ترى أ كانت معه زوجته فقط لمكان «اهله»؟ اهله هنا هم جماعة، منهم زوجته لمكان «امكثوا- تصطلون»! و قد تركهم بعد هذه القالة المردّدة ثم لا خبر عنم حتى نهاية الرسالة.

و ان قصص موسى هي اكثر القصص المقصوصة في الذكر الحكيم، محلّقة على الحياة الولادية و الرسالية الموسوية في بنودها الأصيلة، التي تمت بصلة في الدعوة الرسالية و ما تبنّاها او تبنّته من موادها.

و هي تعرض بمختلف المسارح المناسبة في سور عدّة كما تناسب جوّ السورة، و هنا في «طه» يسبقها مطلع يشفّ عن رحمته تعالى و رعايته لمن يصطفيهم لحمل أعباء الرسالة، و بلاغ الدعوة، طمئنة و ذكرى لخاطر الرسول الأقدس (ص) القريح الجريح من أذى المشركين و لظاهم و كما هي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 34

الحال في ذكريات سائر الرسالات‏ «وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ» (11: 120).

و كما هي في سائر مجالاتها و حلقاتها، إذا فلا تكرار في جلواتها، إلّا تكرارا لمجالاتها المناسبة لها، كلّ على قدر.

و ترى كيف «را نارا» و هي في الحق كان نورا تشبه النار؟ انها في رؤيته البدائية و من بعد كانت نارا! و لأنه لم يتأكد كونها نارا قال‏ «إِنِّي آنَسْتُ ناراً» دون «رأيت نارا» ثم «لعلي» مرددة بين‏ «آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً» تؤكد انه لم يتأكد كونها نارا، مهما احتملت «لعلي» عدم التأكد من احد الأمرين إذا كانت نارا، و هي قائمة مقام إن شاء اللّه!.

و النيران خمس: نار لها نور بلا حرقة و هي نار موسى، و نار محرقة بلا نور و هي نار جهنم، و نار تجمعهما و هي المعروفة لدينا، و نار لا حرقة فيها بالفعل و لا نور و هي نار الشجر الأخضر فمنه توقدون، و نار كلّ مادة تظهر في التفجرات الذرية.

و «حَدِيثُ مُوسى‏ إِذْ رَأى‏ ناراً» هو ما حدث له بالفعل لأوّل مرة في بزوغ الوحي الرسالي، و لماذا «أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً» دون‏ «مِنَ النَّارِ» لأن قضية الحال في النار الموقدة في الصحراء أن عندها أهلا عليها فهم يهدوننا الطريق، ام إن على النار نفسها هدى و كما اهتدى بما أوحي له منها.

ثم «قبس» كما هنا، و «جذوة» كما في القصص هما بمعنى، و هو قطعة منها تتجزى‏ «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» و تستوقدون فتعملون بها لأنفسكم نارا بها تكتفون‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 290- اخرج احمد في الزهد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 35

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى‏ 11 إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً‏ 12.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حاتم عن وهب ابن منبه قال: لما راى موسى النار انطلق يسيرا حتى وقف منها قريبا فإذا هو بنار عظيمة تفور من ورق شجرة خضراء شديدة الخضر يقال لها العليق لا تزداد النار فيما يرى الا عظما و تضرما و لا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرة و حسنا فوقف ينظر لا يدري ما يصنع الا انه قد ظن انها شجرة تحترق و أوقد إليها موقد فنالها فاحترقت و انه انما يمنع النار شدة خضرتها و كثرة مائها و كثافة ورقها و عظم جذعها فوضع أمرها على هذا فوقف و هو يطمع ان يسقط منها شي‏ء فيقتبسه فلما طال عليه ذلك اهدى إليها بضغث في يده و هو يريد ان يقتبس من لهبها فلما فعل ذلك موسى مالت نحوه كأنها تريده فاستأخر عنها وهاب ثم عاد فطاف بها و لم تزل تطمعه و يطمع بها ثم لم يكن شي‏ء باوشك من خمودها فاشتد عند ذلك عجبه و فكر موسى في أمرها فقال هي نار ممتنعة لا يقتبس منها و لكنها تتضرم في جوف شجرة فلا تحرقها ثم خمودها على قدر عظمها في أوشك من طرفة عين فلما رأ موسى ذلك قال ان لهذه شأنا ثم وضع أمرها على انها مأمورة او مصنوعة لا يدري من أمرها و لا بما أمرت و لا من صنعها و لا لم صنعت فوقف متحيرا لا يدري أ يرجع ام يقيم فبينا هو على ذلك إذ رمى بطرفه نحو فرعها فإذا هو أشد مما كان خضرة ساطعة في السماء ينظر إليها يغشى الظلام ثم لم تزل الخضرة تنورا تصفر و تبيض حتى صارت نورا ساطعا عمودا بين السماء و الأرض عليه مثل شعاع الشمس تكلّ دونه الأبصار كلما نظر اليه يكاد يخطف بصره فعند ذلك اشتد خوفه و حزنه فرد يده على عينيه و لصق بالأرض و سمع الحنين و الوجس الا انه سمع حينئذ شيئا لم يسمع السامعون بمثله عظما فلما بلغ موسى الكرب و اشتد عليه الهول نودي من الشجرة فقيل يا موسى فأجاب سريعا و ما يدري من دعاه و ما كان سرعة اجابته الا استئناسا بالانس فقال لبيك مرارا اني لا سمع صوتك و أحس حسك و لا ارى مكانك فأين أنت! قال: أنا فوقك و معك و خلفك و اقرب إليك من نفسك فلما سمع هذا موسى علم انه لا ينبغي هذا الا لربه فأيقن به فقال: كذلك أنت يا الهي فكلامك أسمع ام رسولك، قال: بل انا الذي أكلمك، فادن مني فجمع موسى يديه في العصا ثم تحامل حتى استقل قائما فرعدت فرائصه حتى اختلفت و اضطربت رجلاه و انقطع لسانه و انكسر قلبه و لم يبق منه عظم يحمل آخر فهو بمنزلة الميت الا ان روح الحياة تجري فيه ثم زحف على ذلك و هو مرعوب حتى وقف قريبا من الشجرة التي نودي منها فقال له الرب تبارك و تعالى: ما تلك بيمينك ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 36

و أخيرا أتاها «فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى‏» أمن النار ام من الشجرة الطالعة منه النار، تقص لنا القصص انها من الشجرة المنوّرة المباركة:

«فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى‏ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» (30) و طبعا من النور المتطلعة عليها «إِذْ رَأى‏ ناراً ..».

أو كان هناك في الشجرة ام نارها النور تجل من اللّه، حتى نودي موسى منها «يا مُوسى‏ إِنِّي أَنَا اللَّهُ»؟ حتى يهرف هارف و يخرف خارف‏ «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» قائلا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| روا باشد «انا الحق» از درختي‏ |  | چرا نبود روا از نيكبختي!: |

إذا جاز لشجرة ان تقول: اني انا اللّه، فلما ذا لم يجز من سعيد مثلي: منصور الحلاج- ام با يزيد البسطامي- أن أقول: انا اللّه، حيث تجلى فيّ اللّه كما في الشجرة.

نص الآية «نودي يا موسى- من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة-: اني انا الله» فالشجرة- إذا- هي- فقط- مذياع النداء من نورها، و ليس يلزمه ان يكون المذيع بذاته فيها، و كما الملائكة يحملون ندا آت اللّه و لا يحملون ذات اللّه، فالنداء- كما الشجرة و النار النور- هي من فعل اللّه، و مهما كان لنداء اللّه سمت و صوت، فليس لذات اللّه سبحانه سمت و لا صوت، و انما خلق منه كسائر خلقه، من دون لسان و لا شفه و لا أي عضو، فانما صوت مخلوق في الشجرة، كما يخلق في الألسنة، و الفارق هو خرق المتعوّد من الصوت النداء، و كما ان اصل الوحي خرق لعادة التعليم، فذلك النداء خارقة في خارقة، بارقة في بارقة نور النار في الشجرة المباركة الميمونة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 37

لقد كانت هذه النداء الربانية من نور من هذه الشجرة من جانب الطور الأيمن‏ «وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ» (23: 20) و هي الزيتونة «وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا» (19: 52) «وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» (28: 46) «وَ الطُّورِ. وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ» (52: 1) «وَ طُورِ سِينِينَ» (95: 2).

آيات بينات تتجاوب مع بعض في مذياع النداء لموسى انه النور الساطع من الشجرة الزيتونة في البقعة المباركة من شاطئ الواد الأيمن، دون ان يكون المذيع ماكنا فيها، ام متجليا لها، اللهم إلّا بأنوار وحيه في صوغ كلامه لسوق وحيه الى موساه، و لذلك يقول هنا «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» و هي هنا ربوبية الوحي، و هناك‏ «إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» حيث الوحي موجّه الى العالمين «ربك» وحيا إليك و «رَبِّ الْعالَمِينَ» فانه بلاغ منك الى العالمين!.

فلقد كان يرجو نارا فأوتى نورا

«كن لما لا ترجو أرجي منك لما ترجو فان موسى (عليه السلام) ذهب يقتبس نارا فانصرف إليهم و هو رسول نبي فأصلح الله تبارك و تعالى أمر عبده و نبيه موسى في ليلة و كذلك الله تعالى يفعل بالقائم الثاني عشر من الأئمة يصلح الله امره في ليلة كما أصلح الله امر موسى و يخرجه من الحيرة و الغيبة الى نور الفرج و الظهور» «1».

و قد عبر عن مجي‏ء وحيه بجيئته تعالى لأنه إتيان ربوبيته وحيا الى رسله و كما في الأصل العبراني في التورات تبشيرا بمهابط الوحي الثلاثة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 13: 44 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 38

«وزئت هبر أخاه أشر برخ موشه إيش ها إلوهيم إت بني يسرائيل لفني موتوا و يومر يهواه مسيني باو. زارح مسعير لاموا هو فيع مهر فاران و آتاه مرببت قدش مي مينوا إش دات لاموا». (سفر التثنية 33: 1- 2).

«و هذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته 1 و قال:

الله من سيناء جاء. تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران، و ورد مع آلاف المقدسين، من يمينه ظهرت الشريعة النارية» «1».

و قد جاء مثلها في دعاء السمات‏

«و بمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبدك و رسولك موسى بن عمران، و بطلعتك في ساعير، و ظهورك في جبل فاران بربوات المقدسين و جنود الملائكة الصافين و خشوع الملائكة المسبحين».

و على أية حال فلا تجلّي هناك للذات و لن يكون، و انما جلوات من ربوبية الوحي على موسى كما على المسيح و محمد (عليهما السلام) و سائر المرسلين مهما اختلفت الدرجات و الكيفيات.

«فَلَمَّا أَتاها» و في خلده أن يقتبس منها قبسا لعلهم يصطلون أو يجد على النار هدى، فإذا فاجئته هذه الجيئة بنداء من الرب، و طبعا هو عرف انها نداءه دون ريب، فان ذلك هو طبيعة الحال في الوحي و ان لم تسبق له سابقة، فالذي يوحي الى عبده، يوحي له معه انه وحيه، فانه لزام استقرار الوحي في مستقره، دون أية ريبة فيه، و لا شبهة تعتريه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص 44- 53 تجد تفصيل البيان حول هذه البشارة الموسوية و من حبقوق النبي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 39

لا فحسب رجالات الوحي يعرفون نداء الوحي، بل الإلهامات الإلهية- كذلك- معروفة لدى أهليها قضية تقوى اللّه، و التوسم الحاصل منها:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً» (8: 29) و كلما كانت التقوى أقوى فالفرقان على ضوئها أقوى، حتى إذا كانت عاصمة معصومة، ففرقانها ايضا عاصم معصوم، لا يخالجه شك و لا ريبة.

و

قد يروى‏ انه «لما نودي يا موسى قال (عليه السلام) من المتكلم؟

فقال: انا ربك- فوسوس اليه إبليس اللعين لعلك تسمع كلام شيطان! فقال (عليه السلام): انا عرفت انه كلام الله تعالى باني أسمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء!».

و مهما يكن من شي‏ء فلا ريب انه عرف كونه كلام الرب وحيا و من سائر الجهات، إذ كان الكلام دون جهة من النور خارق العادات، سمعه بكل كيانه سمع الأذن و القلب، و سمع الفؤاد المتفئّد بنور المعرفة القمة، فأصبح هو بكله سمعا و سماعا.

و قد تنادي «نودي» مجهولا، دون «ناديته» أن لم تكن نور الشجرة مجلى لذات الرب سبحانه، و انما خلق فيها صوت النداء دون جهة خاصة.

و على أية حال كان ذلك وحيا دون وسيط ملك الوحي، مهما كان بوسيط كلام من لسان النور الساطع من الشجرة، حجابان اثنان، حيث الوحي درجات عدة كما يقول اللّه تعالى:

«وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ» (42: 51).

فقرن «وحيا» ب «مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» قرينة انه يعني وحيا بلا أي حجاب، اللهم إلّا حجاب الذات القدسية الألوهية، و قد حصل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 40

ذلك الوحي- فقط- للرسول الأقدس محمد (ص) ليلة المعراج، ام و ليلة القدر حيث انزل عليه القرآن المحكم، دون اي وسيط، لا ملك الوحي، و لا كلام و لا نور و لا نار و لا شجرة أمّا هيه من وسائط و حجب، و انما من الرب الى قلبه القدسي الرسالي القمة: «فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏» و هو في مقام «او أدنى» و هو لما تدلّى، خالعا نعل نفسه و حجاب ذاته بعد سائر الحجب، فلم يكن حينئذ بينه و بين اللّه أحد حتى نفسه! «1».

و قد لا يكون سائر الوحي الى سائر رجالات الوحي وحيا أمام ذلك الوحي و كما في الشورى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...» (13).

كما و ان صاحب ذلك الوحي القمة كأنّه هو الرسول النبي لا سواه، بما طواه و حواه، و هو لامح من آيات عدة تخاطبه كأنه هو الرسول لا سواه.

و اما متن النداء الأولى لموسى- و ما أمتنها و أمكنها في قلبه بما طواه و حوى- فهو:

«إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» اني المكلّم إياك «انا» لا سواي «ربك» بربوبية رحيمية خاصة «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً».

و في مفاجأة هذه الجيئة، بهذه المشاهدة المنيعة، لقد كان القلب يجف و الكيان يرتجف، موسى الفريد في صمت مخيّم، بليل دامس، و برد قارص و هو كارث، و اهل بلا حارس، فإذا بنداء لم تسبق لها نظير «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ..»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الفرقان تفسير سورة النجم حول آيات المعراج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 41

فأين هذه الذرة الصغيرة الهزيلة التي تتلاعب بها الرياح، و واجهة الجلال الذي لا تدركه الأبصار، و تحار دون معرفته الأفكار، و تتضاءل في ظله الظليل كل حقير و جليل، اين هي كما هيه و تلقي ذلك النداء العال من الرب المتعال، لولا اختياره؟!.

و انها لحظة ترتفع فيها البشرية، فبحسبها ان يليق في جزء من أجزائها ان تتصل هكذا بالملإ الأعلى، و أفضل منه و أعلى، أن يخاطبها اللّه بتلك النداء!.

«يا مُوسى‏ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً» فأنت الآن يا موسى بقرب من الحضرة العلوية، فتجرد عن نعليك، و لا تطإ الوادي بهما و هو مجلى الطلعة المقدسة الربانية!.

أ ترى‏ «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ» ل «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ»؟ و قد كان يعلم موسى أنه هو ربه و لم يكن خالع نعليه، و ليس الذي حدث الآن معرفة له جديدة انه هو ربه حتى يخلع نعليه ل «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ»! ثم و ليس على كل موحّد للّه ان يخلع نعليه على أية حال، و انما «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ» ل «إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً».

و الواد المقدس الذي طواه، هو واد الوحي الرسالي، و هو اقدس واد في الكون، فليكن طاويه أقدس من في الكون، و خلع النعلين هو من كمال القداسة المناسبة لواد الوحي.

عرفنا الواد المقدس و هو مهبط الوحي فما هي «طوى» التي طوى ذكرها آيتا طوى ثانيتهما النازعات‏ «إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً».

قد تكون «طوى» اسما للواد المقدس، ام اسم وصف له لأن الوصول اليه بحاجة الى طي مسافات بعيدة من مسالك المعرفة و العبودية أمّا هيه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 42

و لكنه يقتضي قلب التعبير ك «انك بطوى الواد المقدس» فالواد بدل- إذا- عن طوى ام عطف بيان.

ام هي مصدر الطي، منصرفة خلاف الأولى، حالا عن الواد المقدس و عن موسى، فهي بمعنى الفاعل و المفعول مبالغة في الطي، فاعلا للواد المقدس حيث طوى موسى، و مفعولا لموسى المطوي به عما سوى اللّه، و عما سوى الوحي، فليخلع نعليه اللذين طوياه عن نور الوحي، فليكن موسى طوى كما الواد المقدس طوى، طيا عما طواه و حواه من حجب، الى ما طواه من الوحي و حواه في الواد المقدس، فلما طوى ما طوى عن اهله و تجلل عنهم و سواهم، طواه اللّه بالوحي بعد انتشار حاله و تفرق باله.

و قد تكون «طوى» مثلث المعنى، اسما وصفيا للواد المقدس و حالا عنه و عن موسى، و يا له من سمو المعنى.

ثم و ما هما النعلان اللذان امر هنا لك بخلعهما «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً»؟ أ هما نعلا رجليه؟

إذ كانتا من جلد حمار ميت» «1»

و لبس الميتة غير مشكور، و هو في الصلاة محظور، و طوى الواد المقدس هي كالصلاة بل اولى، لذلك فرعت‏ «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ» على‏ «إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً» و كان الواجب عليه خلعهما دون امر، مع ما في لبسهما في الصلاة و الواد من غضاضة» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 33 ابن بابويه في الفقيه‏ سئل الصادق (عليه السلام) عن الآية قال: كانتا من جلد حمار ميت‏ و في الدر المنثور 4: 392 اخرج عبد الرزاق و الفريابي و عبد بن حميد و ابن أبي حاكم عن علي (عليه السلام) مثله.

(2)

نور الثقلين 3: 373 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى سعد بن عبد اللّه القمي عن الحجة القائم (ع) حديث طويل و فيه‏ قلت فاخبرني يا بن رسول اللّه عن امر اللّه لنبيه موسى: «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً» فان فقهاء الفريقين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 43

إلا أننا لا نعرف غضاضتها في الشرعة الموسوية و حتى في الصلاة! و لبس الميتة لا يلازم صحبتها في الصلاة، بل و لا يصح لبس النعل الطاهرة فيها لقداسة الموقف، و قدسية الواد كانت بحاجة الى بيان و قد تبين‏ «إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً».

قد يعني «نعليك» مصاديق لهما عدة، أولاها في المظهر و أولاها في الظهور هما النعلان الملبوستان، و هذه طبيعة الحال في كل واد مقدس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يزعمون انها كانت من إهاب الميتة قال صلوات اللّه عليه من قال ذلك فقد افترى على موسى و استجهله في نبوته لأنه ما خلا الأمر فيها من خطيئتين: اما ان تكون صلاة موسى فيها جائزة او غير جائزة فان كانت صلاته جائزة جاز لبسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة و ان كانت مقدسة مطهرة فليست بأقدس و اطهر من الصلاة و ان كانت صلاته غير جائزة فيها فقد أوجب على موسى (عليه السلام) انه لم يعرف الحلال من الحرام و علم ما جاز فيه الصلاة و ما لم يجز و هذا كفر، قلت فاخبرني يا مولاي عن التأويل فيها قال صلوات اللّه عليه ان موسى ناجى ربه بالواد المقدس فقال يا رب اني قد أخلصت لك المحبة مني و غسلت قلبي عمن سواك و كان شديد الحب لأهله فقال اللّه تعالى: اخلع نعليك أي انزع حب أهلك من قلبك ان كانت محبتك لي خالصة و قلبك من الميل الى من سواي مغسول».

أقول هذا الحديث معارض بما تقدم، ثم هو متهافت من جهات عدة، منها «جاز لبسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة» و هي مقدسة حسب نصّ الآية! اثم «فليست بأقدس و اطهر من الصلاة» و هي اقدس منها لأنها بقعة الوحي و معراجها ارفع من معراج الصلاة! ثم «فقد أوجب الله على موسى انه لم يعرف الحلال من الحرام» و لماذا، فحين لا يعرف انها بقعة مباركة، على اللّه ان يعرفه كما عرفه‏ «إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً» و لما عرف خلع نعليه، ثم «و علم ما جاز فيه الصلاة و ما لم يجز و هذا كفر»، ماذا يعني؟ فهل هو علمه بالنسبة للصلاة و جهله حكمه بالواد المقدس، و أين الكفر هنا او الفسق و الوحي يعلّمه هنا انه الواد المقدس فاخلع، ثم لا نعلم ان ذلك الخلع كان واجبا في الصلاة كما هنا ام لا، إذا فالحديث متضارب في نفسه بعد تعارضه الحديث الأول، و عل الحق ما قلناه في المتن- تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 44

يطوي وارده طيا و ينطوي فيه انطواء، فكما ان ادب الحضور في الصلاة- و هي معراج المؤمن- يقتضي إصلاح الأدب الظاهر على ضوء الباطن، لبسا لطاهر الثياب و محلّلها و نظيفها، كذلك خلع النعلين مهما كانا نظيفين فإنهما للمشي في الطرقات دون الغرف المفروشة فضلا عن الواد المقدس طوى، الذي هو اقدس من الصلاة و أطوى، حيث العلوم الربانية فيها مطوية، فالحفاء هناك اقرب الى التواضع و الحفاوة، و لأنه يلاصق قدمه الوادي فيتبرك به، كما هو يتبرك ببركة الوحي الرباني، فكيف يقدم الواد المقدس طوى و هو مطوي تعلقا بغير اللّه، ام في رجليه بنعليه، امّا هي من تعلقات تنافي الحضور المطلق.

و في هذه الآية لمحة اكيدة ان لبس النعلين حالة الصلاة غير مشكور، بل هو محظور، «إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً» و لأنهما لم تقرنا بوصف الميتة ام سواها من محظورات، نتلمح ان اصل النعلين غير صالح بالواد المقدس، و أي واد اقدس لنا من وادي الصلاة و هي معراج المؤمن، و حالة التطامن و الذل لا يناسبها الوقوف بمظهر الماشي في الطرقات، وقاية عن القذارات، اللهّم لمن اضطر غير متجانف لاثم فلا اثم عليه، كحالة الحرب و الفرار عن المحظور، و الرواية القائلة ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) صلى في نعله قاحلة مفترية عليه جاهلة «1».

و من ثم الأهل زوجة و أولادا، حيث يتمشى بهما الآهل في حياته،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير الفخر الرازي 22: 18 و قد صلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في نعليه ثم خلعهما في الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال: ما لكم خلعتم نعالكم؟ قالوا: خلعت فخلعنا قال: فان جبريل اخبرني ان فيها قذرا»

أقول و اقذر منه نسبة هذه الفعلة الهاتكة الى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) تاركا امر ربه‏ «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 45

و «هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ» و النعل من اللباس‏ «1» و السالك الى اللّه، و الى وادي المقدس طوى، عليه ان ينسى اهليه و عبأهم في هذه السبيل، قدر ما هم يصدون عن السبيل، ام عن تكملتها، أم يخرج حبهم عن قلبه، مهما يهتم بأمرهم قدر الواجب في شرعة اللّه، فخالص الحب في اللّه، و لا سيما بالنسبة لمن يحمل رسالة اللّه، لا يلائمه حب غير اللّه، «ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» و ليكن قلب الرسول مليئا كافة من حب اللّه و الحب في اللّه.

و كذلك الأمر «خوفيك» خوفه من ضياع اهله و قد خلفهما بمخض، و خوفه من فرعون» «2» «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ حَسِيباً» (33: 39).

فحين يريد اللّه ان يبلغ موساه الى مدرجة الوحي، بالواد المقدس طوى، و هو مطوي قبله بالكثرات، يبتليه بالعسرات، حيث يسلط عليه البرد و هو مع اهله في الصحراء، و ظلمة الليل، و تفرق الماشية، و مخاض المرأة، و عدم انقداح الزندة، و ضلال الطريق حتى اندهش بغاية الدهشة، و استوحش بالغ الوحشة، ثم يريه نوره بمظهر النار المؤنسة، و يبلغه الى الواد المقدس طوى، طالبا منه‏ «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً».

و من ثم رابعة: الخلع، ان يخلع نعلي الدنيا و الآخرة، ألا يهوى فيهما و لا منهما إلا رضوان اللّه، دون هوات النعيم في الأولى، و لا لذاته في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و رؤيا النعل و الحذاء في المنام تعبر بالزوجة، و من يقظته ان ابراهيم لما ذهب إلى مكة ليزور إسماعيل فلم يجده في بيته و لم تستقبله زوجته، قال لزوجته إذا جاء إسماعيل فقولي له بدل حذائك، فلما سمعها إسماعيل طلقها تعبيرا للحذاء بالأهل.

(2)

تفسير البرهان 3: 33- ابن بابويه بإسناد متصل الى الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) انه قال‏ في قوله عز و جل لموسى: اخلع نعليك يعني ارفع خوفيك .....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 46

الأخرى، فان نعيم القرب و الرضوان أنعم من نعيم الآخرة و الأولى.

و خامسة هي انخلاعه عن نعلي الحجب: حجاب الإنية الذاتية، و الحجب الخارجية، حتى يستعد للوحي في مقام قاب قوسين دنوا الى اللّه حيث ليس بينه و بين اللّه أحد، و كما

يسئل الامام الصادق (ع) ما تلك الغشية التي تعتري رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال: ذلك هو الوحي، ذلك إذا لم يكن بينه و بين اللّه أحد».

و سادسة هي انخلاعه عن نعلي الروح و الجسم، حيث الحيوية المتعودة تتبناهما، فليتركهما و حالهما، متجردا بقلبه الى اللّه، سفرا سافرا الى اللّه، لا يحسب نفسه شيئا بجنب اللّه، متغافلا عما لديه عند اللّه، متحللا عما سوى اللّه، متعلقا ككلّ باللّه.

هذه اماهيه من نعال فيها انشغال عن اللّه، عليه ان يخلعهما «إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً»! فالنعل ما يمشى بها الى بغية، مادية ام معنوية، فإذا موسى و اصل الى بغيته القصوى، الى الواد المقدس طوى، فليخلع نعليه، واقفا حافيا بقدميه، حيث يمشي منذ الآن و يمشّي براحلة الوحي من اللّه، فلا حراك له بعد و لا سكون الا بالوحي، دون سائر التعلقات و الوسائل الماشية سوى الوحي، فانه منذ الآن مختار اللّه.

وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى‏ 13.

و ترى موسى المختار لربه هو أدنى من الواد المقدس حتى يؤمر بخلع نعليه؟ اجل! انه كموسى قبل ان يوحى اليه ادنى من الوحي و واديه، و ليست قدسية الوادي الا بقدسية الوحي، فان شرف المكان بالمكين، فلا قداسة و لا نحوسة لمكان او زمان، الا بما حل في مكان او زمان، و قد حلت بارقة الوحي البازغة لموسى في ذلك الواد، فقدس بها كما قدس موسى، و أمر أن يخلع نعليه‏ «إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً».

و ذلك حكم عام لكل واد مقدس، كالمساجد و حضور الرسول (صلّى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 47

اللّه عليه و آله و سلم) و الأئمة «1» ام قبورهم، حرمة للّه، و تبجيلا للمقربين إلى اللّه.

هنا موسى خيرة اللّه- و طبعا على علم- على العالمين، و إلّا فكيف يبعث رسولا الى العالمين، كما هو الصيغة الشاملة لكافة المرسلين، انهم خير العالمين باختيار رب العالمين.

و «اخترتك» هنا هي بصيغة اخرى هي ادل و أحرى في «طه» نفسها. «... فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏ وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي. اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي» (42) و «إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» (7: 144) اجل‏ «وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي. وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي» (20: 29): تصريحات اربع تبين محتدة الرفيع التربوي الرسولي و الرسالي!.

اجل و الرسل كلهم صنائع الرب لنفسه، ليحمّلهم رسالاته آمنين مأمونين، حتى لا تشوبهم شائبة، و لا تنال منهم نائلة نائبة، فتصبح مساعيهم خائبة.

فيا لموسى تكريما كريما ان يختاره اللّه و يصطنعه لنفسه، و هكذا تكون رسالة الوحي، لا تستحق على اللّه، فانها خيرة الرب لا سواه، و ليست سائر الأسباب للمختار برسالة اللّه، إلّا تقدمة لظرفها الصالح لها، دون ان تكون المساعي الشخصية، او الشوراءات، لها مدخل قاطع في تلقي الوحي،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 374 في الخرائج و الجرائح قال علي بن أبي حمزة كنت مع موسى (عليه السلام) (اي موسى بن جعفر) بمنى ثم مضى الى دار بمكة فأتيته و قد صلّى المغرب فدخلت عليه فقال: اخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى فخلعت نعلي و جلست معه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 48

فانما هي خيرة اللّه: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ» (22: 75).

فهي إذا رعاية الرحيم الرحمان لهذا الإنسان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟

و الإختيار افتعال من الخير، فقد يختار الإنسان نفسه بما يعتمل من صالحات فيكتمل، و لكنه لقصوره في ذلك الاختيار لا يصل الى القمة و هي العصمة علمية و عملية و تطبيقية.

و لكنه حين تمتد اليه يد الرحمة الإلهية الخاصة، بعد ما سعى سعيه و قد اختار له ربه ظروف السعي العليا منذ أصلاب الآباء و أرحام الأمهات، و الى الولادة و النضوجة العقلية، آنذاك تشمله الخيرة الإلهية الثانية لإفاضة العصمة و التسديد الرباني، فهو مختار اللّه في ابعاد ثلاثة، و الزاوية الوسطى بينها هي مساعي العبد باختياره على ضوء ما قدم اللّه له من قبل، و نظرة ما يؤخره له من بعد، و للّه الأمر من قبل و من بعد.

و هاتان آيتان بدائيتان من الوحي القدامي أمام وحي الرسالة، تهيئان لموسى ظرف الاستماع لذلك الوحي بسمع القلب و قلب السمع، «فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى‏» و كان سامعا لما اوحي قبلها و لكن منذ الآن عليه الاستماع بعد سمع، تحضيرا لمسامع قلبه و لبه و فؤاده، بعد سمعه.

فحين يتم الإختيار الرباني لرجل رباني يحين حين استماع الوحي بعد سماعه، و بعد تحمل مشاق في سبل التخيّر، التي فيها أشلاء و دماء و حرمانات و كل ما هو آت في هذه السبيل المليئة بالأتعاب و الأشغاب.

و في تفريع الاستماع‏ «فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى‏» على الاختيار «وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ» دليل ان الاختيار دليل الاستماع، فلولا الاختيار لم يك استماع لما يوحى، فهو اختيار لوحي الرسالة، بعد ما اختير لعبودية كاملة هي ذريعة للرسالة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 49

و موسى هنا بطبيعة الحال يستعد للاستماع بكامله و قد يصح ما قيل فيه انه وقف على حجر و استند الى حجر، و وضع يمينه على شماله، و القى ذقنه على صدره و أصغى بشراشره، فأصبح كله أذنا صاغية واعية، و من أدب الاستماع حضور المستمع بكل محاضره و مسامعه، تأهّبا لتعلمه و تفهمه، ثم تطبيقه و نشره، و ذلك هو الاستماع الكامل الحافل لغايته، و هو استماع الرسالة و رسالة الاستماع، و إلا فلا سماع و لا استماع.

فموسى الرسول هنا يستمع كرسول، دون ما استمعه من قبل بما يتبنى شخصه قبل رسالته نبوءة شخصية: «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى‏ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (28: 14).

فقد كان اصطناعه مرحليا كسائر الرسل، شخصيا كما يجب ثم رساليا «فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى‏»:

و هنا يختصر الوحي في بدايته الرسالية في بنود ثلاثة مترابطة مع بعض، التوحيد و العبودية و الساعة، و هي بصيغة اخرى: المبدء و المعاد و ما بين المبدء و المعاد، و هذه هي الأصول الموضوعية الرئيسية للشرعة الإلهية ككل و في كافة الرسالات.

و لماذا «لِما يُوحى‏» بعد «أَنَا اخْتَرْتُكَ» دون «ما أوحي»؟ علّه لأنه مما يوحى لكافة الرسل ككل، لا فقط لموسى، بل «لما يوحى» على طول خط الرسالات، إيناسا له بعامة الوحي و هامته:

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي‏ 14.

كلمات ثلاث هي العليا، و كلمة الذين كفروا السفلى، و من ثم الى إحدى عشر آية، عرض لواجب الرسالة تدريبا لآياتها «وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ‏ ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 50

لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى‏» ثم ذهابا الى فرعون و هو رأس الزاوية في متاهة الضلالة، و من ثم اثنتي عشرة آية أخرى يتطلب فيها موسى من ربه شرح صدره، و تيسير أمره، و حل العقدة من لسانه، و شد أزره بوزير من اهله تكملة لأمره.

فقد فصّلت الأصول الثلاثة هنا لك بعد ما أجملت، خلال ثلاث و عشرين آية، عرضا موجزا عن كل الرسالة الموسوية و كافة الرسالات فانها سلسلة موصولة في خيوطها و خطوطها على مدار الزمن الرسالي إذ «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ».

«انني» لا سواي‏ «أَنَا اللَّهُ» لا سواي‏ «لا إِلهَ إِلَّا أَنَا» لا سواي، توحيدا في كافة جنبات الالوهية و الربوبية.

و هذه هي قضية الحضور في الوحي، تعريف المسمى الحاضر باسمه في توحيده، تعريفا للذات بوصف الاسم، لا تعريف الاسم بوصف الذات، فالنص‏ «إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ» لا «ان الله انا».

فاللّه ذاته هو حاضر بذاته، يعرف نفسه باسمه الذي يخطؤه الجاهلون الى سواه: «انني انا» المسمى ب «اللّه» لا سواي، «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» (19: 65)؟

و هنا بعد اثبات انه هو اللّه دون سواه، إذا «لا إِلهَ إِلَّا أَنَا» لان الكل غير اللّه، فكيف يشرك غير اللّه باللّه، و الالوهية الاصيلة خاصة باللّه كما يعترف بها المشركون، و لكنهم يشركون به من لا يسمونهم باسم اللّه، و انما آلهة دون اللّه، متهمين اللّه انه اشركهم بنفسه، ام هم يشركونهم به إذ لا يصلون اليه نفسه، فليصلوا بآلهة اخرى هم من خاصة عبادة «ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏» (39: 3).

و هنا «فاعبدني» يفرّع عبوديته الوحيدة على ألوهيته الوحيدة، فاصل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 51

عبوديته ل «إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ» و انحصارها فيه حيث‏ «لا إِلهَ إِلَّا أَنَا» و العبودية و هي خالص الخضوع و الخشوع للمعبود لا تحق إلا لخالق الوجود و مدبر كل موجود، و هو هو اللّه الخالق المدبر «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» (7: 54).

فالألوهية الوحيدة هي قوام العقيدة و قضية العمل وفقها، و العبادة تشملها توجها الى اللّه الواحد في كل نشاطات الحياة و واجهاتها، فليكن العبد بشراشره ظاهرة و باطنة عبد اللّه و تعبدا في اللّه، و ليست العبودية الا بعد المعرفة حيث تتبناها في البداية ثم زائد المعرفة تتبنى العبودية كما تتبنى سائر وسائلها.

و لان الصلاة هي قمة العبودية و عمود الدين العبادة، لذلك تختص بالوصية بعد مطلق العبودية: «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» فيا لهذا الوحي الحبيب من طلاوة، و في تلاوته من حلاوة، حيث يؤثر فيمن يحمل غضاضة بكل هزازة و هو الخليفة عمر حيث يأخذ سيفه ليقتل محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لأنه صبأ و أصبأ معه جماعة آخرين، فلما يقرأ طه الى هنا يؤمن! «1» اجل‏ «وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 292- اخرج ابن سعد و ابو يعلي و الحاكم و البيهقي في الدلائل عن انس قال: خرج عمر متقلدا بالسيف فلقيه رجل من بني زهرة فقال له اين تغدو يا عمر قال: أريد ان اقتل محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: و كيف تأمن بني هاشم و بني زهرة فقال له عمر ما أراك الا قد صبوت و تركت دينك قال أ فلا ادلك على العجب ان أختك و ختنك قد صبوا و تركا دينك فمشى عمر حتى أتاهما و عندهما خباب فلما سمع خباب بحسّ عمر توارى في البيت فدخل عليهما فقال ما هذه الهيمنة التي سمعتها عندكم و كانوا يقرؤن طه فقالا ما عدا حديثا تحدثنا به قال فلعلكما قد صبوتما فقال له ختنه يا عمران كان الحق في غير دينك فوثب عمر على ختنه فوطئه و طأ شديدا فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفحها نفخة بيده فدمى وجهها فقال عمر اعطوني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 52

و لان‏ «أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» تحمل قمة البيان للصلاة و الدافع لها و غايتها، لأنها بداية الوحي على موسى، و هي موجّهة كذلك و باحرى الى محمد آل طه، فلتكن حاوية كل ما للصلاة من صلات بالعبد و باللّه و بنفسها شروطا و اجزاء و مقارنات و مقدمات، بهذه الصيغة الاجمالية الجميلة، و هي كذلك حين نتأملها كيف نتعملها.

ف «أقم» تحمل كافة القيامات الظاهرية و الباطنية، فردية و جماعية للصلاة، فانها قد تؤتى غير مقامه بما يتوجب فيها، و هذا قيام إليها دون اقامة لها «وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى‏ يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» (4: 142) «وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى‏» (9: 54) «لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى‏ حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ» (4: 43) و هذه و أشباهها هي من اضاعة الصلاة و لم نؤمر في كل القرآن إلا بإقام الصلاة.

و الصلاة تعمها قالا و حالا و افعالا، فلتكن مقامة في مثلثها على أية حال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الكتاب الذي هو عندكم فأقرؤه فقالت أخته انك رجس نجس و انه لا يمسّه الا المطهرون فقم فتوضأ فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرء طه حتى انتهى الى‏ «إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» فقال عمر: دلوني على محمد فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال: ابشر يا عمر فاني أرجو ان تكون دعوة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ... فخرج حتى أتى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و

فيه اخرج ابو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال حدثنا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن جبريل (عليه السلام) قال قال اللّه عز و جل:

اني انا اللّه لا اله الا انا فاعبدني من جاءني منكم بشهادة ان لا اله الا اللّه بالإخلاص دخل في حصني و من دخل في حصني أمن من عذابي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 53

و من ثم «لذكري» تحمل احتمالات عدة تلائم ادب اللفظ و حدب المعنى:

فالذكر هنا بين دافع و غاية، و الاضافة في كلّ بين ما هي الى فاعل او مفعول، و اللام في «لذكرى» بين توقيت و تعليل، و الظرف بين تعلقه ب «فاعبدني» و «أقم» و «الصلاة».

ثم الذكر بين قال و حال و افعال، تواصلا في ذلك المثلث البارع، من ذكر اللسان و ذكر الأفعال و ذكر الأحوال، فطرية و عقلية، و فكرية و صدرية و قلبية، و لبية، و فؤادية، حتى يصبح المصلي كله ذكرا للّه كما كله عبد و عبادة للّه.

فدافع الذكر للصلاة هو باضافة المصدر الى فاعله: لذكري إياك، فكما اني أذكركم في عطيات دائبة فأقيموا الصلاة ذكرا لي كما أذكركم، ذكرا بذكر و اين ذكر من ذكر.

و دافع ثان ان ذكري مفطور في فطركم و عقولكم فأقيموا الصلاة بدافع ذكري الفطري، حيث فطرتكم بتوحيدي، حتى و ان لم آمركم بها، حيث الأحكام الفطرية ليست بحاجة الى أوامر منفصلة، اللهم الا ان تكون لها ذكرى، و كذلك سائر ذكري في الآفاق و في أنفسكم، من وحي العقل و وحي الرسالات و وحي الكائنات ان لا اله الا انا فاعبدني حيث الكائنات برمتها هي ذكر للّه بما قرره اللّه!.

ثم و غاية الذكر بالصلاة هي باضافة المصدر الى مفعوله، أقم الصلاة لذكرك اياي، لتذكرني بها فانها خير ذكر قالا و حالا و افعالا، و الى فاعله لغاية ذكري إياك في أولاك و أخراك، و هذه كلها في وجه التعليل المستفاد من اللام، دافعية ام غائية.

و من ثم «لذكري» توقيتا، «أَقِمِ الصَّلاةَ» حين تذكرني، لا حين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 54

الغفوة و الغفلة كمن يأتون الصلاة كسالى ام سكارى، ثم لوقت ذكري الذي فررته لي‏ «إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً» (4: 103) و من ثم توقيتا هامشيا لمن نسي صلاته في وقتها «أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» حين تذكرها كما «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ» (17: 78).

و انما كررت- فقط- هذه الاخيرة فيما يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أئمة أهل بيته الطاهرين (عليهم السلام)، لأنها أخفى مصاديقها بين المحتملات بما هي هامشية غير اصيلة.

فقد

«سئل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن رجل غفل عن الصلاة حتى طلعت الشمس او غربت ما كفارتها؟ قال: يتقرب الى اللّه و يحسن وضوءه و يصلي فيحسن الصلاة و يستغفر اللّه فلا كفارة لها الا ذلك ان اللّه يقول: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» «1».

و من هنا يتبين ان الفائتة مقدمة على الحاضرة، إلا إذا خيف على فوت الحاضرة كما استفاضت به الرواية عن الائمة الطاهرة «2».

و هناك ذكر القال في قيلات الصلاة، بحال و منها النية الصادقة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 294- اخرج الطبراني و ابن مردوية عن عبادة بن الصامت قال:

سئل ... أقول: و قد اخرج قضاء الصلاة هكذا سنادا الى الآية بعدة طرق عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

(2)

نور الثقلين 3: 375 بسند صحيح عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: إذا فاتتك صلاة فذكرتها في وقت اخرى فان كنت تعلم انك إذا صليت التي فاتتك كنت في الاخرى في وقت فابدأ بالتي فاتتك فان اللّه عز و جل يقول: أقم الصلاة لذكري- و ان كنت تعلم انك إذا صليت التي فاتتك فاتتك التي بعدها فابدأ بالتي أنت في وقتها فصلها ثم أقم الاخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 55

الصافية، و بافعال هي كل افعال الصلاة، و هذه المحتملات بضرب بعضها في بعض تصبح (240) احتمالا و ان كان بعضها مكرورا و آخر بين منكور و مشكور، و القرآن حمال ذو وجوه فاحملوه الى احسن الوجوه، و لان الصلاة هي خير موضوع لذلك «لا تترك الصلاة بحال».

و هكذا نرى ان للصلاة صلات عريقة دافعية و غائية و زمنية، كلها تحور على محور ذكر اللّه‏ «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» و كيف لا؟ و انها أكمل صورة من صور العبادة و سيرها، و أفضل وسيلة من وسائل الذكر حيث تتمخّص لهذه الغاية، و تحصل بذلك الدافع، و تتجرد من كل الملابسات الأخرى، فتجمّع الإنسان للاتصال باللّه، حيث تعلّقه باللّه بما دنى بها العبد أو تدلى، فكان قاب قوسين أو ادنى، و لذلك‏

يروى عن صاحب المعراج قوله‏ «الصلاة معراج المؤمن»!

ثم و في تقسيم خاصر يحوي كل هذه التقاسيم «لذكري» انه بين قلبي و قالبي، و قلب الذكر هو ذكر القلب، و ليس القالب الا حاكيا عن القلب فمزيدا لذكر القلب، و الجمع فيهما هو جمع الذكر، ان يصبح الإنسان كله ذكرا للّه، إيصالا للصلاة القالبية الى الصلاة القلبية، و من ثم الى كافة المراحل الروحية.

فحين تحلّق الصلاة الذكر و الذكر الصلاة على الإنسان ككل، يصبح كله صلات باللّه بصلاة للّه، و آنذاك‏ «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ» (29: 45).

و من افحش الفحشاء الرئاء، فصلاة المرائي ليست «لذكري» بل لذكر الناس في أسفل درك من الرئاء، و لجمع الذكرين في سائر دركاتها، و ان ذكر الفطرة و ذكر العقل و ذكر الوحي للّه، و كذلك ذكر اللّه و كل ذكر دافعا و غاية، انها تنافي الرئا و تنافيها الرئاء!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 56

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏ 15.

و في هذه الزاوية الثالثة من أركان الشرعة الإلهية تكتمل اصول الدعوة مبدء و معادا و ما بين المبدء و المعاد، و هذا هو الوحي بأحكام العبودية و في قمتها الصلاة، فتمت بذلك اصول الدين بفروع في صيغة مختصرة محتصرة، هي لكل شرعة إلهية، مهما اختلفت الشرائع في طقوس عبادية حسب المظهر و الصورة.

و لأنه ليس ليلتزم عبودية اللّه- فقط- لأنه اللّه لا اله الا هو- إلّا من شغفه حبا و هي عبادة الأحرار، و هم قلة قليلة بين عباد اللّه، ثم الثلة الباقية هم بين عبيد و تجار، لذلك يثنى دافع المبدء بالتوحيد المعرفة الخالصة، بدافع المعاد، فبين المبدء و المعاد يكثر العباد رغبة في الثواب و خوفة من العقاب.

و عرض المعاد في ذلك المثلث البارع، عرض عريض في المعنى الاجمالي عن المعاد واقعا و غاية قصوى، و هنا لك تتم الشرعة الإلهية أصولا و فروعا في مطلع الوحي الموسوي كما هو في كافة المطالع الرسالية السامية، و قد جمعت لسيد المرسلين و امام النبيين أتمها و أعمها و أهمها كما يناسب الخلود.

نجد «الساعة» المعنية بها القيامة في احدى و أربعين آية بين (48) مرة «الساعة» في سائر القرآن، و هي ثانية الأسماء كثرة و شهرة بعد القيامة السبعين، مما يدل على مدى اهميتها تعبيرا عن ذلك اليوم العظيم.

و اصل الساعة من ساع الشي‏ء إذا زال و ضاع، فهي إذا وقت ضياع الكائنات عن بكرتها في قيامة التدمير، و اطلاق الساعة على جزء من الزمان انما هو لتصرفه و ضياعه دونما رجعة، و كذلك امر الساعة إذ لا رجعة فيها الى الاولى، و انما هي الاخرى‏ «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 57

و قد تعنى «الساعة» الساعات الثلاث كلها «ساعة الرجعة و الموت و القيامة «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏» حيث المجهولية في كل منها تدفع الى السعي خوفة منها، مهما كانت الاخيرة هي الاصيلة بينها، و الأوليان تتبنيانها.

ثم‏ «أَكادُ أُخْفِيها» في مواصفة الساعة، قد تعني سلب الخفاء و إيجابها معا، فلو عنت السلب فقط، فقضية الفصاحة: أكاد أظهرها، حيث السلب في مادة الإفعال بحاجة الى قرينة تسلبها عن إيجابها كما في‏ «وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ» اي مسلوبي الطاقة في الصيام، ثم و عناية الإيجاب هي قضية ظاهر الإيجاب.

و الجمع هنا بين سلب الخفاء و إيجابها جمع بين ما يعنى من الساعة، ف «أَكادُ أُخْفِيها» سلبا لخفائها لمدى الحتمية القاطعة لوقوعها، لحد أكاد أظهرها قبل أوانها، ام أعلن بوقتها قبل مرساها، و لكن‏ «يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (7: 187).

فذلك السلب مستحيل، و «أكاد» فيه مبالغة لتحقق وقوعها لحد أكاد أسلب الآن خفاءها، و من ثم سلب الخفاء عن واقعها و هو إقامتها في وقتها، و ذلك ممكن، و أكاد فيه تقريب لوقوعها: «وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هُوَ قُلْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً» (17: 51).

و إيجابا: ان الساعة خفيّة حسب الحكمة العالية و المصلحة الملزمة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 58

لحد «أَكادُ أُخْفِيها» على نفسي‏ «1» كما أخفيتها على غيري، ف «أكاد» هنا مبالغة لطيفة تعني غاية الخفاء لها، لحد لو أمكن لكنت أخفيها على نفسي!.

و «أكاد» هنا لا تكاد تعني قرب الزمن لإخفائها سلبا او إيجابا، و انما هي تأكيدة لامعة لتأكد واقعها في وقتها، و استحالة إظهارها قبل وقتها حيث «ثقلت في السماوات و الأرض لا يجليها لوقتها الا هو»! و ما ألطفها و أعمقها تعبيرا عن مدى خفاء الساعة، و لماذا؟

«لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏»: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ .. لِتُجْزى‏ ..»

و «أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى‏» فأصل الجزاء هو غاية الساعة في إتيانها، و خفاءها غاية «بما تسعى»، ام‏ «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏» غاية لهما.

فان الساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العدل و الفضل، فتتجه إليها النفوس المؤمنة فتحسب حسابها، سائرة في الطريق مراقبة تخشى الانزلاق بجيئتها المفاجئة الفجيعة.

فإذا كانت المجازاة هي المقصودة من إتيان الساعة، فلتكن قاطعة الإتيان لحد «أَكادُ أُخْفِيها» إزالة لخفائها، و لتكن خفية في وقتها ليكون الخلق في كل حين على حذر من مجيئها و وجل من بغتتها، فيستعدوا لها قبل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 375 في مجمع البيان و روى عن ابن عباس‏

«أكاد أخفيها من نفسي» و هي كذلك في قراءة أبي و روي ذلك عن الصادق (عليه السلام)

أقول هذه القراءة مطروحة او مؤولة الى انها كتفسير لأخفيها و في الدر المنثور اخرج تفسير «من نفسي» عن ابن عباس و مجاهد و قتادة و أبي صالح و عن ابن مسعود: أكاد أخفيها من نفسي يقول: اكتمها من الخلائق حتى لو استطعت ان اكتمها من نفسي لفعلت، و عن أبي: أكاد أخفيها من نفسي فكيف اطلعكم عليها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 59

حلولها، و يمهدوا أنفسهم قبل نزولها «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏».

و المجهول زمنا، القاطع اتيانا، هو عنصر اساسي في حياة الإنسان ام اي مكلف كان، لتكوينهم النفسي، متطلعين اليه، متبنين حياتهم عليه، فلو كانت الساعة لهم مكشوفة لوقفت نشاطاتهم، و امنت حياتهم، و لكنهم وراء المجهول المأمول يجرّون، فيعملون لما يأملون، و يجربون و يتعلمون، و يكشفون المخبوء من طاقاتهم و سائر الطاقات، فيرون آيات اللّه في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شي‏ء شهيد.

تلك الساعة المجهولة الأمد تبشرهم بثوابها إن عملوا الصالحات، و تحذّرهم عن عقابها ان عملوا الطالحات، فهم بذلك مندفعون الى كل خير، دافعون عن أنفسهم كل شر، حتى إذا أتتهم ساعة الجزاء فتبغتهم رابحين، ساعة الموت او الرجعة ام القيامة الكبرى‏ «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏»- «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» (53: 40).

و هنا نعرف ان السعي- فقط- هو عامل الجزاء ليس إلا، فلا فوضى هنا لك في الجزاء، و لا تزر وازرة وزر اخرى، ثم و لا جزاء بنيّة دون عمل فانها ليست مما «تسعى» اللهم الانية الصالحات لمن لم يسطع ان يعملها، فلصاحبها الجزاء الحسنى فضلا من العلي الأعلى، و ذلك بدلالات اخرى غير «بِما تَسْعى‏» و كما ان آيات حصر الجزاء بالأعمال‏ «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» تخص العقوبات- فيما تخص- بالأعمال الطالحة دون النيات فقط.

ثم‏ «بِما تَسْعى‏» دون «بما تعمل» قد تلمح بكدح في العمل، فالصالحات المتفلتة دون سعي، و الطالحات مثلها كما اللمم، قد لا يجزى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 60

بها ام يقل، ففي الاولى القلة حاصلة، و في الطالحات العفو على شروطه المسرودة في الذكر الحكيم.

فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى‏ 16.

«فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها» تأكيد صارم صدا عن الصد عنها، تفريعا على‏ «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏» صدا عقيديا عن إتيانها، او خفاءها، ام جزاء كل نفس فيها بما تسعى، ام صدا عمليا رغم التصديق بها، و الصاد عنها هو «مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ» في نكرانها و الدعاية ضدها، فلو صددت عنها «فتردى» في جحيم الضلالة و المتاهة، بما تتردى في همجية الأعمال بسفاسف الأخلاق.

و هناك ردى في نكران المبدء و المعاد هي أردى، و هنا أخرى بنكران المعاد عقيديا، و ثالثة عمليا، «فَلا يَصُدَّنَّكَ» تشمل ذلك الثالوث كله، حيث الصد عن المعاد بعد الصد عن المبدء أردئ فتشمله «فتردى» بأولى و أحرى.

و قد تعني «عنها» و «بها»- فيما عنتا- كلمة التوحيد المستفادة من‏ «لا إِلهَ إِلَّا أَنَا» و العبادة المعنية من «فاعبدني» و الصلاة المذكورة بنفسها و في خلالهما الرسالة المبيّنة لهما كما تعني الساعة أخيرا، و قد تقتضيها طبيعة الحال في بنود الرسالة المسرودة هنا، فان إثباتها يقتضي تأكيد السلب عن الصّد عنها، و هنا لك تردّيات عدة في الانصداد عن كلّ منها، فهنا في المرجع لضميري «عنها و بها» احتمالات يحتملها اللفظ و المعنى‏ «1».

«فتردى» في هوّات الإشراك باللّه عند الصد عن كلمة التوحيد،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رجوعا للأول تارة الى المجموعة المستفادة مما سبق، و اخرى الى كل واحدة منها، توحيدا و نبوة و عبادة و صلاة و ساعة، و هكذا الأمر في الثاني، و المحتملات 28.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 61

فتهلك في هذه الردى.

«فتردى» في الشهوات و اللهوات في صدك عن عبادته و عن الصلاة لذكره تعالى.

«فتردى» عن التزامات العبودية و الصلاة و لزاماتها عند الصد عن الساعة، فهنالك- إذا- ثالوث من التردّيات و التهلكات في الانصداد عن مثلث المعتقدات.

و قد تعني كلّ من «عنها و بها» فيما عنتا، كلا من هذه الثلاثة، حيث اللاإيمان في كلّ منها يصد عن الاخرى كما يصد عن نفسها، فنكران التوحيد صدّ عن العبودية و الساعة، و نكران العبودية و الصلاة صد عن المبدء و المعاد، و نكران الساعة كذلك صد عنهما.

و من هنا نعرف ان الواجب في اصول الدين و فروعه ليس هو الإعتقاد بها و العمل لها فحسب، بل و التصلب و الصمود فيها لحد لا تنفصم عراها.

و هنا في واجب العلم بالأصول و فروعها مراحل: القناعة الشخصية دون تزعزع و لا تلكّؤ، ثم الحفاظ عليها في المخالطات الضرورية مع الناس، و من ثم في السّبح الطويل في خضم المجتمع، ثم الدعوة إليها و الدعاية الصالحة لها.

فالمرحلتان الأوليان مفروضتان، إذ لا بد للإنسان من مخالطة حيوية مع المجتمع، كضرورة للحياة، و الثالثة لا تصح إلا لمن صحح يقينه لحد لا ينفصم بمن يصد عنه، و إلا فذلك تورط و ترد في ورطات و هوات.

و الرابعة هي للدعات الى اللّه على شروطاتها، أخذا من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و الى القيادة الربانية الشاملة غير المعصومة، و الى قيادة العصمة في أئمة الهدى، الى قيادة الرسالة، و كلّ درجات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 62

«وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

و البلاء العام في‏ «مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها» هو «وَ اتَّبَعَ هَواهُ» إذ لا برهان على الصد عنها فطريا و لا عقليا و لا أيا كان، اللهم إلا اتباع الهوى، و لا يتبع هوى أصحاب الهوى إلّا من هو من أصحابها، تغافلا عن فطرته و تجاهلا عن عقليته، و تعاميا عن آيات الرسالات الإلهية.

«انما أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى و طول الأمل اما اتباع الهوى فيصد عن الحق و اما طول الأمل فينسي الآخرة»

«1» و

«انما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع و احكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله و يتولى عليها رجال رجالا فلو ان الحق خلص لم يكن للباطل حجة و لو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهنالك استحوذ الشيطان على أولياءه و نجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى»

«2».

و ترى موسى المختار من ربه لوحيه ما كان موحدا يعبد ربه و يصلي لذكره و يعلم آتية الساعة، حتى يخاطب في بازغ وحيه جملة عن تفصيل ما اوتي في الألواح، بهذه الأصول المعرفية و العملية.

اجل و لذلك اختاره اللّه، و لكنه كرسول يحمل- بما يوحى- رسالة اللّه الى العالمين، اضافة الى تكملته نفسه بأكمل مما كان كما هو قضية الحال في كل رسول على آية حال، و قد امر محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 3 عن اصول الكافي بسند عن يحيى بن عقيل قال قال امير المؤمنين (عليه السلام): ...

(2) اصول الكافي بسند متصل عن امير المؤمنين (عليه السلام) و مثله في النهج باختلاف يسير في بعض ألفاظه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 63

وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» و ما الى ذلك من أوامر، تصطنع شخصه اكثر مما كان، و رسالته الى العالمين.

هنا لك تمت المرحلة الأولى لنداء موسى، حاوية جملة الرسالة، و بينما هو في شغف الاستماع و شعفه بكل كيانه حيث أصبح كأنه كله سمع و استماع، إذا بمرحلة ثانية في مسائلة حبيبة:

وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى‏ 17.

«و» هنا عطفا على نبوءة الوحي قد تلمح ان في سؤاله بجوابه وحي آخر نبوءة أخرى كما مضت، أم رسالة أما هيه من خارقة إلهية.

ثم «ما» سؤال عن الماهية دون فاعليتها، و «تلك» اشارة الى عصاه تأشيرا انه تعالى يعرفها كما هيه و لكنه يعني بسؤاله موسى ان يعرفها كما هي، يعرفها لبيان البون بينهما، الذي لا يعرفه موسى.

و «بيمنك» دون «يدك» علّه لبيان الموضع، فعلّ بيساره شيئا آخر كالخاتم و سواه.

فلم يكن السؤال استفهاما، بل هو اختبار لمدى معرفة موسى بعصاه حتى يزيد اخرى لا يعرفها، و ما اختيار موسى لما يوحى بالذي يدل على انه يعرف الأمور كلها، بل هو كما كان هو الآن بحاجة في معرفة عصاه الى تعريف من ربه، فضلا عما سواها من معرفيات.

و نرى موسى بدلا عن ان يجيب عن ماهية عصاه، يكتفي بذكر اسمها ثم مآربها عنده، و قد كان يكفي‏ «هِيَ عَصايَ» عسى ان يزيده ربه تعريفا بعصاه، و لكنه لشغفه البالغ لتلك المحاورة الحبيبة مع ربه، حين ما يسأله عن أبسط شي‏ء متعطفا عليه، لذلك يطوّل في الجواب بأقصى ما يعرفه عن عصاه، عساه ان يزيده ربه علما بعصاه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 64

و قد عني من هذا السؤال ان يستحضر موسى معرفته بعصاه، و انها كعصاه منسوبة اليه ليست إلا كما عرفها، فلما تصبح حية تسعى او ثعبانا مبينا بما ألقى، يعرف ان ذلك من ربه و ليس منه، فقد كانت معه ردحا كثيرا من الزمن فلم تكسب من معيته ما كسبت من مفارقته بإلقاء موسى، ثم ليؤكد انها خشبة كسائر الأخشاب حتى إذا قلّبت حية تسعى فلا يخشاها، بل يعرف انها قلبة الهية عصا رسالية لموسى بعد ما كانت عصى بشرية، و اين عصى من عصا؟.

و ترى ان موسى بذلك الخطاب دون حجاب يفضّل على نبينا؟ كلا حيث خوطب نبينا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) دون اي حجاب، و لموسى حجاب النور و الشجرة، ثم موسى لم يصل في وحيه الى مقام‏ «أَوْ أَدْنى‏» و محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) وصلها، و قد أعلن الوحي الخاص الى موسى في اذاعة توراتية و قرآنية، و وحي محمد الخاص به لم يعلن بعد:

«فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏»! قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ بِها عَلى‏ غَنَمِي وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى‏ 18.

«قال» موسى «هي» التي بيميني «عصاي» و في الخبر انها «قضيب من آس من غرس الجنة» «1».

«كانت لآدم (عليه السلام) فصارت الى شعيب ثم صارت الى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 34 عن الكافي بسند عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله يقول: كان عصا موسى قضيب آس من غرس الجنة أتاه بها جبرائيل لما توجه تلقاء مدين و هي و تابوت آدم في بحيرة طبرية و لن يبليا و لن يتغيرا حتى يخرجهما القائم (عليه السلام) إذا قام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 65

موسى و انها عندنا» «1»

اي اهل البيت (عليهم السلام)، و لا تصدقها «هِيَ عَصايَ ..» او تكذبها، و لئن كانت فيها من قبل خوارق عادات لذكرها في عداد العاديات من فوائدها، اللهم إلا ان تكون معنية فيما يعنى عن‏ «مَآرِبُ أُخْرى‏».

و لو ان‏ «مَآرِبُ أُخْرى‏» تعني ما قد يروى من خوارق العادات، فكان موسى- إذا- تعودها منها، فلما ذا يخافها إذا هي حية تسعى؟! «قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى‏»! و من المحتمل ان الخوارق من هذه العصا بدأت منذ ألقى، و الى ضربها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، و البحر فحصل بها فيه اثنى عشر طريقا يبسا، ثم الى القائم منا (عليه السلام) و عساه يعمل بعصاه هذه اكثر من موسى و كما قد يروى.

و موسى هنا بعد تسمية العصا ذكر لها مأربين من مآربه، قاصدا تطويل الجواب آنسا طائلا في نداء ربه، إذا بالكلام متفلتا عنه استحياء منه ام لعدم مساعدة الحال و اضطراب البال فأجمل سائر مآربه الى قوله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن الكافي بسند عن محمد بن الفيض عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كانت عصا موسى لآدم فصارت إلى شعيب ثم صارت إلى موسى بن عمران و انها لعندنا و ان عهدي بها آنفا و هي خضراء كهيئته حين انتزعت من شجرتها و انها لتنطق حين استنطقت، أعدت لقائمنا يصنع بها ما كان يصنع بها موسى (عليه السلام) و انها لتروع و تلقف ما يأفكون، و تصنع ما تؤمر به انها حيث أقبلت تلقف ما يأفكون يفتح لها شعبتان إحداهما في الأرض و الاخرى في السقف و بينهما أربعون ذراعا تلقف ما يأفكون بلسانها.

و

فيه عنه (عليه السلام) قال: خرج امير المؤمنين (عليه السلام) ذات ليلة بعد عتمة و هو يقول همهمة و ليلة مظلمة خرج عليكم الامام عليه قميص آدم و في يده خاتم سليمان و عصى موسى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 66

«وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى‏» او يعني بها ما يجهله الآن و قد تلمّحه من ملامح البيان عساه يذكره ربه لعصاه، و بينهما مآرب التوكؤ و الهش، فلنفسه:

«أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها» اعتمادا في مثلث القيام و المشي و الوقوف، و لغنمه:

«وَ أَهُشُّ بِها عَلى‏ غَنَمِي» خبطا لأوراق الأشجار الهشّ و هو الرخو اللين سريع الحث و الكسر لحد يكفيه هش العصا.

ثم و من‏ «مَآرِبُ أُخْرى‏» التي أجملها، الاستظلال بها ركزا لها و جاه الشمس و إلقاء لكسائه عليها، و دفعا لذئب و سواه من الضاريات حين تعرضه و غنمه اما هيه من مآرب اخرى معنيّة.

و المآرب جمع المأربة و هي الحاجة، و قد ذكر منها اثنتين بعد تعريفه بما بيمينه، ثلاثة غير مسئول عنها حيث السؤال ب «ما» ليس إلا عن الماهية، دون «كيف» و اضرابها التي هي للكيفية، و لكنه ما كان ليعرف من ماهيتها الا «هِيَ عَصايَ» ثم اللّه ابرز لها ماهية اخرى فإذا هي حية تسعى.

قالَ أَلْقِها يا مُوسى‏ 19 فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى‏ 20.

ترى و لماذا إلقاءها هنا لتكون حية تسعى؟ ان ذلك تدريب له بما تعدّ له من آيات ربه الكبرى، و ليكون على معرفة و أهبة بما سوف يفعله اللّه عند فرعون آية لموسى!.

و قد يعني على هامش ذلك المعني إبرازا لسيرة ما يتوكؤ عليه من غير اللّه انه حية تسعى، تخليصا. لموسى ان يتوكأ نفسيا على اي متكإ سوى اللّه، كما خلع عنه نعليه إذ هو بالواد المقدس طوى، حيث التجرد من كل التعلقات لزام الحضرة الربانية لتلقى الوحي، و هنا لك ينعكس خلع النعلين- لتخلّيه عما سوى اللّه- وحيا يوحى، ثم إلقاءه عصاه آية لوحيه أمام عدوه حية تسعى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 67

و كيف تنقلب العصا حية تسعى كما هنا، ام جانا مهتزا كما في النمل (31) و القصص (11): «رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ» ام ثعبانا مبينا كما في الشعراء (32) و الأعراف (107) و الأوليان حالة واحدة، و الأخيرة حين ذهب الى فرعون؟.

إنها خارقة الهية كآية تدل على وحي الرسالة و رسالة الوحي، و ركب العلم السائر مهما كان حائرا فيها و حق له ان يحتار، و لكنه ببلوغه ذروة من رقيّه يختار ما فيه يحتار، انه في امكانية الانقلاب يوافق الأصول العلمية الثابتة، و لكنه لا يسطع عليه الا اللّه دون سواه، حيث العناصر تتركب من جزئيات، و هي من ذرات، و هي من أجزائها من الكترونات و بروتونات ..

إذا فالأصول الفيزياوية و الكيماوية لكافة العناصر هي الذرات المنتهية الى أجزائها معروفة و سواها، و ما اختلاف العناصر و الجزئيات و الذرات إلا باختلاف التركبات مادة و مدة و عدّة و عدّة.

و قد اتيح للعلم لحد الآن تبديل عناصر الى اخرى! أ فلا يتاح للقدرة الربانية الخلاقة لها تبديلات أخرى لا يقدر العلم عليها، اختصاصا بساحة الربوبية كما هو في اصل الخلق و فروعه.

فالأجزاء التي تتشكل منها الحية هي هي التي شكلت منها العصا، ثم هنا لك. خارقتان اثنتان، أولاهما القفزة الزمنية لذلك الانقلاب سراعا، و قد يحتاج الى الآفات من السنين و توافقات لا يعلمها و يقدر عليها إلا اللّه، و ثانيتهما خلق روح الحية كما في سائر الأرواح على الإطلاق.

إذا فليست الخارقة الإلهية خرقا لضوابط العلية، و حرقا للعلل، بل هي تسريع في ترتيب العلل بقفزة زمنية أما هيه من جانب علة العلل، فهو الخالق للأسباب و المسببات، و له الأمر في شروطاتها و كافة لزاماتها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 68

و تدبيراتها و تقديراتها «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ».

ثم و ما خلق حية تسعى من عصا بأصعب منها المخلوقة بولادتها، ام في أصلها الاول حيث خلقت من تراب، و الأفعال الإلهية كلها من اختصاصات ساحة الربوبية ليس لأحد فيها نصيب حتى المرسلين، فإنهم ليسوا إلا أداة و مظاهر لفعل الرب، وحيا ام آية تثبته.

قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى‏ 21.

«وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى‏ أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» (28: 31) «وَ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى‏ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» (27: 11).

لقد خاف موسى من حية تسعى و هي من عصاه؟ عساها تلدغه علّه ظلم و عصى، فنهاه ربه «لا تخف» بعد ما «وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ» «لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» كمن معك، و «لا يَخافُ‏ .. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ‏» كما ظلم فرعون و خاف ثعبانه العظيم‏ «إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» «خُذْها وَ لا تَخَفْ» و هي حية تسعى «سنعيدها» بعد أخذك إياها «سِيرَتَهَا الْأُولى‏» و هي العصا.

و ترى كيف يجوز لموسى ان يخاف فعل اللّه الآية، و هو لدى اللّه، رسالة من عند اللّه، يخاف آية الرسالة الإلهية؟.

موسى هنا و في بداية الحال، المنقطعة النظير حتى الحال، لم يكن يعرف انه آية الهية لرسالته، فعله حسبها امتحانا من اللّه ببلية جلية عما قدم فأخره عن رسالته و كما قال حين قضى على القبطي‏ «إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 69

فَاغْفِرْ لِي» (28: 16) ام خافها خوفة ان تكون هي الحية التي أضل آدم و أغوى.

ثم و خوفه منها دليل ان قلب العصا إليها لم يكن من فعله فما هو إذا بسحر حيث السحر من فعل الساحر فلا يخافه، و هكذا تكون آيات الرسالة كلها انها من افعال اللّه تظهر على ايدي رسل اللّه لتدل بذلك على اختصاصهم باللّه فيصدّقون في وحي اللّه.

و هنا «سنعيدها» دليل امره بأخذها و هي حية تسعى، و لكنه تعالى طمأنه انه سيعيدها بعد أخذها سيرتها الاولى، و هي آية اخرى، فكما ان قلب العصا آية كذلك قلب الحية عصى آية، و فيها كرامة لموسى ان اظهرهما بيده، و لكي يعرف بذلك اختصاصه بكرامة ربه رسالة بآية بينة.

فانما عليه الإلقاء و على اللّه قلبها بذلك حية تسعى، ثم عليه أخذها و على اللّه ان يعيدها سيرتها الاولى، وقوعا للمعجزة في صورتها الاخرى كما كانت العصا في حالتها الاولى.

و لماذا «سِيرَتَهَا الْأُولى‏» دون صورتها، حيث الصورة الأولى لا تلازم السيرة الاولى، فقد يجوز ان تتصور الحية بصورة العصا، و لكن السيرة الاولى و هي الخشبية تلازم صورتها الاولى.

و ترى ما هو عامل النصب ل «سيرتها» انصبا بنزع الخافض؟: الى سيرتها الاولى، ام بفعل مقدر من نفس السيرة: تسير سيرتها الاولى، و الحذف دون مرجح و لا قرينة خلاف الفصاحة!.

«نعيدها» ادبيا تتطلب مفعولا ثانيا هو بطبيعة الحال‏ «سِيرَتَهَا الْأُولى‏» و هو المتعين معنويا حيث الإعادة متعلقة بحية تسعى، و المعاد هنا ليست الصورة الاولى بل مثلها ضمن السيرة الاولى الخشبية، و المادة نفس المادة، زيدت لها صورة حية تسعى بسيرتها، ثم أعيدت المادة نفسها الى ما كانت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 70

سيرة و صورة، و ذلك اعادة مثل الصورة الاولى الى المادة و ليست هي الا هيه.

و إعادتها صورتها الاولى نفسها مستحيلة في بعدين، إعادة المعدوم فانها ممتنعة، و تبديل المادة صورة بلا مادة، و اما إعادتها سيرتها فليست اعادة شي‏ء بل هي تعني قلب الصورة الثانية و سيرتها الى الصورة الاولى و سيرتها و المادة هي المادة.

فهنا في قلب العصا حية تسعى، قلب لصورة العصا و سيرتها، إعداما لهما الى اخرى، ثم في إعادتها سيرتها الاولى سلب اوّل هو سلب روحها، و سلب ثان هو سلب صورة الحية، و بينهما خلق لمثل الصورة الاولى، و مجموع هذه الثلاث عبر عنها بإعادتها.

هناك قال موسى عن عصاه‏ «هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها» .. عصى لمآربه كموسى، و هنا انقلبت الى عصى الرسالة حيث يتوكؤ عليها فيها، و يهش بها على غنمه- و هي أمته- هشا، و لانفجار اثنتي عشرة عينا من الحجر، و لنفس العدد طريقا يبسا في البحر، ثم له فيها مآرب اخرى قدّرها اللّه لهذه العصا، علّ منها مآرب القائم المهدي (صلوات اللّه عليه) من هذه العصا أفضل مما كان لموسى.

هذه آيتا العصا، و من ثم آية اليد البيضاء، و هي ألصق به من الآية الاولى:

وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى‏ جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى‏ 22.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 71

«اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ» (28: 32).

الجناح هو الكتف و الإبط تشبيها بجناح الطائر حيث يعنى منه هنا ان يجنح طائر الرسالة الموسوية الى محطة الدعوة القاسية الفرعونية، فأصبحت اليد و العصا برهانين من ربه الى فرعون و ملئه.

و «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» تعني ان بيضاءها سليمة دون برص أو مرض‏ «1»، فلذلك، ترجع الى ما كانت كما أعيدت العصا الى سيرتها الاولى.

و قد خرجت يد موسى- و علّها هي اليمنى- بيضاء مشرقة و قد كانت سمراء «2» و قد تكون اشارة الى اشراقة اليد الرسالية الموسوية في بلاغها، و كما خرجت مشرقة في بلوغها، فهنا موسى يسلك يده و يدخلها تحت إبطه، و قد صور له صورة الجناح لما فيها من رفرفة و طلاقة في ذلك الموقف المجنح الطليق من رتبة الأرض و ثقلة الجسم لتخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى.

لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى‏ 23.

«لنريك» قد تتعلق ب «ألقها» و «اضمم» كبداية و تقدمة: قلنا لك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 375 في كتاب طب الائمة باسناده الى جابر الجعفي عن الباقر (عليه السلام) في الآية قال: يعني من غير مرض‏

و

في البرهان 3: 35 عن ابن بابويه بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: من غير مرض.

(2)

البرهان 3: 35- عن تفسير القمي بسند عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كان موسى شديد السمرة فاخرج يده من جيبه فأضاءت له الدنيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 72

ألقها و اضمم لنريك ... و اخرى ب «اذهب» كغاية: اذهب لنريك من آياتنا الكبرى، كما قدمنا لك من آياتنا الصغرى مثالا و نموذجا للكبرى، و حقا إن الآيات التي أوتيها موسى هي من الآيات البصرية الكبرى، لها دلالالتها البالغة القصوى، آيات لفرعون و ملئه، و اخرى لهم و لقوم موسى.

و ترى إذا كانت العصا و اليد البيضاء «مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى‏» فكيف تكون آية القرآن هي الكبرى و هي في القمة العليا، لا نظير لها و لا تسامى؟.

«من» هنا تعني أنها البعض من الكبرى، مهما كانت الكبرى درجات، كما اولوا العزم من الرسل خمسة و هم درجات، ام تعني- فقط- الآيات البصرية و هي في الحق من الكبرى، و قد تسامي آيات بصرية لرسول الهدى، و اما الآية البصيرية فهي منحصرة في القرآن، منحسرة عما سواه من كتابات الوحي، فلا تعنيها هنا «الكبرى» لأنها الوحيدة لا تناظر او تسامى، فلا تدخل في نطاق الجمع من‏ «آياتِنَا الْكُبْرى‏» و هي الكبرى الوحيدة غير الوهيدة بأيّة نظيرة في آيات الرسالات، لأنها منقطعة النظير بين كل بشير و نذير! اذْهَبْ إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏ 24.

يذكر فرعون في اربعة و خمسين موضعا من الذكر الحكيم، مما يدل على مدى فرعنته اللعينة، ثم «الشيطان» في (68) مهما ذكر إبليس (11) مرة، و المجموع تزيد خمسة و عشرين على فرعون، فهو- إذا أخ له كبير بين الملائين الملاعين من اخوته الشياطين! و لما تبلغ الفرعنة الى ذلك الطغيان على اللّه ادعاء للربوبية: «أَنَا رَبُّكُمُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 73

الْأَعْلى‏»، و على عباد اللّه استخفافا فتعبدا له: «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ» عند ذلك التنمرد و التمرد التفرعن يؤمر موسى بالذهاب اليه، دون نظرة لذهاب فرعون اليه، إذ صده طغيانه عن اللّه فضلا عن رسول اللّه! فالى هنا كان الوحي بآياته لموسى نبوءة دون رسالة، و هنا بزغت الرسالة الضخمة الصعبة الملتوية، فلقد عاش جوا من طغيان الفرعنة ردحا من عمره، فلا يرى من نفسه بنفسه نجاحا تاما في هذه الرسالة الا بإمدادات ربانية، فليسأل ربه في هذه الحضرة المباركة ما يطمئنه في هذه المواجهة الخطيرة، و يكفل له قوامه في هذه الرسالة، فلذلك:

قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي 25 وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي 26 وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي 27 يَفْقَهُوا قَوْلِي‏ 28.

هنا يتطلب نصرة ذاتية متصلة بساحة هذه الرسالة في بنود ثلاثة، و من ثمّ نصرة منفصلة في ثلاثة أخرى هي أزر للأولى و اولى له ثم اولى ان يستعد بزاد أزيد و راحلة ارحل في هذه السفرة الشاقة الطويلة، لا لأمر إلا ل «كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً. وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً. إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً»! نرى سؤل موسى هنا في احدى عشر آية، لم يكن ليسألها قبل امر الرسالة، مما يدل على انها كلها سؤل الرسالة بمسؤولياتها الخطيرة.

و البند الاول من سؤله الاول‏ «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي» و ذلك شرح لتلك الرسالة بعد شرحه للوحي النبوءة فليس- إذا- سؤالا لسؤل حاصل، فانه سؤال جاهل، و سئول قاحل، فقد اختاره اللّه حين اوحى اليه، و كيف يختار ضائق الصدر عن تلقي الوحي؟ و كما شرح اللّه صدر محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ان كان دون سؤال: «أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 74

صَدْرَكَ» «لك» كرسول الى قوم لدوّامة خالدة، و كذلك لموسى الى فرعون اللدود و امة لدودة.

فانشراح الصدر لنبوءة الوحي أمر، و انشراحه للرسالة بعدها و النبوة أمر آخر، حيث يلتقي فيها جماهير الامة، و مكذبو الرسالة، فلكلّ مجال حال و لكل حال مجال، و لكل هدى شرح للصدر كما لكل ضلال ضيق: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ ..» (6: 125).

فانشراح الصدر في سبيل الرسالة يحوّل مشقة المسؤولية الكبرى الى متعة، و عناءها الى لذة، مهما كانت السبيل شاقة شائكة و ملتوية طويلة، و هنالك ينجح الرسول و تنجح الرسالة في هدفها الأسمى بمكانتها العليا.

اجل انه وجد لنفسه ضيقا في هذه الرسالة دون ما قبلها: «وَ إِذْ نادى‏ رَبُّكَ مُوسى‏ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا يَتَّقُونَ. قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ. وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى‏ هارُونَ. وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (26: 14) فشرح اللّه صدره عن ضيقه في نفسه و بوزيره هرون.

و في تقديم نداء الرب في الدعاء «رب» تعليم لكيفية الدعاء أنها تبدء باسم الربوبية، فان من قضيتها الاستجابة بعد الدعاء بشروطها، و التربية الرسالية تتطلب في سؤلها شرح الصدر عطاء من اللّه، كما تتطلب العصمة الإلهية.

و «لي» هنا دون «لنا» دليل الاختصاص لذلك الشرح، فللمؤمنين به، الصابرين معه، المثابرين على إيمانهم، إن لهم شرحا كأمة، و لموسى الرسول شرح كرسول و اين شرح من شرح؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 75

اجل «اشرح لي» فانا الذي امرتني بالذهاب الى فرعون، اشرح لي حتى لا يضيق إذا ازدحمت عليّ عقبات الدعوة و خلفيات الدعاية.

و البند الثاني: «وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي» و طبعا هو امر الرسالة المعسور، يتطلب الى ربه ان يجعله الميسور، و ليس ذلك سؤالا لتخفيف في رسالته، ام تطفيف عن وحيه و دعوته، كأنه يباين سؤل الرسالة، فانه مزيد منها في كل حلقاتها، وحيا و آية وسعة في دعوة و دعاية.

انما هو يسرها لموسى على عسرها، بمثلث من التأييد الرباني، مزيدا في تصبّره، و وزيرا من اهله، و تأييدا في نجاحه من عنده تيسرا للعسير، لا تقليلا للكثير، فانه حط من ساحته، و مسّ من كرامته، و كيف يدعو عاقل ربه هكذا فضلا عن نبي كموسى!.

ففي ذلك التيسير ضمان لنجاح الرسالة، مهما أوذي الرسول في سبيلها، حيث الهدف الأسمى منها نجاحها، لا أريحية الرسول في حياته الدنيوية دونما أية صعوبة، فان طبيعة كل رسالة هي الدوائر المتربصة بها، المحتفة عليها، كلما كانت الرسالة أوسع، و المرسل إليهم اشرس، فدوائر السوء عليها اكرس و اكرث.

و البند الثالث: «وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي».

ففقه القول الرسالي ضرورة في متن الرسالة، فلتحلل كافة العقد عن لسان الرسول حتى يفقهوا ما يقول.

أ ترى «عقدة» هنا كانت حبسة في لسانه لخلل عضوية «1»؟ و تلك حبسة في أوصل وسائل الرسالة، و نقص في الرسول، فان السنة القولية هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في نور الثقلين 3: 377 عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 76

من مثلث السنة المعصومة الرسالية، بل هي أولاها دلالة مهما كانت العملية أولاها تأثيرا، فقصور اللسان ام تقصيره في بلاغ الرسالة خلاف كونه حجة بالغة الهية، «فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ»! ثم‏ «وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» (28: 34) انها تكذب نقص العضو، و تحبس عن لسانه حبسته العضلانية، فان معقود اللسان ليس فصيحا حتى يكون هارون افصح منه.

ثم الفصاحة ليست سبب التصديق، و لا خلافها سبب التكذيب، فرب فصيح يكذّب، و رب غير فصيح ام اخرس يصدق!.

فتلك إذا عقدة عن الإفصاح تقية أمّا هيه، فحل عقدة هنا هو إزالة التقية عن لسانه و كفاية سطوة فرعون و غواته، حتى يؤدي عن اللّه آمنا، و يقول متمكنا لا خائفا و لا وجلا، فلا يكون معقود اللسان بالتقية، و معكوم الفم بالخوف و المراقبة.

فتراه يقول‏ «وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى‏ هارُونَ.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: و كان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل كلما يلدون و يربى موسى و يكرمه و لا يعلم ان هلاكه على يده فلما درج موسى كان يوما عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد لله رب العالمين- فأنكر فرعون ذلك عليه و قال: ما هذا الذي تقول؟ فوثب موسى على لحيته و كان طويل اللحية فهلبها اي قلعها فآلمه ألما شديدا فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته: هذا غلام حدث لا يدري ما يقول و قد لطمته بلطمتك إياه فقال فرعون: بل يدري فقالت له: ضع بين يديه تمرا و جمرا فان ميز بينهما فهو الذي تقول فوضع بين يديه تمرا و جمرا و قال له: كل فمد يده الى التمر فجاء جبرئيل فصرفها الى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه و صاح و بكى فقالت آسية لفرعون: ا لم اقل لك انه لم يعقل فعفى عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 77

وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (26: 14) فكما ان ضيق صدره كان بالنسبة لهذه الرسالة، كذلك عدم انطلاق لسانه لأنه ربي عند فرعون وليدا، و قتل من غواته نفسا، و طبيعة الحال هنا تقتضي بتثاقل اللسان مهما كان فصيحا، و بتكذيبه و هو اصدق الصادقين: «قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ، قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ. فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ» (26: 22).

فقد يعقد لسان المتكلم الفصيح لعقد نفسانية ام خارجية، فلا يسطع افصاحا لمرامه، او مضيا في مرامه، او يطلق لسان غير الفصيح، و حتى المعقود اللسان او الأخرس، لطلاقة نفسية و تجاوب خارجي، و موسى على سابقته، بمجابهة فرعون أن قتل منه نفسا، رغم تربيته الولادية عنده، ما كاد ليفصح عما يروم، صدا نفسيا عن إفصاحه، و آخر خارجيا و جاه فرعون و غواته، فلا بد له إذا من وزير تخفيفا عن وزره، و شدا لأزره، و ردءا لكلامه.

هذا و ان كنا قد نصدق حسب الرواية هذه الحبسة العضوية الى حين الرسالة، حفاظا على حياة موسى، و لكنها حلّت منذ الرسالة بدعائه المستجاب: «قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى‏» و قد تلمح «عقدة» منكرة دون «العقدة» انها تعني العقدتين و قد حلهما بازالة الرثّة العضوية و الضيقة النفسانية، ثم بأخيه هارون ردأ يصدقه.

و من هنا يبدأ بتطلب سؤله الثاني في بنود ثلاث ليكتمل الأول في إنجاح رسالته.

وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي 29 هارُونَ أَخِي 30 اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي 31

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 78

وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي 32 كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً 33 وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً 34 إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً 35.

و هنا البند الأول‏ «وَزِيراً مِنْ أَهْلِي» و هو حامل وزر الرسالة الموسوية وحيا و دعوة و دعاية، فكما اللّه وضع عن محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) وزره بوزيره علي (عليه السلام) أخيه، كذلك يضع عن موسى وزره بهارون أخيه، و كما

تواتر عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي»

فعلي يحمل وزر الرسالة المحمدية دون وحي و رسالة، و هارون يحمل وزر الرسالة الموسوية بوحي و رسالة، و الوزارة هنا كالوزارة هناك إلا النبوة.

و الوزير من الوزر: الثقل- حيث الوزير يحمل ثقل الملك مع الملك، ام من الوزر: الجبل الذي يلتجئ اليه، حيث الملك يلتجئ اليه في مهامه، و الاول اسلم لساحة النبوة حيث يكون فيه الوزير الحامل الثاني لحمل الملك و عبأه، و هو الشخصية الثانية لمسؤولية القيادة العليا، زمنيا او روحيا ام كليهما، كما هما حق للقادة الروحيين أنبياء و أئمة و علماء ربانيين.

ثم البند الثاني و الثالث هما كتفسير و إيضاح لحدود الوزارة، فشد الأزر هو تحكيم القوة الرسالية و العون فيها، و الشركة في الأمر هي في أمر بلاغ الرسالة بالوحي، و ليس الوحي فقط إذ لم يكن عبئا عليه شخصيا، و إنما هي في حمل الرسالة بكل مسئولياتها، و اما الدعاية لها و الدعوة إليها بعد بلاغها الرسالي، فهو على عواتق المؤمنين بها ككل، دون اختصاص بوزير من اهله، فإنهم كلهم وزراءه في ذلك الأمر قضية الإيمان به، فالوزارة- إذا- منصب خاص يتلو منصب القيادة العليا بانتصاب إلهي ليس إلا.

فلتكن الشركة المعنية هي في شؤون الرسالة و قيادتها الشاملة روحيا و زمنيا، فهو النائب الاول، و الوزير الوحيد في كل ما قل وجل من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 79

الشؤون الاصيلة الرسالية كما هي على عاتق موسى، إزرا و ردءا و تصديقا لتلك الرسالة السامية «وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» (28: 34).

و قضية الحال هنا ان لو دام هارون بعد موسى لكان خليفته في رسالته، فان الوزير في حياة الأمير هو الشخصية الاولى بين الشعب في كافة شروطات القيادة، فهو الأمير بعد وفاته دون سواه.

هنا «وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي» تقتضي الشركة في كافة شؤون الرسالة، و حيا و بلاغا و حجة أما هيه، و لذلك نرى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يجعل عليا منه كما هارون من موسى ثم يستثنى النبوة.

و لا فحسب ان عليا (عليه السلام) وزير الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في متواتر السنة تنظيرا بآية الوزارة، بل و هو اخوة و ولده بل و نفسه المقدسة لآية المباهلة و متواتر السنة، فقد كملت الشروط وافية فيه لعرش الخلافة الاسلامية، ولادة و اخوة و وزارة و نفسية نفيسة هي انفس القواعد الأربع لعرش الخلافة.

و لنرجع هنا الى مادة الدعاء لموسى في هذه الوزارة السامية، لكي نتعرف الى الوزارة العلوية العالية، و على ضوء متواتر الرواية عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على غرار الآية و قرارها.

«وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً ..» دليل ان جعل الوزارة الرسالية مخصوص باللّه، و ليس للرسول أن ينتصب لنفسه وزيرا في أمره فضلا، عن أمته فكما الرسالة هي من اللّه، كذلك وزارتها من اللّه، و الا فلما ذا يسأل اللّه ان يجعل له وزيرا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 80

و «من اهلي» و طبعا هي الأهلية الرسالية دون النّسبية فحسب، و لا سواها من أهليات لا تؤهل لوزارة الرسالة.

«هارُونَ أَخِي» و يا للأهلية من جمع جميل ان تعم جانبي الرسالة و الرسول، فهارون اهل لذلك الرسول رساليا، و اهل له نسبيا، فهو اخوه في كلتا المرحلتين.

«اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي» و الأزر من إزار الرجل و هو الموضع الذي يشده إذا استعد لصعاب الأمور، و هارون يشد أزر موسى في بلاغ الرسالة رساليا، لا فقط ايمانيا، فانه يعم كافة المؤمنين بهذه الرسالة، و لذلك يلحّق اشراكه في الأمر بشد الأزر.

«وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي» شركة رسالية في كافة بنودها دونما إبقاء لواحدة منها، إلا ان موسى هو القائد الرسالي و هارون وزيره.

فالأزر هنا هو ظهر الرسالة الموسوية، لا يشد إلا بمظاهر رسالي من نفس النمط و هو عضد الرسالة كما قال‏ «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا» (28: 35).

و قد تنطبق هذه المواصفات بصورة اجلى و سيرة اسمى و أعلى في وزارة علي (عليه السلام) للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فسورة الإنشراح تشرح آية الوزارة، و متواتر الرواية عن طريق الفريقين يؤكد ذلك الشرح.

هنا تعالى معي الى سرد لألفاظ ما أخرجه الحفاظ و الرواة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لتعرف ابعاد هذه الوزارة العلوية العلوية.

لقد روى حديث المنزلة أول ما روى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن اللّه تعالى إذ «هبط جبرئيل على النبي (صلى اللّه عليه و آله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 81

و سلم) فقال يا محمد ان ربك يقرئك السلام و يقول لك: علي منك بمنزلة هارون من موسى لكن لا نبي بعدك» «1».

و من ثم يكرره الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في عدة مواطن و

قد رواه عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) جماعة من الصحابة منهم الإمام علي (عليه السلام) نفسه‏ ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أراد ان يغزو غزاة فدعى جعفرا فأمره ان يتخلف على المدينة فقال لا أتخلف بعدك يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال فدعاني رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فعزم علي ان أتخلف قبل ان أتكلم قال فبكيت فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ما يبكيك يا علي؟ قلت يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يبكيني خصال غير واحدة، تقول قريش غدا ما أسرع ما تخلف عن ابن عمه و خذله، و تبكيني خصلة أخرى كنت أريد ان أتعرض للجهاد في سبيل اللّه لأن اللّه تعالى يقول: «وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» فكنت أريد ان أتعرض لفضل اللّه، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اما قولك يقول قريش ما اسرع ما تخلف عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و خذله فان لك بي أسوة، قالوا لي ساحر و كاهن و كذاب، و اما قولك: أتعرض الأجر من اللّه اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أخرجه جماعة عن اسماء بنت عميس عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) منهم محب الدين الطبري في الرياض النضرة (2: 144) و في ذخائر العقبى ص 64 و القندوزي في ينابيع المودة ص 204.

(2) رواه جماعة من القوم منهم النيسابوري في المستدرك 2: 337 و الحمويني في فرائد السمطين و الذهبي في تلخيص المستدرك و الهيثمي في مجمع الزوائد 9: 110 و المتقي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 82

و منهم‏

عمر بن الخطاب انه رأى رجلا يسب عليا فقال اني أظنك منافقا سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: انما علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلا انه لا نبي بعدي» «1».

و منهم‏

معاوية بن أبي سفيان حيث سأله رجل عن مسألة فقال: سل عنها علي بن أبي طالب (عليه السلام) فانه اعلم، قال: يا امير المؤمنين قولك فيها أحب الي من قول علي فقال: بئس ما قلت و لؤم ما جئت به لقد كرهت رجلا كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يغره العلم غرا و لقد قال له رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي و لقد كان عمر بن الخطاب يسأله فيأخذ عنه و لقد شهدت عمر إذا أشكل عليه شي‏ء قال: ها هنا علي، قم لا اقام اللّه رجليك و محى اسمه من الديوان» «2».

و لقد روى حديث المنزلة عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بألفاظ عدة في مواطن متعددة ثلة من الأصحاب‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الهندي في منتخب كنز العمال 5: 55 و البدخشي في مفتاح النجا ص 45 و الحلبي في انسان العيون (3: 132) و البغدادي في تاريخه 7: 194.

(1). أخرجه عنه جماعة منهم البغدادي في تاريخ بغداد 7: 452 و محب الدين الطبري في الرياض النضرة 2: 162 و قلندر الهندي الحنفي في الروض الأزهر ص 98.

(2) أخرجه عنه جماعة منهم ابن المغازلي في كتاب مناقب امير المؤمنين (عليه السلام) و الطبري في ذخائر العقبى ص 79 عن الامام احمد في المناقب و في الرياض النضرة 2: 195 و الحمويني في فرائد السمطين و الواسطي في المناقب ص 118.

(3) مثل سعد بن أبي وقاص 3- و جابر بن عبد اللّه الأنصاري روي عن عشرة كتب 4- و أبي سعيد عن 15، 5- و حبشي ابن جنادة السلولي عن 4، 6- و سعد بن مالك عن 5، 7- و اسماء بنت عميس عن 8، 8- و ابن عمران عن 10، 9- و ابن أبي ليلى عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 83

و هؤلاء الأعاظم كلهم سمعوا حديث المنزلة عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أخرجه عن كل منهم جماعة من الأساطين و هم حسب ترتيب العدد يذكر بعضهم في الهامش.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

كتب عدة، 10- و مالك بن الحريث عن كتب عدة، 11- و سفيان الثوري عن 3، 12- و ابن عباس عن ستة، 13- و ام سلمة عن عدة كتب، 14- و عبد اللّه بن مسعود، 15- و انس بن مالك، 16- و زيد بن أرقم، 17- و أبي أيوب، 18- و أبي بردة، 19- و جابر بن سمرة، 20- و غيرهم من الصحابة و التابعين من الحفاظ و المحدثين كلهم عن كتب معدودة هنا و غير معدودة و إليكم اسماء قسم من الكتب:

3- فسعد بن أبي وقاص يرويه عنه ابراهيم بن سعد رويناه عن اربعة و عشرين من كتب أعاظم محدثي العامة، و عائشة بنت سعد عن تسعة كتب و عامر بن سعد عن خمسة عشر و مصعب بن سعد عن احد و ثلاثين و سعيد بن المسيب عن تسعة عشر، و حديث آخر عنه عن اربعة، و عبد الدين سعد عن ثلاثة و عبد اللّه ابن بديل عن عدة كتب.

4- و جابر بن عبد اللّه أخرجه عنه احمد بن حنبل في المسند 3: 338 و الترمذي في صحيحه 13: 175 و الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد 3: 488 و ابن الأثير في جامع الأصول 1: 469 و الحمويني في فرائد السمطين و القرشي في البداية و النهاية 7: 341 و العسقلاني في لسان الميزان 5: 378 و السيوطي في ذيل اللئالي ص 59 و الميبدي في شرح الديوان 173 و الواسطي في المناقب 118.

5- و ابو سعيد أخرجه عنه و ابن سعد في الطبقات الكبرى 3: 24 و القشري في تاريخ الرقة 133 و ابن المغازلي في المناقب و اليتمي في مجمع الزوائد 9: 109 و الهروي القاري في شرح العين 356 و القندوزي في ينابيع المودة 50 و النبهاني في الفتح الكبير 3: 343 و اليتمي في مجمع الزوائد 9: 109 و النعساني في تعليقته على تاريخ الرقة 133.

6- و حبشي بن خباءة أخرجه عنه ابو نعيم في اخبار اصبهان 1: 281 و النعساني 133 و الطبراني في المعجم الصغير 190 و الهيثمي في مجمع الزوائد 9: 109.

7- و سعد بن مالك أخرجه عنه ابن سعد في الطبقات 3: 24 و احمد بن حنبل في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 84

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مسنده 1: 173 و 3: 57 و 66 و 74 و في المناقب 3: 124 و النسائي في المخصص نص 17.

8- و اسماء بنت عميس أخرجه عنها الامام احمد في المستدرك 6: 438 و الفضائل 3: 107 و النسائي في الخصائص 17 و البغدادي في تاريخه 10: 43 و 12: 323 و ابن عبد البر في الاستيعاب 3: 459 و الحمويني في الفرائد و الذهبي في تاريخ الإسلام 4: 941 و الهيثمي في مجمع الزوائد.

9- و ابن عمران أخرجه عنه الهيثمي في مجمع الزوائد 9: 110.

10- و ابن أبي ليلى أخرجه عنه المتقي الهندي في منتخب كنز العمال 5: 30.

11- و مالك بن الحريث أخرجه عنه البخاري في التاريخ الكبير 4: 301.

12- و سفيان الثوري أخرجه عنه الخطيب في 4: 71 من تاريخه و في موضع أوهام الجمع و التفريق و الطبري في الرياض النضرة 3: 163.

13- و ابن عباس أخرجه عنه ابو نعيم في تاريخ اصفهان 3: 328 و ابن المغازلي في المناقب و ابن عساكر في التاريخ الكبير 1: 107 و الهيثمي في المجمع 9: 109 و البدخشي في مفتاح النجاة 44 و القندوزي في ينابيع المودة 234.

14- و ام سلمة أخرجه عنها الدمشقي في البداية و النهاية 7: 241 و الهيثمي في المجمع.

15- و ابن مسعود أخرجه عنه ابن المغازلي في مناقبه.

16- و انس بن مالك أخرجه عنه ابن المغازلي و المتقي الهندي في منتخب كنز العمال 5: 21.

17- و زيد بن أرقم أخرجه عنه الشفشاوي في سعد الشموس و الأقمار 309 و الهيثمي في مجمع الزوائد.

18- و ابو أيوب أخرجه عنه الهيثمي في المجمع 9: 111.

19- و ابو بردة أخرجه عنه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص 23.

20- و جابر بن سمرة أخرجه عنه القندوزي في الينابيع 50 و الهيثمي في المجمع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 85

و كل هذه الاخراجات متفقة في‏

«أنت مني بمنزلة هارون من موسى»

ام بزيادة «اما ترضى» ثم‏

«الا انه لا نبي بعدي» «1»

«لا نبوة بعدي» «2»

«لا نبوة بعد نبوتي» «3»

«الا النبوة» «4»

«لا نبي معي» «5».

«غير انه لا نبي» «6»

«و لو كان لكنته» «7»

«إلا انك لست بنبي» «8»

«الا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذا هو الأكثر المطلق و يعني «من بعدي» من بعد نبوتي لا بعد وفاتي، كما يفسره سائر النصوص.

(2) أخرجه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب 148 عن عدة طرق عن سعد بن عامر عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و احمد بن حنبل في المسند 1: 185 و جماعة آخرون من الحفاظ.

(3) أخرجه الحافظ ابو نعيم في حلية الأولياء 7: 195 و النسائي في الخصائص 15.

(4) أخرجه الشيباني المروزي في المسند 1: 170 و في الفضائل، و النسائي في الخصائص 14 و 16 و الحمويني في الفرائد و الدمشقي في البداية و النهاية 7: 340 و المتقي الهندي في كنز العمال 6: 153 و عبد الرحمان الرازي في علل الحديث 2: 390 و الخطيب في تاريخه 8: 52 و ابن المغازلي في المناقب كلهم عن عائشة بنت سعد عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و البخاري في التاريخ الكبير 1: 115 عن سعد عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

(5) أخرجه ابن المغازلي الواسطي في المناقب و القندوزي في ينابيع المودة 86.

(6)

أخرجه ابن عساكر في تاريخه 6: 107 دخل سعد على معاوية فقال له بعد مكالمة بينهما: انك لتأمرني ان أقاتل رجلا سمعت فيه من رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي فقال له معاوية من سمع هذا معك قال: فلان و فلان و ام سلمة.

(7)

الخطيب البغدادي في تاريخه 3: 288 بسند متصل عن جابر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام) اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعد و لو كان لكنته.

(8) أخرجه ابن المغازلي في مناقبه و البدخشي في مفتاح النجا 44 مخطوط و ابن سعد في طبقات الكبرى 3: 24 عن البراء بن عازب و زيد ابن أرقم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 86

النبوة و أنت خليفتي» «1»

«انه لا ينبغي ان اذهب الا و أنت خليفتي» «2»

صارخة صارخة ان لا استثناء عن تلك المنزلة الا منزلة النبوة، حيث ختمت بمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بهذه التصريحات العشر.

و

قد يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله‏ «يا علي أنت مني بمنزلة هبة الله من آدم، و بمنزلة سام من نوح، و بمنزلة إسحاق من ابراهيم و بمنزلة هارون من موسى، و بمنزلة شمعون من عيسى الا انه لا نبي بعدي» «3».

و حديث المنزلة على ضوء آيتها ليس يثبت لعلي (عليه السلام) فقط الخلافة بعد الرسول، بل الوزارة زمن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و الوزير في حياة الرسول، أحرى ان يكون الأمير بعد وفاته.

و هذه قلة من ثلة من أحاديث المنزلة و التفصيل الى المفصلات.

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى‏ 36.

و السؤل هو الحاجة و هي هنا حاجة عضد الرسالة و أزرها، و قد أوتيت لموسى، و كذلك سأل الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لأخيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و احمد بن حنبل في مسنده 1: 230 و الفضائل 2: 240 و النسائي في الخصائص 8 و النيسابوري في المستدرك 3: 132.

(1). أخرجه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص 23 عن أبي بردة قال خرج علي ...

(2) أخرجه ابن كثير في البداية و النهاية 7: 338.

(3) البحار الطبعة الحديثة 37: 204 بالإسناد عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و الإخراجات السابقة نقلناها عن تعليقات احقاق الحق للعلم الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج 5 ص 132- 334.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 87

علي (ع) ما سأله موسى لأخيه هارون فأوتي سؤله‏ «1» و اين سؤل من سؤل و سؤال من سؤال، فقد سجل سؤال موسى بسؤله في الذكر الحكيم في آيات بضع، و سجل سئول الرسول دون سؤال في سورة الانشراح! هذه هي المنة الثالثة على موسى، و قبلها اصل الوحي و الرسالة، و قبلهما: و لقد مننا ...

[سورة طه (20): الآيات 37 الى 48]

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى‏ (37) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّكَ ما يُوحى‏ (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى‏ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏ (40) وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)

اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبا إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏ (43) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏ (44) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى‏ (45) قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى‏ (46)

فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلامُ عَلى‏ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى‏ (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى‏ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (48)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 295- اخرج ابن مردوية و الخطيب و ابن عساكر عن اسماء بنت عميس قالت‏ رأيت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بإزاء ثبير و هو يقول أشرق ثبير أشرق ثبير اللهم اني اسألك بما سألك اخي موسى ان تشرح لي صدري و ان تيسر لي امري و ان تحل عقدة من لساني يفقهوا قولي و اجعل لي وزيرا من اهلي هارون اخي اشدد به أزري و اشركه في امري كي نسبحك كثيرا و نذكرك كثيرا

و

فيه اخرج السلفي في الطيوريات بسند عن أبي جعفر محمد بن علي قال: لما نزلت‏ «وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي» كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على جبل ثم دعا ربه و قال: اللهم اشدد أزري باخي علي فأجابه الى ذلك‏

و

روى ابو نعيم الحافظ باسناده عن رجاله عن ابن عباس قال‏ أخذ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بيد علي بن أبي طالب (عليه السلام) و بيدي و نحن بمكة و صلى اربع ركعات ثم رفع يديه الى السماء و قال: اللهم ان نبيك موسى بن عمران سألك فقال: رب اشرح لي صدري و يسر لي امري .. و انا محمد نبيك اسألك رب اشرح لي صدري و يسر لي امري و احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي و اجعل لي وزيرا من اهلي عليا اخي اشدد به أزري و اشركه في أمري قال ابن عباس فسمعت مناديا ينادي: قد أوتيت سؤلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 89

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى‏ 37 و هي المنة الاولى و ان كانت هي الاخرى بالنسبة لما هنا:

إِذْ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّكَ ما يُوحى‏ 38 مهما بان البون بين وحيين، فثانيهما «ما يُوحى‏» الى رسول الهدى وحي رسالي، و الاول وحي الهامي الى ام موسى و قد شمل ذلك الوحي نبأ عن وحي التكوين الى اليمّ و ان يأخذه عدو للّه و عدو لموسى.

و ذلك المن الاول دون سؤال يؤكد تحقيق منّه بسؤال، و لا سيما بعد الرسالة، و علّ‏ «قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ» تشمل كل سؤله منذ ولادته الى تربيته و الى رسالته و متطلباتها، فان ذلك قضية المضي المؤكد ب «قد» في‏ «قَدْ أُوتِيتَ» فمنّه تعالى مرة اخرى و هي الاولى داخل في سؤله فانه ليس سؤالا حتى يختص بالحال، بل هو حاجة تقتضيه الحال على اية حال، سألها بلسان القال او الحال ام لم يسألها في مقتضى الحال.

و لماذا «مَرَّةً أُخْرى‏» و المذكور في ما يوحى منن ثمان؟ علّه لأنه نظرا الى حياته الرسالية و قبلها، فالمنن عليه في كل منهما مرة مهما كانت شتى، فقبل رسالته منة هي ثمان ام تزيد، و قبلها اخرى هي ستة ام تزيد فهما منتان كمجموعتين، و هما منن- لأقل تقدير- هي اربعة عشر كعديدها.

فالمن الاول من الأخرى: «إِذْ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّكَ ما يُوحى‏» فان مادة الوحي كانت لصالح الحفاظ على حياة موسى:

أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي‏ 39.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 90

أ ترى هذه المادة الهامة الخطيرة من وحي الإلهام كانت رؤيا في المنام، كان تأويلها قذفه في التابوت ثم في اليم؟ و ليست هنا لك قاطعية في تأويلات الروئيّ إلا ان يكون المؤوّل من الأنبياء، و النص هنا لا يشير الى رؤيا و لا تأويله و لا نبي في البين!.

انها- بطبيعة الحال- و في هذه الهامة الخطيرة، إلهام الى قلبها في حدّ من الظهور و البهور لا يقبل اي تردد، و كأنها تحس الواقع المستقبل من نجاة موسى، لحدّ ألقته في التابوت إلى اليم.

كيف لا و «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ» (41: 31).

أو ليست ام موسى من هؤلاء- و هي تحمل امانة الرسالة الإلهية- حتى تستحق نزول الملائكة عليها بذلك الوحي، حفاظا على رسالة الوحي؟! و كما تمثل لأم عيسى روح الأمين‏ «فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا» لكي يلقي إليها غلاما سويا.

فهنا أم موسى يوحى إليها ما فيه الحفاظ على وليدها، و هناك ام عيسى يوحى إليها ليلقي إليها بشرا سويا، و هما من أفضل الوحي فيما سوى النبوءة و الرسالة، و من أدناه الوحي الى النحل ثم للأرض.

فما كل ما يسمى وحيا، يحمل رسالة إلهية، و هو في الأصل اشارة في رمز تكوينا او تشريعا، خيرا او شرا، كما «إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى‏ أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ» (6: 121)!.

و كما ان وحي الشيطان دركات، كذلك وحي الرحمن درجات، أدناها للأرض، و أعلاها الى المرسلين و بينهما متوسطات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 91

فلقد قذف في قلب ام موسى لأول ما يوحي‏ «أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ» ...

أم حنون تلد ولدا كموسى، فبدل ان تحتضنه تقذفه في التابوت، و هي ما يلقى في الماء! صحيح انها تاكدته وحيا من اللّه، و لكنها كيف تجرء على الإقدام بما تؤمر، و العاطفة المرهفة و الهيمان البالغ تمنعانها عن ذلك، مهما الوحي يأمرها بذلك؟!.

هنا قذف في التابوت، ثم قذف في اليم، قد يلمحان بسرعة في العمل دون أية رعاية، تعجيلا دون اي تأجيل، مما يوحش و لا سيما الأم الحنونة، لولد تعرفه من هو؟!.

و لكنما النص التالي يطمئنها ان ليس في إلقاءه إلغاءه: «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ» أمرا تكوينيا لليم ان تلقيه من خضمها الى الساحل، ثم امر آخر كما الاول لاقسى قلب و اعصى عبد: «يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ» و هو فرعون الطاغية، عدو للّه إذ ينكر ربوبيته بل يدعي هو الربوبية بديله، و عدو لموسى إذ يعلم ان بيده قضاء فرعنته و ملكه، و لذلك أخذ يقتل الذكر ان من بني إسرائيل‏ «1» و لكنه مأمور تكوينيا باختيار ان يأخذ عدوه موسى و يحتضنه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 13: 25 عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: لما حملت به امه لم يظهر حملها الا عند وضعها له و كان فرعون قد وكل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط تحفظهن و ذلك لما كان بلغه عن بني إسرائيل انهم يقولون انه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون و أصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهن حتى لا يكون ما يريدون و فرق بين الرجال و النساء و حبس الرجال في المحابس فلما وضعت ام موسى بموسى نظرت اليه و حزنت عليه و اغتمت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 92

ليحتزن به على جهله:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و بكت و قالت: تذبح الساعة، فعطف اللّه الموكلة بها عليه فقالت لام موسى مالك قد اصفر لونك فقالت: أخاف ان يذبح ولدي فقالت لا تخافي و كان موسى لا يراه احد الا أحبه و هو قول اللّه: و ألقيت عليك محبة مني» فأحبته القبطية الموكلة به و انزل اللّه على ام موسى التابوت و نوديت: ضعه في التابوت فاقذ فيه في اليم و هو البحر و لا تخافي و لا تحزني انا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين فوضعته في التابوت و أطبقت عليه و ألقته في النيل و كان لفرعون قصر على شط النيل متنزه فنظر من قصره و معه آسية امرأته الى سواد في النيل ترفعه الأمواج و تضربه الرياح حتى جاءت به على باب قصر فرعون فامر فرعون بأخذه فأخذ التابوت و رفع اليه فلما فتحه وجد فيه صبيا فقال: هذا إسرائيلي فالقى اللّه في قلب فرعون لموسى محبة شديدة و كذلك في قلب آسية و أراد ان يقتله فقالت آسية: لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا و هم لا يشعرون انه موسى و لم يكن لفرعون ولد فقال التمسوا له ظئرا تربيه فجاءوا بعدة نساء قد قتل أولادهن فلم يشرب لبن احد من النساء و هو قول اللّه: و حرمنا عليه المراضع من قبل ....

و

في بحار الأنوار 13: 46 فض ضه روى مجاهد عن ابن عمرو و أبي سعيد الخدري عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في خبر طويل قال: ان موسى بن عمران (عليه السلام) كان فرعون في طلبه يبقر بطون النساء الحوامل و يذبح الأطفال ليقتل موسى (عليه السلام) فلما ولدته امه أمرها ان تأخذه من تحتها و تقذفه في التابوت و تلقي التابوت في اليم فقالت و هي ذعرة من كلامه يا بني اني أخاف عليك الغرق فقال لها: لا تحزني ان اللّه يردني إليك فبقيت حيرانة حتى كلمها موسى و قال لها: يا ام اقذفيني في التابوت و القى التابوت في اليم قال: ففعلت ما أمرت به فبقي في اليم الى ان قذفه اللّه في الساحل ورده الى امه برمته لا يطعم طعاما و لا يشرب شرابا معصوما مدة.

و

فيه عن الكافي عن سدير الصيرفي عن الصادق (عليه السلام) قال: ان فرعون لما وقف على ان زوال ملكه على يد موسى امر بإحضار الكهنة فدلوه على نسبه و انه من بني إسرائيل فلم يزل يأمر أصحابه بشق بطون الحوامل من بني إسرائيل حتى قتل في طلبه نيفا و عشرين الف مولود و تعذر عليه الوصول الى قتل موسى لحفظ اللّه تبارك و تعالى إياه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 93

«وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّ مُوسى‏ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً ..» (28: 8).

هنا و هناك يطلعه ربه عرضا عليه من منّه قبل رسالته، ليزيد علما و طمأنينة انه لم يذهب و لن .. غفلا عن عين اللّه و رعايته حين ضعفه على اية حال، فكيف يذهب غفلا في تلك الحال و قد بلغ أشده و أرسل بالوحي و آيات الرسالة القاهرة الباهرة؟.

أ ترى لماذا الإلقاء في التابوت و هي لحمل الجنائز مما يخيف بدل ان يطمئن؟.

«التابوت» معرفا دليل انه صندوق خاص، و عل أصله «تابوه» من «تباه» العبرية (؟؟؟) و هي بين: الصندوق- فلك نوح و تابوت العهد، و الهاء في آخر (تباه) إذا أضيفت الى كلمة اخرى تقلب تاء فيقال: تبت مكتابيت صندوق الرسائل.

إذا فالتابوت لغويا صندوق خاص فيه صيانة تامة لما فيه، و شاهدا له قرآنيا «إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى‏ وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (2: 248).

فكما في هذا التابوت سكينة من ربكم و بقية مما ترك آل موسى و آل هرون تحمله الملائكة، كذلك التابوت الذي قذف فيه موسى و قذف في اليم تحمله رعاية اللّه في خضمّ اليم‏ «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ»! و علّه هو التابوت الاوّل نفسه و قد وضع موسى فيه المن و عصا هارون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 94

و لوحي العهد، كما في الرسالة الى العبرانيين الاصحاح التاسع: و امر اللاويين ان يضعوا فيه كتاب التوراة بجانب عهد الرب في التابوت كما في تثنية التوراة 31: 25.

و على اية حال هو فاعول يدل على مبالغة في معناه، يوضع فيه الثمين الثمين حفاظا عليه- بالغا- عن الضياع، و قد يسمى تابوت الميت باسمه، لأنه يصونه عن الضياع حيث كان يوضع في صندوق و يدفن معه بماله من حاجيات ضرورية حيوية عله يحتاجها في قبره!.

و لماذا «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ» دون «الى الساحل»؟ علّ الساحل هنا مأمور كما اليم، فاليم يلقيه بواسطة الساحل الذي يلتقيه، فقد يلقي اليم و لا يتلقى الساحل ما ألقاه، أم يتلقى الساحل و لكن اليم لا يلقي، فهنا هما مأموران تكوينيا دون اختيار إلقاء و تلقيا، و كما فرعون مأمور قذفا في قلبه تكوين الإختيار! إذا فهنا أوامر اربعة، أولاها لام موسى «و ثانيها لليم: «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ» و ثالثها للساحل: «بالساحل» و رابعها فرعون: «يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ».

و ترى «اليم» هنا هو البحر؟ او النيل النهر؟ فلما ذا لم يأت كلّ باسمه الخاص!.

انه البحر و عظيم النهر، فلان النيل كان في عظمه كالبحر الملتطم، لذلك جاء بصيغة اليم.

و الضمائر الاربعة كلها راجعة الى موسى «اقذفيه. فاقذفيه ..

فليلقه .. يأخذه» فانه الأفصح الأصح من اختلاف المراجع، في ادب اللفظ و ادب المعنى، حيث المحور الأصيل هنا هو موسى، و ما التابوت إلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 95

حاملا له كسفينة مأمورة في امر اليم و الساحل.

و كيف‏ «يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ»؟ حيث‏ «وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» فان فرعون كان يعادي كل إسرائيلي عله موسى، فكان يعاديه كأحد منهم بهذه الحائطة، و اصل عداءه لان بيده انهياره، فلم ينج بهذه الطريقة الخارقة للعادة ان يأمر بأخذه من الساحل الا بما القي عليه محبة منه و لحدّ تقول اهله: «قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» (28: 9)! أحبته فأحبه فرعون خلافا لما يحكمه الجو الفرعوني!.

ف «ألقيت» إلقاء خاص بالغاء كل بواعث العداء و كوارثه، و «عليك» تجعل المحبة الملقاة سترا له يشمله كله، فظاهره يجلب و باطنه يجذب، اللهم إلا فيمن يعرفه من هو و هو يعاديه لأنه هو، كفرعون الطاغية، و لكنه عرفه بعد و عانده ما عاند.

و ترى «مني» متعلقة ب «ألقيت»: إلقاء مني؟ ام بمحذوف ك «حاصلة»؟ او المعنيان معنيّان، فكما المحبة ملقاة من اللّه كعناية خاصة، كذلك هي حاصلة من قبل اللّه لمن يحب اللّه فيحبه اللّه: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا» (19: 96).

فموسى و ان لم يكن منذ ولادته كما وصف اللّه حتى يجعل له ودا- و هو كما وصف و فوقه- و لكنه يوده لأنه سيجعله رسوله، فهو يصنعه على عينه، و ذلك فوق الايمان شريطة لاستحقاق الود من الرحمن.

ثم «محبة» منكرة تلمح الى ضخامتها و فخامتها القليلة النظير، و «مني» تجعلها خاصة من لدنه، فقد استقرت عليه محبّة ربانية، فلا يراه احد إلا أحبه دون ان يعرفه، الا ان يعرفه عدوّ له.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 96

فيا للقدرة العجيبة التي تجعل من المحبة اللينة الهينة درعا تتكسر عليها الضربات، و تتحطم عليه الأمواج، و تعجز كل قوّات الشر و الطغيان عن ان تمس حاملها بسوء و ان كان طفلا رضيعا، كيف و قد بلغ أشده، ثم حين عرفه عدوه يتربص به كل دوائر السوء فلا يقدر عليه او يغدر به حتى إذا أدركه الغرق و نجى موسى و من معه!.

فالقوى الطاغية المتربصة بالطفل لا تقوى عليه على طغواها، حيث‏ «مَحَبَّةً مِنِّي» تحرسه عنها، دون نزال له و لا صيال، و هي بكل صيال و نزال!.

و لماذا «أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي»؟ لأمور عدة تستحقها رحمة مني و لتصنع على عيني» و هكذا يصنع اللّه على عينه من يشاء ان يلقي عليه محبة منه.

ام «و لتضع على عيني»- «أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» حيث الرسل صنائع اللّه يصنعهم على عينه كما يشاء و يصلح لحمل اعباء الرسالة الإلهية.

ف «عيني» هنا، و هي ككل الرقابة، تعني عين العلم و القدرة و التربية الربانية، فمثلت العين التربوية الإلهية تصنعه كما يريد، و ليس يعني ان في الكون شيئا يغيب عن رؤية اللّه، و لكنه يفيد الاختصاص بشدة الرعاية و فرط الحفظ و الكلاءة ان تتربى بحيث أراك و ارعاك، فلان الحافظ لشي‏ء في الأغلب يديم رعايته بعينه، جاء هنا باسم العين بدلا من الحفظ، تلطيفا في الكلام، و مشابهة لما بين الأنام، فانه تعالى يكلمنا بألسنتنا.

و هذه الصناعة تحلّق على كل كيانه و كونه، منذ أصلاب الآباء و أرحام الأمهات، الى الولادة، الى التربية، و الى النبوءة و الرسالة و النبوّة، و الى ان قضى نحبه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 97

و قد تعني «و لتصنع» فيما عنته، امّه، فان صناعتها هي من صناعته في طيب الحمل و الولادة، و حسن الصنيعة بائتمارها امر ربها في قذفها في اليم، و ما أجمله جمعا بين الصناعتين فإنهما صناعته، و لأنه صيغة التذكير، ليست لتختص بها فانها «لتصنعي» خطابا، اللهم إلا في غياب الصيغة و هو بعيد عن السياق، و الجمع اجمع و أجمل.

أنت تصنع على عيني تحت عين فرعون عدوا لي و عدوا لك، كما تحت عيني أمك، فكما أنت على عين أمك بكل حنانها، كذلك تحت عين فرعون و في متناوله بلا أي حارس و على أشراف كل كارث، و لكن عينه لا تمتد إليك إلا على عيني، لأني‏ «أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي»!.

و ترى‏ «مَحَبَّةً مِنِّي» ميّزه لموسى و حتى على خاتم الأنبياء (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذ لم يشمله النص، و لم يختص بنص آخر؟ ان الرسول محمد يفوق موسى و من فوقه بفائقات عدة، منها ان «لا تتم الشهادة إلا ان يقال: اشهد ان لا اله الا اللّه و اشهد ان محمدا رسول اللّه، ينادي به على المنابر فلا يرفع صوت بذكر اللّه عز و جل الا رفع بذكر محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) معه‏ «1» و ذلك قوله عز و جل‏ «وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ»! و انه رسول الى النبيين كما الى جميع العالمين: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 379 في كتاب الاحتجاج روى موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (عليهم السلام) قال: ان يهوديا من يهود الشام و أحبارهم قال لأمير المؤمنين (عليه السلام) فلقد القى الله على موسى (عليه السلام) محبة منه؟ قال علي (عليه السلام) لقد كان كذلك و لقد اعطى الله محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم) ما هو أفضل منه لقد القى الله عز و جل عليه محبة منه فمن هذا الذي يشركه في هذا الاسم إذ تم من الله عز و جل به الشهادة فلا تتم الشهادة ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 98

وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (3: 81).

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى‏ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏ 40.

«وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ. وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ. فَرَدَدْناهُ إِلى‏ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (28: 13).

هنا- و بعد قذفه في اليم و التقاط آل فرعون له- تقصه أخته بأمر أمّه فتبصر به عن جنب و هم لا يشعرون، و لأنه لم يكن يرتضع من اي ثدي حيث حرمت عليه المراضع من قبل إلا امه، عرضت لهم من يكفله رضعا و نصحا، كفالة لحاجته روحية اضافة الى بدنية، و هم بطبيعة الحال يفتشون عن هكذا مرضعة.

«إذ تمشي» علّه ظرف ل «وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي» أخذا لصناعته منذ رضاعته و هو صنيع ربه قبلها و بعدها حتى ارتحاله الى رحمة ربه، و لكنما الرضاعة لأهميتها هنا كأنها بداية صناعة الرب، و هو صنيعه منذ أصلاب الآباء و أرحام الأمهات حتى النهاية في تطواف الرسالة و قضاء أمرها.

فلقد كان من صناعته له على عينه ان جعله لا يقبل ثدي المرضعات‏ «وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ» فآل فرعون يبحثون له عن مرضعة مرضية، و تتسامع المرضعات هذه الطلبة الفرعونية فتتسابق الى القصر تكسّبا لهذه المفخرة ان تصبح إحداهن مرضعة فرعونية، فيدبر اللّه امره ان تمشي أخته ضمن المشاة فتقدمهما لما يتطلبون‏ «فَرَجَعْناكَ إِلى‏ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 99

عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ» و لكي يتم وعد اللّه له حيث حرمت عليه المراضع من قبل، و ذلك من قرير عينها ألا يرتضع الا منها جمعا بين حق الربوبية و صالح الرسالة و بغية الامومة!.

و هكذا يتم التدبير الرباني للطفل و أمه، حيث تأتمر وحيه، و تقذف فلذة كبدها في اليم، ليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو للّه و عدو له‏ «وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي» فيكون الأمن بإلقائه في خضمّ اليمّ الملتطم، و تكون النجاة من فرعون بإلقائه بين يديه بلا حارس و لا معين و بكل كارث!.

و هنا يتناسى السياق مساغ موسى منذ ارتضاعه الى بلوغ أشده، الى عرض منة اخرى:

وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِ‏ «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى‏ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى‏ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى‏ فَقَضى‏ عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ. قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ. فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى‏ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى‏ أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ. وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى‏ قالَ يا مُوسى‏ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ ..»

(28: 22).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 100

فلقد اغتم موسى بهذه القتلة الخاطئة غير القاصدة كما تلمح له‏ «فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ»- «قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ»- «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ» فقد وكزه وكزة فأصبحت قتلة خاطئة «1» و حتى لو كانت عامدة ما كانت منه خطيئة، فان القبطي كان وثنيا محاربا و حكمه واضح، و لكن هذه القتلة غير العامدة خلّفت تأخيرا للرسالة الموسوية، و هي من هذه الناحية كانت خطأ و غما فنجاه اللّه من غمه.

«وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً» عدة، منذ رضاعتك و صباك و بلوغ أشدك في البلاط الفرعوني، إلى قتل النفس، و إلى قضاياك في مدين، و فتن الرسالة هي طبيعة الحال لمن يعدّ لها عدّة، و لكي يتمرن على المصائب المصاعب، و يتدرب على درب الرسالة الشاقة الملتوية، و يتجرب بما يحضّره لكل نائبة.

و تراه كيف قتل نفسا خطأ و هو صنيع ربه، معصوما عن كل و صمة عامدة او خاطئة؟ علّه من فتن اللّه، المعني من «فتونا» و لكي يعرف انه لو و كله الى نفسه طرفة عين لتطرّف و انحرف، و ذلك قبل الرسالة الرسمية حيث حصلت بعد سنيّ مدين الفاتنة له، المربية إياه.

يمتحنه ربه بالخوف و الهرب من القصاص، و بالغربة و مفارقة الأهل و الوطن، و بالخدمة و رعي الغنم، نحلة لأهله و نفقة، و قد تربى منذ ولادته حتى حينه في قصر أعظم ملوك الأرض!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 296- اخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الخطيب عن ابن عمر سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: انما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ يقول اللّه: و قتلت نفسا فنجيناك من الغم‏

و

في المجمع روي عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: رحم اللّه اخي موسى قتل رجلا خطأ و كان ابن اثنتي عشرة سنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 101

فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏.

و هذه السنون هي من ضمن فتنة الفتون، حيث يصنعه ربه على عينه في شغل رعاية الغنم و رعيها، نحلة عن زواجه، و استعدادا لرعاية الرسالة العالمية و رعي الامة الاسرائيلية.

و «سنين» هذه بين ثماني حجج و عشر، و علّه قدم العشر تقديما لافضل الأمرين الأمرين و أتمهما «1» كما هي شيمة الرسل بجنب اللّه.

و طالما النص يلوي عن عرض أشغاله في سنّي مدين، حيث الأهم هو عرض هامة الرسالة ببنودها، و لكن‏ «ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏» تقدّر مقادير تحضّره في سنيّه الفاتنة الفائتة.

و ذلك القدر هو قدر ولاية عزم الرسالة كما قدّر اللّه، الوقت المقدر لما نضج و استعد و خرج عن كل هرج و مرج، حيث ابتلي و صبر و امتحن فجاز الامتحان، كما و تهيأت الظروف في مصر لتقبّل الدعوة الموسوية، إذا فهو قدر التقدير وقتا، و قدر المقدار حالة نفسية كما «إِنَّا كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ» (54: 49) و اين قدر عام من ذلك القدر، و من قدره عمره الأربعون.

فموسى قبل جيئته هذه كان «إلى قدر» و لكنه بعد ردح من الزمن، و ذوق الفتن كما الذهب غير الخالصة تفتن لخلاصها فخلوصها «ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ» واصلا اليه، محيطا عليه، لائقا لابقا لحمل أعباء الرسالة الى فرعون و ملإه، و في هذه الجيئة الثانية:

وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي‏ 41.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 380 في تفسير القمي‏ قيل للصادق (عليه السلام) اي الأجلين قضى؟ قال: أتمها عشر حجج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 102

و هي افتعال من صنعتك، إذ ليست الصناعة الرسالية الموسوية كسائر الصنعة لسائر الناس، فان فيها مزيدا عليهم، يحضّره رسولا إليهم و «لنفسي» بيان لغاية ذلك الاصطناع، حتى يكون رسولا معصوما أمينا من اللّه.

فليس موسى لنفسه و لا لسواه إلا للّه، يعيش حياته الرسالية في اللّه و للّه، دون اتباع لهواه أمّن سواه، فانه بعين اللّه و مختار اللّه و صنيع اللّه، فكيف يكون لغير اللّه!.

ثم المنتفع من غاية اصطناعه ليس إلا هو و من ثم المرسل إليهم، فان اللّه ليس لينتفع من عباده‏ «وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ» و ما لم يكن العبد للّه لم يكن لنفسه و لا لعباد اللّه.

و لانني‏ «اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» و جعلت لك وزيرا من أهلك هارون أخاك ف:

اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي‏ 42.

«اذهب» بحمل الرسالة العالمية لبلاغها «أنت» كأصل فيها و رأس الزاوية لها «و أخوك» أزرا و وزيرا، «بآياتي» الدالة على رسالتكما الإلهية «وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي» من الوني: الفترة و الضعف و الكلال و الإعياء و الإهمال و التقصير.

ثم «ذكرى» هي من اضافة المصدر الى الفاعل و الى المفعول: ذكري إياكم و ذكركم اياي، قالا و حالا و أفعالا، في أنفسكم و في المرسل إليهم، حيث العقبات أمام ذكر اللّه كثيرة خطيرة، فلتكافح الرسالة كافة العراقيل، لتجتازها الى تحقيق رسالة اللّه في عباد اللّه.

و لقد كان الأمر قبل استجابته في سؤله يخصه: «اذْهَبْ إِلى‏ فِرْعَوْنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 103

إِنَّهُ طَغى‏» و هنا يشفّع به اخوه تحقيقا لسؤاله، و ترى هارون الغائب الآن عن هذا المحضر كيف يؤمر بما يؤمر به موسى؟ انه يؤمر ضمن ما يؤمر موسى، و بلاغه اليه على عاتق موسى، و كما اوحي الى هارون نفسه في نفس الوقت مهما كان بعيدا عن ذلك المحضر، حيث الكون كله محضر للّه، يخاطب من يريد خطابه مهما اختلف الزمان و المكان.

ام انه خوطب بعد ما اجتمع الى هارون، و دليلا عليه‏ «قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى‏» 45 و السياق القرآني يطوي الزمان و المكان و يترك فجوات بين مشاهد القصص، هي معلومة من نفس السياق، ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر الأعمق في سير القصص و في وجدان الناس.

و في جمعية الآيات «بآياتي» و لم يؤت من ذي قبل إلا آيتي العصا و اليد البيضاء، تبشير لهما الى آيات اخرى.

اذْهَبا إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏ 43.

و هنا تخص دعوة الداعية بعد عمومه فرعون الطاغية لأنه رأس الزاوية في عرقلات الدعوة، و كل دعوة إلهية تبدء بالسلب و تنتهي الى الإيجاب، فما دامت الفرعنات قائمة، لا تجد الدعوة الالهية مجالا لتحققها، إذا ف «اذهبا» في بداية الدعوة «الى فرعون» و لماذا؟ ل «إِنَّهُ طَغى‏» استعبادا لبني إسرائيل، و استبدادا بالحكم عليهم، فلتبدأ بحسمه و قصمه لكي تجد الدعوة سبيلا الى تطبيقها.

ترى و كيف يصلح ذهاب الداعية الى الطاغية، إصلاحا له، ام سدا عن بأسه و صدا عن سلطانه؟

فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏ 44.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 104

و نص القول اللين نجده في النازعات‏ «إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً. اذْهَبْ إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏. فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى‏ أَنْ تَزَكَّى. وَ أَهْدِيَكَ إِلى‏ رَبِّكَ فَتَخْشى‏» (19) و كما نجده هنا «فقولا ...».

و نرى الداعية موسى طول حواره مع فرعون الطاغية لا يقول له إلا قولا لينا لعلّه يتذكر أو يخشى» و لكنه زاد طغوى على طغوى، و هذه طبيعة حال الدعوة الصالحة ان تكون لينة بالتي هي احسن، بالحكمة و الموعظة الحسنة و الجدال بالتي هي احسن، استنباطا لدفين الحق المستور تحت ستار الهوى، و في آخر المطاف‏ «وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» «1».

ثم القصد من هذا الذهاب الى فرعون بقول لين‏ «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ» فتحصل له تقوى بعد طغوى، ام إذا لم يتذكر هكذا «او يخشى» لأقل تقدير، فتلك عبادة التجار و هذه عباد العبيد و قبلهما للأحرار ان يعبدوا اللّه لأنه اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 301- اخرج احمد في الزهد عن ابن عباس قال‏ لما بعث اللّه موسى الى فرعون قال لا يغرنكما لباسه الذي ألبسته فان ناصيته بيدي فلا ينطق و لا يطرف الا باذني و لا يغرنكما ما متع به من زهرة الدنيا و زينة المترفين فلو شئت ان ازينكما من زينة الدنيا بشي‏ء يعرف فرعون ان قدرته تعجز عن ذلك لفعلت و ليس ذلك لهوانكما علي و لكني البستكما نصيبكما من الكرامة عن ان لا تنقصكما الدنيا شيئا و اني لأذود اوليائي عن الدنيا كما يذود الراعي ابله عن مبارك الغيرة و اني لأجنبهم كما يجنب الراعي ابله عن مراتع الهلكة أريد ان أنور بذلك صدورهم و اطهر بذلك قلوبهم في سيماهم الذين يعرفون بهم و أمرهم الذي يفتخرون به و اعلم انه من أخاف لي وليا فقد بارزني و انا الثائر لاوليائي يوم القيامة.

أقول: مثل ابن عباس لا ينقل حديثا قدسيا عن اللّه دون ان يسمعه من رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذا فهو عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 105

و لان موسى قد تربى عند فرعون، ثم قتل منه نفسا، ثم يأتيه رسولا، و هو الطاغية الباغية، فهذه الأربع تدفع الداعية الى قول لين معه اكثر من الواجب في طبيعة الحال الرسالية حيث القصد- لأقل تقدير- سدّ أذاه و إخماد لظاه، و خشن القول مما يزيد لظى في أذى.

و كيف «لعلّه» و لا تردّد في علمه سبحانه انه لا يتذكر و لا يخشى؟ انه ترجّ للداعية نتيجة الدعوة بصورة عامة، و حتى إذا تأكد انه لا يتذكر و لا يخشى، فانها «عُذْراً أَوْ نُذْراً» فالنذر بين تذكر و خشية، و العذر لبلاغ الحجة، و لكيلا تكون للناس على اللّه حجة، حيث الناس في انقسامات ثلاث، ناس و أشباه ناس و نسناس، فالناس بين دعاة يدعون، و مدعوين يتقبلون الدعوة، و النسناس هم المصرون على الباطل، و أشباه الناس عوان بينهما متوقفين بين الأمرين.

و على الدعاة ان يكونوا في دعوتهم‏ «عُذْراً أَوْ نُذْراً» فالعذر أمام النسناس لبلاغ الحجة، و النذر للذين يتقبلون الدعوة دون امهال فهم المتذكرون، و للعوان المترددين المتقبلين بامهال فهم الخاشون، و «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏» يخص الأخيرين و يجمعهما «نذرا» ثم «عذرا» على الأولين.

و الباعث القوى للدعوة ان يتذكر المدعو او يخشى، و أما ان يطغى كفرعون فباعث الدعوة فيه ضعيف، و رجاء التأثير في الدعوة هو الباعث لها بقوة.

«عُذْراً أَوْ نُذْراً» هما رسم لخطوط الدعوة و خيوطها بصورة عامة، و اما الدعوة الخاصة كما الى فرعون، فلا تصلح ان يؤكد فيها انه «عذرا» قطعا بعدم التأثير، فانه وني للدعوة شاء الداعية ام ابى، «فانما قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 106

«لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏» ليكون احرص لموسى على الذهاب» «1» ام و باحرى انه تذكر و خشي و لكن متى؟ عند رؤية البأس، حين لا تنفعه الخشية و الذكرى‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 380 في علل الشرايع بسند متصل عن محمد بن أبي عمير قال‏ قلت لموسى بن جعفر (عليهما السلام) اخبرني عن قول اللّه عز و جل لموسى‏ «اذْهَبا إِلى‏ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى‏ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏» فقال: اما قوله فقولا له قولا لينا اي كنّياه و قولا له يا أبا مصعب و كان كنيته فرعون أبا مصعب الوليد بن مصعب، اما قوله‏ «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏» فانما قال ليكون احرص لموسى على الذهاب و قد علم اللّه عز و جل ان فرعون لا يتذكر و لا يخشى الا عند رؤية البأس الا تسمع اللّه عز و جل يقول: حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فلم يقبل اللّه ايمانه و قال: «آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

و

فيه عن تفسير القمي عن عدي بن حاتم‏ و كان مع امير المؤمنين (عليه السلام) في بعض حروبه ان عليا (عليه السلام) قال ليلة الهرير بصفين حين التقى مع معاوية رافعا صوته يسمع أصحابه: لأقتلن معاوية و أصحابه ثم قال في آخر قوله: ان شاء اللّه- يخفض به صوته و كنت منه قريبا فقلت يا امير المؤمنين انك حلفت على ما قلت ثم استثنيت فما أردت بذلك؟ فقال: ان الحرب خدعة و انا عند اصحابي صدوق فأردت ان أطمع اصحابي في قولي كيلا يفشلوا و لا يفروا فافهم فانك تنفع بهذا بعد اليوم ان شاء اللّه تعالى، و عن الكافي مثله و فيه‏ بعد ان شاء اللّه تعالى: و اعلم ان اللّه جل ثناءه قال لموسى (عليه السلام) حين أرسله الى فرعون‏ «فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏» و قد علم أنه يتذكر و لا يخشى و لكن ليكون ذلك احرص لموسى (عليه السلام) على الذهاب.

(2)

البحار 13: 135 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في حديث له طويل حول القصة قال له سفيان قلت يا ابن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هل يجوز ان يطمع اللّه عز و جل عباده في ما لا يكون؟ قال: لا فقلت: فكيف قال اللّه عز و جل لموسى و هارون‏ «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏» و قد علم ان فرعون لا يتذكر و لا يخشى؟ فقال: ان فرعون قد تذكر و خشي و لكن عند رؤية البأس حيث لم ينفعه الايمان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 107

و على اية حال فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم، و لا يهيج الكبرياء الزائف التي يعيشها الطغاة، بل و من شأنه إيقاظ القلب غير المقلوب، و الحجة القاطعة على القلوب.

قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى‏ (45).

هنا خوف الداعية في سبيل الدعوة، يعرضه على اللّه، لا اعراضا عن امر اللّه، و انما سؤالا لمزيد التأييد كما سأل من ذي قبل فاعطي سؤله.

فلم يكن خوفا للداعية على نفسه‏ «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (26: 14) إذ طمأنه ربه لما أعطاه سؤله: «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما» (28: 35).

«أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا» كرسولين، فرطا على الدعوة تعجيلا بالعقوبة قبل الآية المعجزة، و «أَوْ أَنْ يَطْغى‏» هي طغوى عليهما و على بني إسرائيل، بعد ما طغى، فهي مزيد الطغوى، إظهارا لدفينها.

فذلك- إذا- خوف على الدعوة ان يسبقها فرط من فرعون بقتل الداعية، ام يزيد طغوى على طغوى، فلا تفيد- إذا- هذه الدعوة الا بنصرة الهية هي المطلوبة في ذلك العرض.

فها هما ذان الرسولان المأموران الخائفان على بلاغ الرسالة يتوجهان الى ربهما بمخاوفهما، و يطمئنهما ربهما فيطمئنان على طول الخط الى نهاية المطاف.

قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى‏ 46.

«لا تخافا» على أية حال ل «إِنَّنِي مَعَكُما» معية العلم و القدرة و النصرة «اسمع» المقال «و ارى» الحال، و لست أهمل الرسول و الرسالة، او أمهل الفارط و الطاغي على الدعوة، فان ذلك نقص في الرسالة، و نقض للهدف من الدعوة!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 108

و هذه المعية الربانية تعم المرسلين كافة و الذين معهم على درجاتهم:

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» و لا تعني النصرة الضمان على حياة الرسول و المؤمنين، و عدم أذاهم، و انما هي الضامنة لحياة الرسالة و الايمان و تقدمهما و ثباتهما مهما صعبت الظروف و التوت.

فلا تعني‏ «إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى‏» عدم مسهما بأي أذى و قدمتّهما أذى كثيرة، حتى و لا عدم قتلهما مهما لم يقتلا، و هذه هي سنة الربوبية في الرسالات كلها «إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى‏».

و ترى كيف خافا على اي امر كان و هما رسولان و «إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» (27: 11)؟

المهم هنا موقف «لدي» و قد حصلت لهما لما طمأنهما ربهما «إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى‏» فزال عنهما كافة المخاوف في سبيل الدعوة الى فرعون الطاغية و من معه!.

و من‏ «قَوْلًا لَيِّناً» هنا بعد ما في النازعات‏ «هَلْ لَكَ إِلى‏ أَنْ تَزَكَّى. وَ أَهْدِيَكَ إِلى‏ رَبِّكَ فَتَخْشى‏» (19): بصيغة اخرى تفصيلا للأخرى:

فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلامُ عَلى‏ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى‏ 47 إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى‏ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى‏ 48.

و ترا هما كيف أتياه و من عادة الطغاة عدم السماح لمن يستأذن منهم، إلّا إذا كان لصالحهم و هم يعرفون بصدق لهم و إخلاص؟.

يروى‏ انه «أتى بابه فاستأذن عليه و لم يؤذن له فضرب بعصاه الباب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 109

فاصطلت الأبواب مفتحة ثم دخل على فرعون فأخبره انه رسول من رب العالمين .. «1»

و لكنه خلاف اللين في اللقاء مهما كان مع البواب، و قد تعامت الآية عن كيف دخل فنسكت عما سكت اللّه عنه.

و نرى هنا ألين اللين في بزوغ الدعوة، فلم يقولا «انا رسولا رب العالمين» كيلا ينبري لإدخاله في العالمين، و هو داخلهم! و لا «إنا رسولا ربنا» فصلا له عن ربهما و هو فصل عن قبول اصل الدعوة، و هو الطاغية الداعية: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» و انما «إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ» الذي رباك، فلست أنت ربا لنفسك، و لا لغيرك ممن هو مثلك من العالمين، و لا أنت رب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 13: 120 عن القمي أبي عن ابن فضال عن ابان بن عثمان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: لما بعث اللّه موسى الى فرعون أتى بابه .. و فيه 13: 109 الصدوق باسناده عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان فرعون بني سبع مدائن فتحصنى فيها من موسى فلما امره اللّه ان يأتي فرعون جاءه و دخل المدينة فلما رأته الأسود بصبصت بأذنابها و لم يأن مدينة الا انفتح له حتى انتهى الى التي هو فيها فقعد على الباب و عليه مدرعة من صوف و مد عصاه فلما خرج الآذن قال له موسى (عليه السلام) اني رسول رب العالمين إليك فلم يلتفت فضرب بعصاه الباب فلم يبق بينه و بين فرعون باب الا انفتح فدخل عليه و قال انا رسول رب العالمين فقال ائتني بآية فالقى عصاه و كان لها شعبتان فوقعت احدى الشعبتين في الأرض و الشعبة الاخرى في أعلى القبة فنظر فرعون الى جوفها و هي تلتهب نارا و أهوت اليه فأحدث فرعون و صاح يا موسى خذها و لم يبق احد من جلساء فرعون الا هرب فلما أخذ موسى العصا و رجعت الى فرعون نفسه هم بتصديقه فقام اليه هامان و قال: بينا أنت اله تعبد إذ أنت تابع لعبد و اجتمع الملأ و قالوا: هذا لساحر عليم، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم فلما القوا لهم و عصيهم القى موسى عصاه فالتقمتها كلها و كان في السحرة اثنان و سبعون شيخا خووا سجدا ثم قالوا لفرعون ما هذا سحر لو كان سحرا لبقيت حبالنا و عصينا ثم خرج موسى (عليه السلام) ببني إسرائيل يريد ان يقطع بهم البحر ..

أقول «ثم هنا تفصل بين بداية امره و نهايته كما هو مستفاد من آيات القصة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 110

العالمين، و انما لك رب رباك كما ربانا و ربى سائر العالمين، تهديما لصرح الخرافات الوثنية ان لكل قوم إلها او آلهة كما كانت سائدة بينهم.

ف «ربك» هنا اختصاصا له بربوبيته تعالى يوافق طبيعة حاله، و يستحثه على سؤاله العجاب، من هو ذلك الرب، و طبعا هو ربكما كما هو ربي، و لذلك أرسلكما الي على زعمكما.

و قد جمع في‏ «إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ» حجة بارعة قارعة على لينها، دون ان تؤثر اللينة في قاطعية الحجّة فتنقص عنها، و لا ان تؤثر الحجة في تحول اللينة الى القساوة، و هذه هي الجدال بالتي هي احسن، ان تذاد عنها مساويها، و تزاد فيها محاسنها، فتصبح قاطعة على لينونته، و لينة على قاطعيته!.

ثم في هذه البداية لا يفرعان على‏ «إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ» تطلّب الايمان به من فورهما، و انما ادنى ما يتطلّب من مربوب لربه ان يتخلى عن سلطته الظالمة على مستضعفي عبادة:

«فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ» كان ذلك هو فقط مادة الرسالة اليه لا سواها، و لكي لا تأخذه العزة بالإثم و الغيرة، فيأتي بمعرّة فوق معرّة.

«فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ» كإيجاب واحد في هذه الرسالة «وَ لا تُعَذِّبْهُمْ» كسلب واحد فيها، و «لا تعذبهم» بدل «لا تظلمهم» ليونة في التعبير، حيث الظلم يخص القبيح، و العذاب منه قبيح و منه صحيح، و لأنهما يرأسان بني إسرائيل، فلو انهم يستحقون العذاب فحوّل عذابهم إلينا و أرسلهم معنا، فلا لكم و لا عليكم اي شأن منهم شائنا ام سواه.

و لئن تطلب برهانا على هذه الرسالة «قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ» آية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 111

ذات دلالتين، أولاهما انه ربك، و ثانيتهما انا رسولا ربك.

و لماذا «آية» و قد اوتي موسى تسع آيات حيث أرسل‏ «فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ» (27: 12)؟.

لان الموقف هنا في مقام اثبات رسالتهما بآية الهية، دون كمّها و كيفها، و ان الآيات التسع هي كواحدة في اصل التدليل على صحة الربوبية و الرسالة، فآيات الرسالات كلها تنحو منحى هدف واحد هو اثبات الرسالة الإلهية، على اختلاف صورها و سيرها.

و هنا بعد ثبوت الرسالة و الألوهية- و هما الهدى الإلهية- بخطط مصير كل من اهل الهدى و الردى بمسيرهما:

«وَ السَّلامُ عَلى‏ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى‏» دون من عارضها، ام لا لها و لا عليها، فهلا تريد يا فرعون ان تكون من اهل السلام باتباع الهدى و ترك الهوى.

ثم العذاب و أنت تعذب بني إسرائيل‏ «إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى‏ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» كذب الهدى بعد إتيانها، و تولى عنه الى غيرها، فهل انهم كذبوا الهدى و تولوا عنها حتى يستحقوا عذابك؟ و هم موحدون مهتدون!.

ام أنت المكذب للهدى، المتولي عنها و لذلك تطغى، فاترك الطغوى الى التقوى حتى يسلم السلام على من اتبع الهدى، و ذلك تنديد بكل مكذب بحق متول عنه أيا كان‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 281 في اصول الكافي باسناده الى عبد اللّه بن ابراهيم الجعفري قال: كتب ابو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) الى يحيى بن عبد اللّه بن الحسن: اما بعد فاني أحذرك و نفسي و أعدك اليم عذابه و شديد عقابه و تكامل نقماته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 112

نرى هنا في ذلك العرض الحكيم لتلك الرسالة السامية كل برهنة ساطعة قوية بكل ليونة، فلا ينسبان الى الطاغية تكذيبا للهدى و توليا عنها و استحقاقا للعذاب بصيغة صريحة، و انما يوضّحان اسباب الهدى و الردى بمسيرهما و مصيرهما، و ليعرف فرعون من هو من هذا البين‏ «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى‏»! فهنا ترغيب و استمالة «وَ السَّلامُ عَلى‏ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى‏» فلعله منهم، يتلقى السلام باتباع الهدى، ثم تحديد و تحذير غير مباشرين كيلا يستثيرا كبرياءه او يحطاه من علواءه: «إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى‏ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» فلعله ليس ممن كذب و تولى.

و لماذا هنا «رَسُولا رَبِّكَ» و في سائر القرآن «رسول- او- رسولا رب العالمين‏ «1»؟.

لأن الذي هو رب فرعون المدعي للألوهية أحرى ان يكون ربا للعالمين أجمعين، إذا «رَسُولا رَبِّكَ» صيغة اخرى عن «رسولا- او- رسول رب العالمين» ام انه قالهما بصيغة عامة لكافة المرسل إليهم و اخرى خاصة بفرعون رعاية لليونة التعبير.

هنا يمتنّ فرعون على موسى انّ رباه وليدا كأنه نعمة تمنعه عن هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و أوصيك و نفسي بتقوى اللّه فانها زين الكلام و تثبيت النعم- الى قوله-: أحذرك معصية الخليفة و أحثّك على بره و طاعته و ان تطلب لنفسك أمانا قبل ان تأخذك الأظفار و يلزمك الخناق من كل مكان فتروح الى النفس من كل مكان و لا تجده حتى يمن اللّه عليك بمنه و فضله و رقة الخليفة أبقاه اللّه فيؤمنك و يرحمك و يحفظ فيك أرحام رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و السلام على من اتبع الهدى انا قد اوحي إلينا ان العذاب على من كذب و تولى.

(1). ففي الأعراف و الزخرف‏ «وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (104) و في الشعراء» إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (16) قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ (23).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 113

الرسالة جزاء بها: «قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ. قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ. فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ. قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ» (26: 23).

فهنا نرى الطاغية يلوي شدقه متجاهلا ان اللّه ربه، سائلا موسى و هارون عن ربهما دون ربه و لما يعترف به.

[سورة طه (20): الآيات 49 الى 76]

قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى‏ (49) قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏ (50) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى‏ (51) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسى‏ (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (53)

كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى‏ (54) مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى‏ (55) وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى‏ (56) قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى‏ (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (58)

قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى‏ (60) قالَ لَهُمْ مُوسى‏ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى‏ (61) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى‏ (62) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى‏ (63)

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى‏ (64) قالُوا يا مُوسى‏ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى‏ (65) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى‏ (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى‏ (67) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى‏ (68)

وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى‏ (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى‏ (70) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى‏ (71) قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى‏ ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ (73)

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى‏ (74) وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى‏ (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 116

قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى‏ 49.

هنا يخاطب موسى في‏ «فَمَنْ رَبُّكُما» إذ عرف انه الأصل في هذه الرسالة، و ذلك السؤال تهكم في الحوار، و تراه دهريا ناكرا لالوهية اللّه لقوله‏ «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» و قوله هنا «فَمَنْ رَبُّكُما» ناكرا لربهما الذي لا يصدقه ربا لنفسه، و في القصص‏ «وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ» (86) «1»؟ و هذا ظاهر الحال من قاله.

ام انه ناكر لربوبيته و عبوديته دون ألوهيته، و لا دليل عليه إلا تأويل عليل!.

انه ناكر للربوبية العالمية ككل فضلا عن ربوبية رب العالمين لنفسه فيقول هنا «و من ربكما يا موسى» ثم في الشعراء «وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ» استنكارا للربوبية العالمية التي يقولها موسى و هارون لربهما.

و على اية حال فهذه النخوة الجاهلية هي من شيم الفراعنة، و كما واجهه آذنه اوّل مرة بكلمته الهازئة اللاذعة «اما وجد رب العالمين من يرسله غيرك» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و كذلك في المؤمن‏ «وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ.

أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً ...».

(2)

البحار 13: 137 يسوق القصة مرفوعة .. حتى انتهى الى قصر فرعون الذي هو فيه فقعد على بابه و عليه مدرعة من صوف و معه عصاه فلما خرج الآذن قال له‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 117

اجل و هم كما

قال الإمام امير المؤمنين (ع): ان اللّه سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم و لقد دخل موسى بن عمران و معه اخوه هارون على فرعون عليهما مدارع الصوف و بأيديهما العصيّ فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه و دوام عزّه فقال: ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العز و بقاء الملك و هما بما ترون من حال الفقر و الذل، فهلّا الذي عليهما اساورة من ذهب؟ إعظاما للذهب و جمعه، و احتقارا للصوف و لبسه، و لو أراد اللّه سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم ان يفتح لهم كنوز الذهبان و معادن العقيان و مغارس الجنان و ان يحشر معهم طير السماء و وحوش الأرض لفعل، و لو فعل لسقط البلاء و بطل الجزاء و اضمحل الأنباء و لما وجب للقابلين أجور المبتلين و لا استحق المؤمنون ثواب المحسنين» «1».

قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏ 50.

تعريف جامع خاصر حاصر برب العالمين، فان كان فرعون شيئا شملته ربوبية رب العالمين و هدايته، و ان لم يكن شيئا، فما للّاشي‏ء ان يعارض في الربوبية رب كل شي‏ء؟.

ذلك إجمال من تفصيل الشعراء: «قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ. قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ‏ ...

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

موسى استأذن لي على فرعون فلم يلتفت اليه فمكث بذلك ما شاء الله يسأله ان يستأذن له فلما اكثر عليه قال له: اما وجد ... فغضب موسى فضرب الباب بعصاه فلم يبق بينه و بين فرعون باب الا انفتح حتى نظر اليه فرعون و هو في مجلسه فقال:

أدخلوه فدخل عليه ...

(1). البحار 13: 141 عن نهج البلاغة عن الامام علي أمير المؤمنين (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 118

رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ‏ .. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» (26: 28).

و «أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» هي الربوبية الشاملة لكل خلق و لكل هدى، فليس الخالق غير الهادي- لو كان- ربا، و ليس الهادي غير الخالق- لو كان- ربّا، و الرب هو الذي يجمع بينهما بصورة شاملة كاملة دون إبقاء.

ف «ربنا» هنا جواب عن‏ «فَمَنْ رَبُّكُما» ثم «الذي ..» يتخطى فيه بربوبيته الى كل شي‏ء و منه فرعون و ملأه، و هذه بلاغة بارعة في الحوار ان يتبنى ما يبتني عليه الخصم دون زيادة و لا نقيصة، فلما قالا «إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ» قدماه في صلته بالرب، ثم لما قلب الأمر فحول إليهما: «فَمَنْ رَبُّكُما» تحوّلا قائلين «ربنا» و لكنه في مواصفة تعرف به انه رب كلّ شي‏ء و منه فرعون و ملأه.

و ترى «خلقه» مصدر؟ و هو فعل الرب، لا يعطيه لاي شي‏ء حتى أفضل الكائنات! ام هو المخلوق؟ و كيف يعطى مخلوق لمخلوق!.

انه اسم المصدر، و إعطاء الخلق لكل شي‏ء هو إيجاده عطية منه ربانية، و حاصل الإيجاد هو الوجود، و حاصل الخلق هو المخلوق، فالوجود المخلوق هو المعني من «خلقه».

و ترى ما هو الشي‏ء الذي يعطى خلقه، فان كانت العطية قبل وجوده فليس شيئا حتى يعطى خلقه، و ان كان بعد وجوده فهو تحصيل للحاصل، إذا فلا حاصل ل «أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ»؟

الشي‏ء هنا هو الكائن مستقلا، و اطلاق كلمة الشي‏ء عليه باعتبار الأول دون الفعلية، فمثله كمثل قوله‏ «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 119

كُنْ فَيَكُونُ».

ثم الشي‏ء ان كان هو المادة الأولية للكون فإعطاء خلقه هو إيجاده لا من شي‏ء، و ان كانت المواد الاخرى المتحولة عنها، ثم كل عن الاخرى، فإعطاء خلقه هو تحويره و تغييره، فهو خلقه من شي‏ء خلقه فبله، فهناك شي‏ء أول شيّأ سائر الأشياء منه على اختلاف ذراتها و جزئياتها و عناصرها.

و من ثم «ثم هدى» تعني تراخي الهدى رتبيا عن الخلق و زمنيا على طول الخط ما دام الكون كائنا، و الهدى لزام الخلق عطاء و إلا فضلال يخالف حكمة الخلق‏ «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ» (36: 38) «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى‏» (78: 3).

فالهدى لزام الخلق بعده، و مهما كان معه زمنا فانه بعده رتبيّا، و «ثم» هنا تدل على التأخر رتبيّا او زمنيا ام فيهما، فمن الهدى ما لا يصل إليها الخلق إلا بعد شروط تتطلب زمنا بعيدا، و منها ما هي له منذ خلق، هدى اولى هي التي تخطو بالخلق إلى مراتب اخرى، فكل خلق يعيش هدى تناسب حاله و الهدف من خلقه، و ليس الضلال في كون او شرعة ام تطبيقها إلّا تخلّفا من النسناس الذين يعارضون شريعة الناس و يعرقلون السير على السالكين سبيل الهدى، ثم الهدى هنا بعد الخلق تعم التسوية و التقدير كما في آيتي الأعلى، و هي ككل تعم الهدى التكوينية في كل شي‏ء، و هي القوانين المحكّمة على كل شي‏ء، هندسيا و كيماويا و فيزيائيا اما هيه، و الغريزية في أصحابها، ثم الفطرية و العقلية في العقلاء، و من ثم الهدى التشريعية لهم، و على ضوءها تكوينية اخرى‏ «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً» (47: 27).

ثم و «ثم هدى» كما تعني هدى كلّ الى الكمال اللائق به الهادف له، كذلك هدى كلّ الى الآخر تكميلا له او تكاملا به‏ «ما تَرى‏ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 120

خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» (67: 3).

فقد هدى الخلق ككل منذ البداية حتى النهاية بما تزاح به العلل، و يتكامل معه الخلق، من سلامة الأعضاء و اعتدال الاجزاء و ترتيب المشاعر و الحواس و مواقع الأسماع و الأبصار، لكلّ على حسبه و بمستواه، و ذلك هو الخلق الحكيم سبحان الخلاق العظيم.

و مثالا على تلك الهدى الشاملة هدى الأرض لتسجيل الصور و الأصوات: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها» ثم هدى النحل الى هندسة بيوتها و استجلاب عسلها: «وَ أَوْحى‏ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» و من ثم كل وحي الى كل حي و ميت من الكائنات تهتدي به الى ما خلقت لأجله تكوينيا و تشريعيا من مختلف طرق التكامل ماديا «1» و معنويا.

و قد تعني «ثم هدى» مثلث الهدى، ثانيتها هدى كل شي‏ء الى ربه‏ «إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (17: 44) و الثالثة هدى العقلاء- بإحكام الخلق في كل شي‏ء- الى الخالق الحكيم، إذا ف «هدى» تعني كل شي‏ء الى شيئه، و بعض الشي‏ء الى مخلوقية سائر الأشياء بدلالة عقلية، فما من هدى تكوينية او تشريعية او شرعية فعلية ام مستقبلة إلا و هي من اللّه، كما خلق كل شي‏ء من اللّه، ثم لغير اللّه الاختلاق و الضلال، كما له الخلق و الهدى ف «الخير كله بيديه و الشر ليس اليه».

فقد كان ذلك الجواب الحاسم القاصم للطاغية تعريفا عريقا برب العالمين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 381 في الكافي عن محمد بن مسلم قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قول اللّه عز و جل‏ «أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» قال: ليس شي‏ء من خلق اللّه الا و هو يعرف من شكله الذكر من الاثنى، قلت: ما يعني ثم هدى قال: هداه للنكاح و السفاح من شكله.

أقول: هذه هدى لبقاء النسل كمصداق من المصاديق المادية للهدى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 121

حيث جمع كل جوانب الربوبية لربهما كرب العالمين، سلبا لسائر الربوبيات المدّعاة، فان الكل فقيرة في ذاتها فضلا عن إعطاء خلق ام هدى لسواها! فالخلق بهداه الواسعة الشاسعة، و الشاملة كل كائن من الذرة و ما دونها و ما فوقها، من الخلية الواحدة الى ارقي اشكال الحياة، مشمول ل «أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏».

هذا الكون الكبير المؤلّف مما لا يحصى من الذرات و الخلايا، كل ذرة فيه تنبض و كل خلية تحيا، و كل كائن يتفاعل او يتعامل مع الكائنات الاخرى .. تعمل منفردة و مجتمعة داخل إطار النواميس المودعة في كينونتها او غريزتها او فطرتها و عقليتها، بلا تعارض كوني و لا خلل و لا فتور.

قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى‏ 51.

لما أفحم الطاغية بهذه الحجة البالغة المحلقة على الأصول الثلاثة، انتقل في حواره الى واجهة اخرى، استبعادا لها: «قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى‏» و البال هو الفكر و الحال، الحال التي يكترث بها كما يقال: ما باليت بكذا بالة، اي ما اكترثت به، و الحال التي ينطوي عليها الإنسان فيقال: خطر ببالي.

فهنا استبعاد أول في بال الفكر للقرون الاولى، إذ كانت الاكثرية المطلقة منهم مشركين، فإذا كان التوحيد حقا فما بال القرون الاولى إذ كانوا مشركين؟ سنادا في ابطال الحق الى الاكثرية الساحقة من القرون الاولى كأنها حجة تدمغ بالغة الحجة.

ثم استبعاد ثان، ان لو كان التوحيد حقا و ان العذاب على من كذب و تولى، فما حال القرون الاولى التي مضت و ضلت في الأرض، فهو كقيلة لهم اخرى: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ...

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 122

(32: 11).

ما شأن القرون التي مضت، اين ذهبت، و كيف و متى عذبت؟

قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسى‏ 52.

لماذا لم يؤمنوا؟ «عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي»! و كيف يتواجدون حتى يعذبوا؟

«عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ» ما كتبه عليهم من اعمالهم فهي تابتة في أنفسهم و في أماكنهم و سائر الشهود «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ...

«لا يَضِلُّ رَبِّي» عما خلق و هدى، و عما أمات و أحيى، فهو عالم بخلقه على أية حال، ثم‏ «وَ لا يَنْسى‏» بعد ما علم، علم دائب لا حول عنه و لا خلل فيه و لا نقص يعتريه.

فالخالق كل شي‏ء، الهادي كلا الى شيئه بما أعدّ له من طاقات و امكانيات، كيف يضل عن فعله او ينسى؟.

و لماذا «ربي» دون «ربك» او «ربنا» او «رَبِّ الْعالَمِينَ»؟ لعله تاشير الى أن الربوبية الخاصة التي تجعل لمثلي علما هكذا، فأفحمك بجملة قاطعة، إنها باحرى ان تحلّق علما على القرون الاولى و سواها.

إذا فليس‏ «عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي» تحويلا للجواب الى ربه، علما بانه تعالى ليس ليجيبه، بل هو جواب حاسم ان ربي لا يضل عما خلق و هدى و لا ينسى، لأنه‏ «أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏».

و من هداه الفطرية، و هي بال القرون الاولى مهما تخلفوا عنها، و من هداه تسجيل أقوالهم و اعمالهم و الحفاظ على أرواحهم بأجسادهم بعد موتهم كما قبله، فلا يضلون عن علمه و لا ينسون، فهو هو يجازيهم يوم القيامة بما كسبوا و ما اللّه بغافل عما يعملون.

و من ثم يذكر لربه مواصفات تؤكّد علمه المحيط و جزاءه الأوفى لكل من سعى:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 123

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى‏ 53.

«كم» فيها لا تختص بحاضر الإنسان زمن الخطاب كقضية واقعية، بل الخطاب فيها و أمثالها قضية حقيقية تشمل مثلث الزمان حاضرا و مستقبلا و غابرا، منذ سكن إنسان الأرض و الى يوم الدين.

فلقد كانت الأرض قبلكم و لم تكن مهدا، ثم اللّه جعلها لكم مهدا:

متحركة بحراك دائب، فكما مهد الطفل يحركه لإراحته، و هو مربوط بربطتين تربطانه و الطفل عن السقوط و التبعثر، كذلك مهد الأرض فانها مربوطة برطاتات منها القوة الجاذبية العامة، تربطها و أطفالها عن السقوط في هوّات الأجواء البعيدة، و هي متحركة بحركات عدة متداخلة لطيفة حنونة، لحد لا ندرك منها الا كلّ رياحة.

و من ثم هي مهد المهاد «أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً. وَ الْجِبالَ أَوْتاداً» (78: 6) حيث مهدت لحياة الإنسان بسائر الأحياء المستخدمة لصالح الإنسان، فمهدت للإنسان كل حاجيات حياته، مهدا حانيا على طفولة الإنسان يضمه و يرعاه، و تمهده- ان سلك فيها سبيل ربه- للحياة الاخرى، و هي أحرى من الاولى و ارقى.

«سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا» لا تختص بالسبل الحيوانية لحياته، بل و انسانية الحياة هي الأهم الأحرى، «وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (6: 153).

و كذلك الأمر في‏ «وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى»: نابتات نباتية و حيوانية و إنسانية اما هيه: «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» (71: 17).

. و «أزواجا» هنا تعم الذكورة و الأنوثة كظاهرة مطردة في كافة الأحياء الثلاثة الأرضية، و النبات يحمل في الغالب خلايا التذكير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 124

و التأنيث معا في نبتة واحدة، و أحيانا يكون اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية، و بذلك يتم التناسق في نواميس الحياة و يطرد في كل الفصائل و الأنواع.

و قد جمعت الآية عطية الخلق و الهدى، الناحية منحى هدى الإنسان الى غايته القصوى، اعطى الأرض خلقها ثم هداها بتمهيدها لطفولتها التي تختضنها بمهدها، و سلك سبلها ثم هداها ان سبّلها لإنسانها في مختلف سؤله روحية و مادية، و انزل من السماء ماء ثم هداه و هدى الأرض ان اخرج منها أزواجا من نبات شتى.

كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى‏ 54.

«كلوا» من نباته الشتى‏ «وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ» منها، ان في ذلك الإنعام لكم و للأنعام «لآيات» تدل على توحيد اللّه و الحياة الأخرى و ما بينهما «لِأُولِي النُّهى‏».

و «النّهي» جمع النّهية و هي العقل الناهي عن القبائح كلها، حيث التاء هنا للمبالغة كما في العلّامة، فلم يقل «اولي العقول» حيث العقل منه مدخول لا ينهى بل و ينهى بناهية النفس و من ناحيتها، ام لا ينهى و لا ينهى، بتلة بطلة كأن لا كون لها و لا كيان، فلا تستعمل لصالح الحياة و لا طالحها، كالعقول المجنونة، او المحجوبة عن فاعلياتها.

و هذه الآيات انما هي‏ «لِأُولِي النُّهى‏» تلك العقول الناضجة الناتجة عن تعقلات و تنهيات عن الهوى، فالعقل ما عبد به الرحمن و اكتسب الجنان، فالذي في معاوية و كل طاغية هو النكراء و الشيطنة، حيث تستخدمه الهوى و تربطه بنفسها فيصبح صاحبه كله هوى دون أية نهى، و رسل اللّه و أئمة الهدى هم أفضل اولي النهى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 382 في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 125

فما من عقل مستقيم يتأمل ذلك النظام البارع العظيم متطلعا، ثم لا يطّلع فيه على آيات تدله على الخالق الهادي الحكيم‏ «الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» سبحان الخلاق العظيم! مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى‏ 55.

«كم» في هذه الثلاث تعم كافة الأنسال الإنسانية الحالية الباقية الى يوم الدين، و السابقة المنقرضة.

و هذه الآية تحمل رباطات ثلاث بين الإنسان و مهده المسبّل له في مختلف مراحله، قبل الدنيا و فيها و بعدها، و ما أجمله تعبيرا عبيرا عن مثلث الكيان للإنسان، عبرة للمعتبر، و تبصرة للمتبصّر!.

و هنا «خلقنا» دليل انه ليس من تتمة المقال لموسى، و عل‏ «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ..» ايضا هكذا، فلحدّ «لا ينسى» هي من حوار موسى، ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بن رئاب عن مروان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سألته عن قول اللّه عز و جل: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى‏» قال: نحن و اللّه اولوا النهى، قلت: ما معنى اولي النهي؟ قال: ما اخبر اللّه به رسوله مما يكون بعده من ادعاء أبي فلان الخلافة و القيام بها و الآخر من بعده و ثالث من بعدهما و بني امية فأخبر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و كان كما اخبر اللّه به نبيه و كما اخبر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عليا و كما انتهى إلينا من علي فيما يكون من بعده من الملك في بني امية و غيرهم فهذه الآية التي ذكرها اللّه في الكتاب‏ «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى‏» الذي انتهى إلينا علم ذلك كله فصبرنا لأمر اللّه عز و جل فنحن قوام اللّه على خلقه و خزانه على دينه نخزنه و نستره و نكتم به من عدونا كما كتم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حتى اذن اللّه له في الهجرة و جاهد المشركين فنحن على منهاج رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حتى يأذن لنا في اظهار دينه بالسيف و ندعو الناس اليه فنصيرهم عليه عودا كما صيرهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بدوا» ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 126

الآيات الثلاث الاخرى تلحيقات تكملها في هذه الشرعة الأخرى.

و قد تكون هذه الثلاث في آيتنا تعنيها السجدتان فيما عنت و عنتا فالسجدة الاولى:

اللهم انك منها خلقتنا، و رفع رأسك: و منها أخرجتنا، فقد تعنيهما «مِنْها خَلَقْناكُمْ» و السجدة الثانية: و إليها تعيدنا، و رفع رأسك من الثانية: و منها تخرجنا مرة اخرى» «1».

ثم‏ «مِنْها خَلَقْناكُمْ» تعني تناسل الذرية الى جنب الإنسان الاول، مهما بان البون بين الخلقين من تراب، «وَ فِيها نُعِيدُكُمْ» اعادة ما خلق منها فيها «وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى‏» إخراج لما خلق منها و أعيد فيها، و «كم» في هذه الثلاث تعني جزئي الكيان الانساني جسدا و روحا و هي أحرى ان تعينها «كم» فقد خلقنا بأرواحنا و أجسادنا من الأرض منذ البداية في تناسل الذرية، فالإنسان الأول خلق جسمه من تراب ثم روحه المنفوخ فيه سلالة من الجسم نفسه، ثم الإنسان عبر التناسل مادة ارضية حتى الجنين و من ثم‏ «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» روحه المنفوخ فيه هو إنشاءه خلقا آخر، سلالة من جسمه، و على حد المروي عن أئمتنا هو «جسم رقيق قد البس قالبا كثيفا».

فجسم الإنسان الظاهر و جسمه المثالي، بروحه النباتي و الحيواني و الانساني، انه في هذه الخماسية مخرج من الأرض ثم يعاد فيها ثم يخرج منها مرة أخرى كما الاولى، بالأجزاء الأصيلة التي عاشها طول الحياة و كما يناسب الحياة الأخرى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 382 في العلل باسناده الى احمد بن علي الراهب، قال‏ قال رجل لأمير المؤمنين (عليه السلام) يا ابن عم خير خلق اللّه ما يعني السجدة الأولى فقال:

تأويله اللهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 127

فهنا لك امر محفوظ من كل نفس في هذه المراحل الثلاث، و علّه النطفة التي خلق منها كل نفس بالروح المنفوخ فيها بعد اكتمالها جنينا، فالخارج من الأرض يوم الحشر هو المخلوق منها في البداية، و سائر الاجزاء البدنية بين الخلق و الحشر زيادات لا تعني حشرا و لا يعنيها الحشر، حيث القصد إيصال الجزاء الى الروح ببدنها الذي عاشته طول الحياة، دون الاجزاء الاخرى التي هي اصول لنفوس آخرين ام فروع لكل نفس هي ضيف تأتي و تروح، و الادلة العقلية و النقلية الثابتة كتابا و سنة لا تثبت اكثر من حشر الروح ببدن مّا هو باحرى الجزء الأصيل الذي عاشه طول الحياة بما فيها حياة التكليف.

و هذه عظة و عبرة لاولى النهي و كما

قرأها رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على بنته‏ حين دفنها ثم قال: بسم الله و في سبيل الله و على ملة رسول الله» «1».

وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى‏ 56.

و ترى ما هي‏ «آياتِنا كُلَّها» و لم تبرز في هذا المجال إلا آيتان، ثعبان العصا و اليد البيضاء:

«فَأَلْقى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ. وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ» (26: 33) و هنا لك آيات بجنب آية طه تذكر ما أريه فرعون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 302- اخرج احمد و الحاكم عن أبي امامة قال‏ لما وضعت ام كلثوم بنت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في القبر قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): منها خلقناكم ... بسم الله ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 128

بجميع الآيات‏ «1» و منها آية مضت من طه نفسها «2».

«آياتنا» هنا و في سواها تعني التسع التي أرسل بها موسى الى فرعون و ملإه على طول الخط، لا فحسب في بداية الرسالة: «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى‏ تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ. إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى‏ مَسْحُوراً. قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً» (17: 102) «وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ. فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ» (27: 13).

و اما «كلها» فقد تعني كل التسع المقررة للطاغية، ام انها نماذج من كافة الآيات البصرية التي أعطيها رسل اللّه، مهما اختلفت عنها اشكالها ام توافقت، ام انها مثلثة الآيات، على التوحيد و النبوة و المعاد، عقلية بصيرية و حسية بصرية، ف «كلها» هي الكل الجمعي، دون استغراق الأفراد منها، موزّعة على كافة الرسل.

«فكذب» بها «و ابى» عنها، ناسبا لها الى سحر دونما أية برهنة:

قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى‏ 57 فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ مَكاناً سُوىً‏ 58.

هنا «بسحرك» دليل انه أراه من آيات اللّه، فيهدده:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى‏ بِآياتِنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِها ..» (7: 103) (10: 10) و (11: 12).

(2) و هي‏ «اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي» فانه ذهاب رسالي الى فرعون و ملائه ككل، دون بدايتها حتى تخص بالآيتين النموذجيتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 129

«فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ» و كما في الأعراف: «قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ. وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ. قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ. قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ ..» (111).

«قالَ أَ جِئْتَنا» استفهام انكار بكل استكبار «لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى‏»؟.

«قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ» (10: 78). «فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ» (23: 47).

و «لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا» نموذجة تعني هذه كلها، ان تستلبونا سلطاننا فلنخرج من أرضنا إذ لسنا نعيش تحت سلطتكم و لا ان نبدل ديننا، و ذلك إمحاء لنا عن كياننا، و اجتثاث لجذور حيوياتنا.

«فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ» مماثلة في اصل السحر و لكنا نحن الغالبون:

«لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ» (26: 40) في سحرهم سحره فتطلّب موسى في البداية ان يرسل معه بني إسرائيل، و الطاغية يقتّل أبناءهم و يستحيي نساءهم خوفا من تكاثرهم فتغلّبهم، ثم ظهور آية خارقة بيده، لذلك خاف على ملكه، و هذه الثلاث قاهرة باهرة على فرعون و ملائه.

فهنا الطاغية يتهم موسى سياسيا لإثارة الساسة و الرعية و من يحبون ارض الوطن، و في نفس الوقت يتهمه دينيا «لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا»- و في الغافر- يجمع بينهما: «إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ» (40: 26).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 130

(40: 26).

و هما من أهم ما يهم كل امة، تمسكا بمبدءي العقيدة و القومية، و حين تجتمعان فهنا لك الطامة الكبرى على من يعارضهما، و هكذا يكيد فرعون أمام موسى بمسمع و مرأى حاشيته و شعبه، تفلتا عن برهانه، و تلفتا الى ما يصرفهم عنه علّهم يثبتون‏ «وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ».

ثم و ليعارضه- على زعمه- يتطلب اليه ان يجعل موعدا لمغالبته في سحره!:

«فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً» لمعارضة السحر و مغالبته‏ «لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ» موعدا لا يعذر أحد منا عن حضوره، «مَكاناً سُوىً» وسطا بين الطرفين، سويا دون ارتفاع و لا انخفاض، فان السّوى هي المستوي طرفاه، و هو يعم استواءه في نفسه و بالنسبة للطرفين في المباراة.

و نرى الطاغية في ذلك الكيد الأكيد يستحكم موعده زمانا و مكانا سوى، و لكي يخيّل الى شعبه انه على شي‏ء، و الا فلما ذا أصل الموعد، ثم لماذا التأكد من زمانه و مكانه العام لتكون المظاهرة في مشهد و مسرح عام؟.

انه يستحكمه اعتمادا على شايع قدرته و بالغها عند شعبه، فلأن موسى وليد بينهم فلا بد انه تلميذهم.

و قد كان ذلك باشارة من حاشيته: «قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ» (7: 111).

و هذه طبيعة الحال ممن يعارض البرهان، فليس على موسى ان يتطلب ذلك الذي طلبوه لأنه على حجته الباهرة القاهرة، ثم على استعداد تام ليكرر لهم حجته يوم حشرهم لتتمّ عليهم كلهم، فلذلك يجاوبهم من فوره:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 131

قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى‏ 59.

و قد اختار موسى لتلك المباراة أفضل وقت في اجمع يوم: «يَوْمُ الزِّينَةِ» العيد الشعبي العام حيث الناس فيه يحشرون، اضافة الى نداءه العام ان يجمعوا فيه لهذه المباراة من سحرة و من الناس‏ «فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ» (26: 40).

ثم‏ «وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى» ليكون الوقت ضاحيا في أوضح فترة من فترات النهار و أشدها تجمعا يوم الزينة، لا في الصباح الباكر و الجميع لمّا يغادروا البيوت، و لا في الظهيرة إذ قد يعوقهم الحرّ ام حاجة الغذاء، و لا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع ام من وضوح الرؤية، و انما وسطا بين الظهيرة و المساء. و ذلك مربع‏ «1» من الحائطة الفائقة لتجمّع اكثر عدد ممكن لمسرح المباراة، و ليعلم فرعون و قومه ان موسى احرص منه و أحرى بتلك المباراة، و ان ما عنده أقوى مما عند فرعون من قوة في ذلك الصراع.

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى‏ 60.

«فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ» عن موسى و عن الحق الذي جاء به و عن مجلس المواعدة «فَجَمَعَ كَيْدَهُ» المنتشر بين السحرة و الحاشية الملكية و في نفسه اللئيمة، فما أبقى كيدا الا جمع بعضه الى بعض علّه يتغلب على موسى الذي زعمه ساحرا كسائر السحرة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هو ان الموعد يوم الزينة- و قد دعي السحرة- و دعي معهم الناس- و ان يحشر الناس ضحى، و هذه الزوايا الأربع هي التي تجعل ذلك المجتمع اضخم ما يكون و أهمه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 132

فقد أجمل «كيده» كل قاله و حاله و فعاله في كيده مما أشار به ملائه و أشاروا له، و ما دار بينه و بين السحرة و الحاشية من تحميس و تحريض و تحريص، و وعد بكل ثمين و رخيص، «ثم» بعد ذلك الجمع الجامع الجامع في ظنه «أتى» يوم الموعد بكل خيله و رجله و رجّاله‏ «1» فما هو- اذن- دور موسى في ذلك الجو الكادح الكالح! و ليكون الباطل هو الفالج و الحق هو الفالح.

انه يبدأ قبل كل شي‏ء في هذه المباراة بالعظة الحسنة، المذكرة المحذّرة:

قالَ لَهُمْ مُوسى‏ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى‏ 61.

«قال لهم» و هم فرعون و ملائه و سحرته فإنهم من كيده‏ «2» و ضمير الجمع راجع اليه بكيده الشامل لهم كأصول، ثم سائر الجمع كهوامش الضلالة، و كلهم من المفترين على اللّه كذبا، فرية في اشراكهم باللّه ما لم ينزل به سلطانا، و تسميتهم وحي اللّه أساطير، و آية اللّه سحرا، و رسول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 13: 121 القمي عن الامام الصادق (عليه السلام) في حديث له طويل‏ عرض فيه القصة على طولها و قد مضى شطر منها «فلما ارتفع النهار من ذلك اليوم و جمع فرعون الخلق و السحرة و كانت له قبة طولها في السماء ثمانون ذراعا و قد كانت لبست الحديد الفولاذ و كانت إذا وقعت الشمس عليها لم يقدر احد ان ينظر إليها من لمع الحديد و وهج الشمس ...

(2)

البحار 13: 121 في حديث الإمام الصادق (عليه السلام) .. و جاء فرعون و هامان و قعدا عليها (القبة) ينظران و اقبل موسى ينظر الى السماء فقالت السحرة لفرعون: انا نرى رجلا ينظر الى السماء و لم يبلغ سحرنا السماء و ضمنت السحرة من في الأرض فقالوا لموسى اما ان تلقي و اما ان نكون نحن الملقين ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 133

اللّه ساحرا، و قد اشترك ذلك الجمع كلهم في هذه الافترائات أصولا فيها ام فروعا و هوامش، فالنصح- إذا- يشملهم كلهم، و «ويلكم» كلمة مركبة من «وي- و- لكم» اي تبا لكم و واها و عذابا و آها.

«لا تَفْتَرُوا .. فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ» ان افتريتم على اللّه كذبا دون توبة و لا أوبة، و الإسحات من السحت و هو استئصال الشّعر بحلق، فهو الاستئصال و الإهلاك الساحق الماحق، و «بعذاب» يعم مثلثه، هنا و في البرزخ و الاخرى، و قد شمل فرعون بجنوده في كل زواياه لأنهم كانوا هم الأصلاء في فرية الكذب على اللّه‏ «وَ قَدْ خابَ» و خسر على أية حال «من افترى» على اللّه ام و على خلق اللّه، فالفرية دركات كما التصديق درجات.

و الخيبة و هي عدم الوصول الى الهدف من الفرية، هي عذاب فوق العذاب، فللمفتري إسحات عذاب و خيبة أمل، ظلمات بعضها فوق بعض.

لقد قال موسى كلمته القاطعة القاصعة، فلمست منهم بعض القلوب غير المقلوبة من السحرة فتلجلج في امر موسى، و أخذ المصرون على المباراة يجادلونهم متنازعين:

فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى‏ 62.

و هكذا تنزل الكلمة الصادقة كالقذيفة في معسكر المبطلين فتزعزع نفسياتهم على قدراتهم فتوقع الربكة و اللجلجة في صفوف السحرة المقربين المدربين، فتحوجهم الى إسرار النجوى خوفة من فرعون و موسى!.

و التنازع من النزع و هو جذب شي‏ء من مستقره لينقلع، و النجوى هي المسارّة في امر بكلام و سواه، و إسرارها هنا تعميق في إخفائها كيلا يسمعها موسى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 134

و لقد كان «أمرهم» الذي تنازعوه بينهم امر التصديق و التكذيب لموسى، فطائفة تحنّ الى تصديقه، و اخرى الى تكذيبه، و ثالثة عوان بين ذلك، متجاذبين أمرهم بينهم في سر مستسر، فالاولى لا تجرء على اظهار أمرها تخوفا من فرعون و ملائه و لمّا يظهر امر موسى و يبهر، و حتى يتبلج امره بعد ما تلجلج، فضلا عن ان يجذب المعاندين الى الحق، و الثانية تحاول جذبها و الثالثة الى التكذيب، و بالفعل أصبحت هذه الأقلية الصالحة تحت ضغط الاكثرية الكالحة فسكتوا عما:

قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى‏ 63.

و عله خطاب ذو بعدين من الأكثرية المضللة، لأنفسهم استحكاما لعرى ضلالهم، و للحائرين مزيدا في تحيرهم، سنادا الى أهم الأمور الحيوية لكل امة سياسيا و روحيا، إخراجا من أرضكم، و إذهابا بطريقتكم الروحية المثلى، و كل ذلك بسحر دون أية حقيقة، فهو- اذن- باطل يريد ان يذهب بحقين حقيقين بالبقاء لكل امة.

فإذا هو ساحر فأنتم اولى بالسحر منه، ثم اولى منه بأرضكم و عرضكم، و طريقتكم المثلى التي لا نظير لها، و ذلك اخطر كيد على امة، لتبقى تحت نير الذل و الفرعنة دون ان يؤتى لها مجال التفكير لصالحها يوما مّا! فلقد استحثوا دفائن ثورتهم من فورتهم يدا واحدة ضد من يريد القضاء على بعدي الحياة الراقية! فاليوم هو يوم المعركة الفاصلة بين الحق و الباطل:

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى‏ 64.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 135

اجماع كيد جماعي في صف واحد متراصّ للاستعلاء على من يريد القضاء على السلطة الزمنية و الروحية، و ليس- فقط- من الاكثرية المضللة، بل و من الاقلية المتلجلجة ايضا «وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى‏»! و لإجماع الكيد بعد ان، اوّلهما جمع كافة مكائدهم مع بعض البعض دون فراق، و ثانيهما ان يتشاوروا فيما بينهم في ذلك الكيد المجموع.

فالى ميدان النزال للنضال حتى يعرف الداني من العال، آخذين كل حائطة حاضرة و بائتة:

قالُوا يا مُوسى‏ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى‏ 65.

و هنا عدم البدءة من موسى سياسة لائقة به لابقة في المباراة، فانه مدافع و ليس مهاجما حتى يبدأ، ثم البادئ في الحوار خاسر على أية حال لا سيما إذا لم يكن مؤيدا من عند اللّه، فليخسروا هم بتلك البادئة الخاسرة، فلا يرد عليه ان تقديم الشبهة على الحجة إدخال في اللجة ثم لا يعلم الخروج عنها؟ لأن حجية هذه الحجة لم تكن لتظهر الا بعد ظهور الشبهة، ثم البالغة الدامغة للشبهة!.

ثم هؤلاء المتعودون على اتباع فرعون لم يكونوا لينظروا الى الحجة البادئة بعين الاعتبار لأنهم في انتظار ما أتى به السحرة، و لكنهم بعده يتأكدون من الحجة اللاحقة الماحقة له، فلتكن حجة الرسالة لاحقة دمغا لسحر السحرة.

و علّ خطورة الموقف دفعتهم الى تخييره في الإلقاء، دون إلزام عليه احد الأمرين، ثم تقبّلهم ما اختاره موسى هو من مخلّفات اقتراحهم و اختياره، ثم من غرورهم بعددهم و عددهم و هم بمحضر فرعون و ملائه، و كأنهم يرونهم في‏ «أَوَّلَ مَنْ أَلْقى‏» متقدمين عليه بكل شجاعة و هيمنة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 136

لا يتخوفون عن إلقاءه، و لا يتحرجون دفاعه في إلقاءه! قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى‏ 66.

و «القوا» هنا خطابا لجمع السحرة إلغاء لسحرهم قبل إلقاءهم، فلو لم يطمئن موسى الى غلبه عليهم كان «القوا» منه إلغاء، لإلقاء نفسه بعدهم الى التهلكة، و هذه اولى خطاه توهينا لما يلقون، و تهوينا بإلغائه ما يلقون.

و ترى كيف خيّل الى موسى من سحرهم انها تسعى، و قد آتاه اللّه ما آتى؟ إن «يخيّل» هنا هو طبيعة الحال من سحرهم لكلّ من رأى، خيالا لا يعارض يقينا في بال على أية حال، و ذلك نصيب موسى من سحرهم و لكن لمن سواه‏ «فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ» (7: 116).

ثم «يخيل» المستقبل دون «خيل» الماضي، تقضي على ذلك الخيال ايضا فلا تعني «يخيل» إلا طبيعة الحال من سحرهم لمن يخال دون واقع الخيال لموسى.

ثم السحر من السحارة و هي ما ينزع من السحر- طرف الحلقوم- عند الذبح، فيرمى به، و جعل بناءه بناء النّفاية و السقاطة، فالسحر هو إصابة السحر كسقاطة و نفاية دون واقع، فالساحر كأنه يذبح المسحور و ليس يذبح، و يأخذ عقله و حسه و ليس يأخذ، و انما هو تخييل لا يرجع الى عقل و لا واقع.

فالسحر مهما بلغ من حالة خارقة للعادة، ليس ليأخذ مأخذه في القلوب و العقول، و انما خطفة من عين ام أذن، و هو يبطل بسحر مثله و كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 137

يبطل مثله، و لا يؤثر فيما يؤثر إلا بإذن اللّه: «وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» (2: 102) اللهم إلا في دعوى الرسالة ام معارضة آية الرسالة، فانه اضافة الى القصور الذاتي فيهما يبطله اللّه تعالى عن بكرته لكيلا ينغرّ به ضعفاء العقول، فضلا عن ان يأذن اللّه!.

و تراه كيف يأمرهم بسحرهم و السحر محرم في شرعة اللّه، و لا سيما ذلك المضلّل لعباد اللّه؟.

انه يأمرهم به لكي يغلب الحقّ في صراع الباطل، و لا يظهر له غلب عليه لولا ذلك الصراع! و لكي يدافع عن نفسه تهمة السحر الموجّهة إليه من فرعون و ملائه.

و هنا «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ» و هناك‏ «بِسِحْرٍ عَظِيمٍ» يشيان بعظمة ذلك السحر و ضخامته عددا و عددا حتى ليوجس خيفة في نفس موسى:

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى‏ 67.

و الوجس هو الصوت الخفي، فالإيجاس هو التصويت الخفي، فلو كان جليا لتجلى في صفحات وجهه، و كان محجوجا بسحرهم قبل آيته، فلم تكن إلا «خيفة» خفيفة واجسة طفيفة في قرارة النفس، دون استقرار فيها و لا استغرار لها، و انما هي على غرار ما خيّل اليه.

و يا عظماه من سحرهم و وا عجباه إذ بلغت بهم البراعة في فنهم و اليراعة في سحرهم الى حدّ يوجس في نفسه خيفة موسى، و ما هي النفس البشرية لو انقطعت عنها العصمة الإلهية آنا مّا، خافت عما لا يخاف منها، و قد تكون هذه الوجسة مشيرة الى عظم الموقف و ضعف الواقف في نفسه حتى تدركه العصمة الإلهية بالبشرى، و إيجاس الخوف لا يطارد العلم بانه غالب، و كما يخاف الميت على علم انه لا حراك له و لا ضرر منه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 138

ام قد تكون خيفة موسى من ضلال الناس في هذا المجال،

«لم يوجس موسى خيفة على نفسه اشفق من غلبة الجهال و دول الضلال» «1».

ام الوجستان معنيتان معا و هما ناحيتان منحى براعة الصناعة و سرعتها و هيبتها، فجاءته من ربه البشرى:

قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى‏ 68.

أنت الأعلى في آيتك العظمى، و أنت الأعلى في هدى من اهتدى حيث يتحرى عنها.

«لا تخف»- «إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» فمعك الحق كله و معهم الباطل كله، معك ربك و معهم الطاغية، معك العقيدة و معهم الحرفة بغية اجر المباراة، أنت متصل بالقوة الكبرى و موصول النياط و النيّات بالرب الأعلى، و هم يتصلون بالأرذل الأدنى، «لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى‏».

«لا تخف» هنا كما «لا تخف» عند ما «فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى‏» فانه لم يكن عشيرا لخارقة قبل ان يرى ما رأى من آيات ربه الكبرى، ام سحر خيّل اليه بحبالهم و عصيهم انها تسعى، فكان من طبيعة الحال خوفه، و لكنه أمام الآية الالهية ظاهر «قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ» «فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى‏ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» (27: 10).

فهنا خوف ظاهر يوليه مدبرا عن آية باهرة، و لكن هناك إيجاس خيفة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام امير المؤمنين علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 139

لأنها خارقة خارفة، و الخوف هو طبيعة الحال مما لم يأنسه الإنسان على اية حال، و لكنه لما طمأنه ربه- و قبل ان يلقي- أخذ يعظهم و ينبئهم بغلبة عليهم بعد قليل‏ «قالَ مُوسى‏ ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» (10: 83). ثم حقق ما أنبأ و أوعد بأمر اللّه:

وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى‏ 69.

و هنا بصورة قاطعة إفلاج الساحر رغم محاولته في إفلاحه، و هناك‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» مما يبرهن ان الساحر المتحدي آيات الرسالة فالج غير فالح حيث أتى، و بأية قوة و اية كيفية كانت، و على ضوءه ندرس ان الآية المعجزة غالبة على اية حال على السحر أيا كان و حيث أتى.

و هكذا نعالج بأس كل ساحر بسحره بقراءة آيات من الذكر الحكيم على موضع السحر بنية صادقة فيبطل.

و

قد يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «إذا أخذتم السارح فاقتلوه ثم قرأ: «وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى‏»: قال لا يأمن حيث وجد» «1»

و القدر المعلوم منه من يعارض بسحره آية النبوة.

و انما «ما فِي يَمِينِكَ» دون «عصاك» على طوله و اجمالها، و اختصارها و صراحها؟ عساه ينتبه مرة اخرى ان ليست عصاه بما هي عصاه تلقف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 33- اخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جندب بن عبد اللّه البجلي قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 140

ما صنعوا، تخلية لها عن اعتماده عليها، و تحلية لها بتجردها عن نسبتها اليه، و ان اللّه هو الذي يحولها كما يريد، و هو الذي يعيدها سيرتها الاولى كما خلقها.

ثم و «تَلْقَفْ ما صَنَعُوا» كنتيجة حاسمة لتحولها ثعبانا مبينا يلقف كيد ساحر: «وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ» (7: 119).

فبالفعل ألقى موسى عصاه و وقعت المفاجأة الفاجعة الكبرى، فحولت كامل مشاعرهم لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه، و لا يكفي النطق للإفضاء و الإفصاح به، فانهارت كل طاقاتهم النفسية فوقعوا على الأرض سجّدا و كأنها دون اختيار، حيث الساحر اعرف بسحره من غيره، فأعرف بالآية الربانية التي تختلف تماما عن كل انواع السحر «1».

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى‏ 70.

و هنا «فألقي» المجهول يصوّر ضخامة الموقف، بمدى تأثير الآية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 13: 121 في حديث الامام الصادق (عليه السلام) ... فالقى موسى عصاه فذابت في الأرض مثل الرصاص ثم طلع رأسها و فتحت فاها و وضعت شدقها العليا على رأس قبة فرعون ثم دارت و التقمت عصي السحرة و حبالها و غلب كلهم و انهزم الناس حين رأوها و عظمها و هو لها مما لم تر العين و لا وصف الواصفون مثله قبل فقتل في الهزيمة من وطء الناس بعضهم بعضا عشرة آلاف رجل و امرأة و صبي و دارت على قبة فرعون قال (عليه السلام) فأحدث فرعون و هامان في ثيابهما و شاب رأسهما و غشي عليهما من الفزع و مر موسى في الهزيمة مع الناس فناداه اللّه: خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى‏» فرجع موسى و لف على يده عباءة كانت عليه ثم ادخل يده في فمها فإذا هي عصا كما كانت ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 141

الإلهية في نفوس السحرة لحد لم يتمالكوا أنفسهم عن سجدة كأنها اتوماتيكية، و تراهم كيف ألقوا سجدا بعد ما ألقى موسى عصاه، حيث ألغوا ما ألقوا؟

لأنهم رأوها «تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ» (7: 117) و اللقف هو تناول بحذق، و قد تناول ثعبان العصا و تلقف كلّ ما افكوا.

فعصى صغيرة تتحول ثعبانا عظيما فتلقف كل عصيّهم و حبالهم من ناحية، و لها ما للثعبان من أعضاء خلاف حبالهم و عصيتهم التي كان يخيل اليه من سحرهم- فقط- انها تسعى دون أعضاء، من اخرى، و عدم رجعها ما لقفته من ثالثة، و عودها عصى صغيرة كما كانت من رابعة،- و واحدة منها يستحيل ان تتم بأيّة حيلة ساحرة- كل ذلك جعل السحرة قاطعين كوضح النهار أنها آية الهية قاهرة و ليست حيلة ساحرة!.

و إنها اللمسة المفاجأة القوية تصادف العصب الحساس فينتفض كيان الإنسان كله، كما تصادف الذرة فتفجرها و تشرق النور عن ظلامها، و قد تحولت السحرة كلهم من ظلام الشرك الى نور التوحيد بكلمة واحدة ساجدين‏ «قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى‏»! و لماذا «بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى‏» دون «ربنا» او «رب العالمين»؟ حتى يميزوه تعالى عن أرباب اخرى. ف «ربنا» و «رب العالمين» قد يخيل منه انه الطاغية لمكان دعواه‏ «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» و لكن موسى و هارون الناكرين لكل ربوبية الا اللّه، كان التصريح بهما في ذلك الموقف صراحا لتلك الربوبية الصادقة الماحقة لسائر الربوبيات، مهما بدلوا الصيغة في حوارهم مع الطاغية: «قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ» (26: 50). اعتمادا على تلك السابقة السابغة الصارحة الصارفة «بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى‏» و قد يتقدم هارون هنا على موسى لكي تحسم مادة ربوبية الطاغية لموسى‏ «أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً» فانه موسى دون هارون،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 142

فليقدّم عليه هارون حسما لذلك التخيل و استأصالا له عن بكرته.

هنا «السحرة»- جمعا محلى باللّام الدال على الاستغراق-، ألقوا سجدا مؤمنين باللّه و هم اليه منقلبون، و في يونس‏ «فَما آمَنَ لِمُوسى‏ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى‏ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ» (83) و السحرة جم غفير و هم لم يكونوا من قوم موسى فكيف التوفيق؟.

علّ هذه القلة المؤمنة من قومه كانت قبل ان يلقي عصاه- و قد القوا حبالهم و عصيهم- و بعد عظته لهم: «قالَ مُوسى‏ ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ‏ ... فَما آمَنَ لِمُوسى‏ ..».

و لكنما السحرة آمنوا به بعد ما القى عصاه صامدين غير متخوفين كما هو صراح حوارهم مع الطاغية حين أخذ يهددهم!:

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى‏ 71.

ذلك! و أنّى للطغاة أن يدركوا الإسلام و يميزوه عن الاستسلام، أنّى لهم ان يدركوا كيف تتقلب القلوب بأمر من مقلب القلوب، و حتى قلب الطاغية حيث أحب عدوه موسى و رباه في حجره عمرا دون ان يعرفه بعدائه.

و هكذا يخيّل هنا الى الطاغية ان الايمان باللّه هو- من ضمن سائر الاستسلامات لأمره- لا بد و ان يكون باذنه، و كأن القلوب من ممتلكاته كما القوالب ضمن ما سيطر عليه بالسيف و النار، خلطا بين القوالب و القلوب و هي لا تقلب بإكراه و لا يغلب عليها بإكراه‏ «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 143

ثم و ركيزة الايمان في القلوب درجات، فقد تضعف ام تنمحي بما يتغلب عليها تسويلا، ام تبقى و لكن صاحبها يتظاهر بخلافها حفاظا على حياته‏ «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ» و قد تركز لحد تحلّق على كل كيان المؤمن، و للحفاظ على سيادة الايمان أمام الطاغية، و هدي المستضعفين المستغلّين الى الايمان، لا يخافون اي تحديد او تهديد و كما نراه من سحرة فرعون، فان موقفهم الحاسم كان يتطلب هكذا صمود في ظاهر الايمان كما في باطنه، فما قيمة ايمان في الباطن بكفر يتّقى به في الظاهر، حيث يغري المتحرين عن الهدى و يبقي الباغين للردى، و ليس‏ «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ» إلا جوّالا يضر بكتلة الايمان، و لا بالضالين المتقبلين له بحجة ظاهرة باهرة.

و نرى الطاغية هنا و قد خسر السحرة و هم كل من يملكهم من الحجة في تلك المباراة، نراه يتهمهم كما اتهم موسى، حسما للموقف المتزعزع بين الحاضرين: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ» فهنا لك تواطؤ بينكم و مؤامرة كانت خفية، و قد ظهرت في ذلك المسرح الصريح.

و قد صبغ الموقف بصبغة سياسية اضافة الى الروحية، ان السحرة احتفوا حول كبير لهم هو موسى و كما في الأعراف‏ «قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ‏ «لَأُقَطِّعَنَ‏ .. قالُوا إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ» (125).

و هذه هي دعاية متعودة بين فراعنة التاريخ امام الرسل و المؤمنين، صدا لزعزعات المستضعفين، تزيينا لهم سلطاتهم الروحية و الزمنية، و تهديدا بان في تقبّل الدعوة الرسالية زوالها و هي حياة الرعية، فالقائد يعارض تلك الدعوات حفاظا على صالح الرعية روحيا و زمنيا.

و ان في ذلك تعمية منهم في بعدين بعيدين، أولاهما هي فاسد السلطة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 144

الروحية الحاضرة، و أخراها هي صالح الاخرى الزمنية المحتضرة، إظهارا للحق بمظهر الباطل و الباطل بمظهر الحق «فهنالك استحوذ الشيطان على أولياءه و نجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

و لما يرى الطاغية ان هذه الدعاية و الفرية الماكرة لا تؤثر في صميم ايمانهم، و لا يزعزع من مكين إيقانهم، انتقل منها الى تهديد بنوع آخر: «فلأقطعن» استعلاء بالقوة الغاشمة الوحشية التي تستعمل مع الوحوش، دون تمييز بين انسان يقرع بالحجة و حيوان يقرع بالنائبة.

«فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ» عذابا معمولا متداولا بحق أفسد المفسدين، ثم‏ «وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ» عذابا فوق العذاب لقمة الإفساد، و لكي ينظر الناظرون فيعتبروا، و ينذر المنذرون فلا يتبعوهم، و من ثم‏ «وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى‏»؟ هل هو موسى بما يهددكم بعذاب الأخرى، ام انا المعذب لكم هكذا في الاولى، و اين غائب من حاضر، و موعود من واقع؟ ثم «و أبقى» سلطة، هل ان موسى هو الأبقى و هو في يدي و تحت سلطتي، ام انا الابقى، فأين إله موسى حتى يعذبني و ملئي حتى لا نبقى؟ و اين هو من هذا المسرح حتى يبقى موسى فلا نبقى؟.

فلقد هددهم فرعون بما هدد فما أبقى، و لكنه ما يصنع التهديد- أيا كان- بحديد الايمان و شديده بأشدّه، اللمسة الإيمانية التي وصلت إلى أعماقهم، و اندغمت في ذواتهم، فلا تزهق مهما أزهقت أرواحهم، حيث آثروها على الحياة الدنيا بحذافيرها، فلا يخافون إذا أظافيرها بحذافيرها:

قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى‏ ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 145

أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا 72 إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ 73.

«قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ» (26: 51)- «قالُوا إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ. وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ» (7: 126).

هنا نرى قمة الصمود على ضوء الايمان المحلّق على كل جنباتهم الحيوية، فلا يؤثرون عليه امرا، و لا يؤثّر فيهم دونه امر مهما كان إمرا.

ثم‏ «إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ» قد تلمح بأنهم كانوا من قبل موحدين، ام انه انقلاب بحكم الفطرة و العقل و الآية البينة، ثم‏ «وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ» تصريحة انهم ما سحروا هناك مباراتا بل مجاراتا للطاغية اكراها منه عليه، و عله بعد الانقلاب الاول لعصى موسى ثعبانا مبينا لدى فرعون، و بعد ما و عظهم‏ «فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى‏» ثم اكرههم فرعون على سحرهم و أن‏ «قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ ..» فلذلك تادّبوا و تليّنوا مع موسى في المباراة.

و لذلك أصبحوا هنا «أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ» صمودا و زمنا، و من صمودهم إحالتهم إيثار الطاغية «قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى‏ ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ» فطرية و عقلية و حسية و علمية أما هيه و على‏ «الَّذِي فَطَرَنا»، أم قسما بالذي فطرنا، و هما معا معنيّان، و أنت كمثلنا مفطور له، و قد فطرنا على فطرة التوحيد، ففطر الخلق من ناحية، و فطرة التوحيد المندغمة في الخلق من أخرى، آيتان بينتان بجنب هذه الآية العظمى انه هو اللّه ربنا لا إله إلا هو «فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ» علينا كما تهددنا «إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 146

قضاء مقصورا بها، محصورا فيها، و ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع قليل.

«مِنَ الْبَيِّناتِ» هنا تعم الأنفسية إضافة إلى الآفاقية، و نفس قصة العصا بيّنات، انقلابا و لقفا و عودة إلى سيرتها الأولى دون إعادة لما لقفت!.

و ترى كيف‏ «تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا» و ليست قضاءه الا فيها على من فيها ام لهم؟ علّها لأنها مفعول به، و قضاء هذه الحياة الدنيا هي إزالتها، فقصارى قضاءك هنا قضاءها، حياتنا كما حياتك، و اما الحياة الاخرة و هي العليا فليس لك قضاءها، فأنت تهددنا بقضاء هذه الحياة و هي الدنيا، و شرعة اللّه تهددنا بالآخرة و هي الحياة العليا، و أنت شر و ادنى و أفنى‏ «وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏».

ثم و «ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ» قد تعني تعلمه و تعليمه و إعماله من قبل و في هذه المباراة، و التماس الغفر عن الخطايا ليس الا في المقصرة العامدة، ام و المكره عليها فيما يمكن التخلص عنها كهذه التي ارتكبوها و ارتبكوا فيها، و الآن هم يستغفرون اللّه عنها في ذلك الموقف الحاسم، القاصم ظهر الطاغية، الجاسم الباسم ظهر موسى و الذين معه، و هذه هي من قمم التوبة العليا، انقلابا كليا الى اللّه سنادا الى آياته الباهرة و تبيينا لها بين الجموع المحتشدة الحاضرة، ملتمسين من اللّه ان يفرغ عليهم صبرا امام الطاغية، و ان يتوفاهم مسلمين، تخليصا لايمانهم عن هذه اليد الأثيمة اللئيمة، مهما قطعت أيديهم و أرجلهم من خلاف و صلبوا في جذوع النخل، «إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا- وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏»! انه «خير» في ذاته و صفاته و أفعاله «و أبقى» فيها ثوابا و عقابا، و ذلك رد على قولة الطاغية «وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى‏».

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى‏ 74.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 147

و تراها و اللتين بعدها هي تتمة المقال للسحرة؟ و كيف يكون لجديد الايمان و الناشئ على الكفر هذه المعرفة السليمة عن مستقبل المجرم و المؤمن! فهي إذا بيان رباني لقضية الموقف، ام هم درسوا الشرعة الإلهية من ذي قبل كما تلمحناها من ذي قبل فنقلوا ما قالوه عن لسان موسى.

«و مجرما» هنا تعني اجرام ثمرة الحياة قبل إيناعها، إجراما عقيديا و اجراما علميا و أخلاقيا و عمليا، فرديا و جماعيا، نكرانا لخالق الحياة ام إشراكا به، و تكذيبا بالحياة الأخرى و رسالة السماء، فلا يعني فاعل الصغيرة و لا الكبيرة فانه لا يخلد في النار و «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ‏ .. وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ» (43: 77).

«إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً» ان يموت بحالة الإجرام دون توبة صالحة «فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ» حيث الحياة الإجرامية حياة جهنمية، ثم و «يأت ربه» دون «اللّه» هو إتيان الى يوم الرب بربوبية الجزاء، كما كان آتيا اليه يوم الدنيا بربوبيته التكليف، فليس إذا إتيان المجرم الى مكان للرب، و انما الى مكانة الربوبية المناسبة ليوم الجزاء- «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» صادرون منه و راجعون اليه.

ثم‏ «لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى‏» مواصفة لأبدية الخلود، و قد يتمسك بها في لا نهائيتها الحقيقية، و لكن التعبير الصالح عنها «لا يموت» دون تقيد ب «فيها»، حيث الموت فيها يعني بقاء جهنم بعد موت من فيها، و الآية تنفيها، و اما الموت معها إذ لا نار و لا اهل نار، فالآية لا تنفيها، ثم تثبتها ادلة اخرى كما فصلناها في مواضعها الأحرى‏ «1»، و من أهل النار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في سورة الأسرى و النباء و اضرابهما حيث فصلنا البحث عن استحالة الابدية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 148

من يخرج منها و يدخل الجنة، فلا يموت ابدا لا في النار و لا في الجنة فالآية- إذا- تشملهم.

و قد تخص‏ «لا يَمُوتُ فِيها» المؤبدين فيها، و اما الخارجون عنها فقد يموتون فيها ثم يحيون للجنة «1» و لكنه احتمال لا نصير له قاطعا، و الموت في الخبر مؤول الى موت الاجزاء البدنية الجهنمية.

اجل‏ «لا يَمُوتُ فِيها» تخلصا عن عذابها و هي باقية، «وَ لا يَحْيى‏» في «لا يموت» حياة لها حظوتها، بل هي موتات متواترة دون فصال، حيث عوامل الموت حاصلة، و الحياة معها ماثلة، و ذلك أشد العذاب ان يوازي عمر المعذب فلا هو ميت فيستريح و لا هو حي فيتمتع، انما هو العذاب الواصب ما هو حي و ما دام العذاب، ثم لا نار و لا اهل نار.

وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى‏ 75.

فهنا لك أشد العذاب للآبدين في النار، و هنا الدرجات العلى للمؤمن الذي عمل الصالحات، و هذه تخص السابقين و المقربين و قسما من اصحاب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحقيقية للعذاب. و موت اهل النار في محتملات اربع: موتهم فيها قيل فناءها، ام موتهم بعد فناءها، ام بقاءهم فيها دون زوال إطلاقا، ام موتهم معها فناء لهما، و الآية انما تنفي الاولى، و الثانية تنفيها ابدية الخلود، و الثالثة منفية بادلتها، فالرابعة هي الصالحة بادلتها.

(1).

الدر المنثور 4: 303 اخرج مسلم و احمد و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري‏ ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) خطب فأتى على هذه الآية «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ..» فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): اما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها و لا يحيون و اما الذين ليسوا بأهلها فان النار تميتهم اماتة ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة او الحيوان فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السيل».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 149

اليمين، فان لهم خالص الرحمة في الأخرى‏ «فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى‏».

و بين الفريقين طائفة اخرى من اصحاب اليمين لهم درجات عالية ام متوسطة ام دانية حسب درجات الايمان و الصالحات، و هم لا يدخلون النار.

و طوائف من اصحاب الشمال يدخلون النار ثم يخرجون عنها قبل فناء النار، طال مكوثهم فيها ام قصر.

و تلك الدرجات العلى، الشاملة حظوة الروح و الجسم معا حيث‏ «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ». هي:

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى‏ 76.

و العدن هي الاستقرار، و الحياة المطلقة دون ممات ام خروج هي قضية فضل اللّه، كما الفناء مع فناء النار للآبدين في النار هو قضية عدل اللّه، «و ذلك» البعيد المدى و العظيم المثوى‏ «جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى» قلبا و قالبا، ايمانا و عملا صالحا.

و هذه من المشاهد القليلة النظير في تاريخ الرسالات حيث تعلن في إذاعة قرآنية مدى حرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض و سلطانها، و انتصار الحق و الايمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة العقيدة.

[سورة طه (20): الآيات 77 الى 98]

وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى‏ (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (78) وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى‏ (79) يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ (80) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى‏ (81)

وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى‏ (82) وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى‏ (83) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى‏ أَثَرِي وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى‏ (84) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسى‏ إِلى‏ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86)

قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى‏ فَنَسِيَ (88) أَ فَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً (89) وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (90) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى‏ (91)

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (95) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)

قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انْظُرْ إِلى‏ إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (97) إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً (98)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 152

هنا يطوي السياق طيا عن كل ما حصل بعد هذه المواجهة من فرعون و ملئه مع موسى و ملئه، قفزة الى مسرح الانتصار الأخير بعد الاول و ليعتبر اولوا الألباب، و قد نتلمّح كصراح من آيات اخرى للقصة ان لم يكن وحي الإسراء دون فصل عن ذلك المسرح، و ان هناك ردحا من الزمن بينه و بين غرق فرعون و ملئه‏ «1» عاشه موسى و المؤمنون به في الجو الفرعوني، حتى قضى موسى ما حمّل‏ «فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ ..» (27: 13) و فرعون يحتال حيلا لتشويه السمعة الرسالية الموسوية: «وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ» (28: 38).

و موسى يؤمر ان يتبوأ لقومه بيوتا: «وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (10: 87).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 13: 128 عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: املى اللّه عز و جل لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم اخذه اللّه نكال الآخرة و الاولى و كان بين ان قال اللّه عز و جل لموسى و هارون: قد أجيبت دعوتكما و بين ان عرفه اللّه الاجابة أربعين سنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 153

و ذلك هو قضية الحال من تلك الآية الالهية في ذلك الحشد العظيم، و ما ركزت في قلوب من آثار، فلا يسطع فرعون ان يقتل موسى و من معه لتثاقل الجوّ و تعاضله إذ كانوا يمنعونه رغم همّه: «وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى‏ وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ» (40: 36).

مهما كان هناك مرتزقة من ملئه يشجعونه على قتله: «وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى‏ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ» (7: 127).

فلما قضى موسى ما عليه من آيات بينات، و تصبّر ما كان له مجال على أية حال، و وصل امره الى ملاحقة فرعونية شاملة حاسمة للدعوة و الداعية، أتى امر اللّه:

وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى‏ 77.

و وحي الإسراء هكذا يوحي بمدى الملاحقة الفرعونية بعد ذلك المسرح الصراح للحق في صراع الباطل، و «بعبادي» مما يلمح بإيمان من آمن من السحرة كما لمسناه، أمّن سواهم كما هو قضية الموقف، فلا تعني «عبادي» فقط بني إسرائيل مع ما لهم من تخلفات عن توحيد اللّه و عن شرعة اللّه، فهؤلاء السحرة هم أحق منهم و أحرى بهذه الصيغة السائغة للصالحين، و كأضرابهم في بني إسرائيل مهما كانوا قلة، و منهم من هم أحرى من السحرة في «عبادي» ثم الثلة الباقية منهم تشملهم «عبادي» قضية كونهم موحدين مهما ضعفوا، و انهم كانوا يستضعفون، و اللّه يضيفهم الى نفسه تحنّنا عليهم و ترحما.

و علّ القدر المعلوم هنا من «عبادي» هم بنو إسرائيل حيث النص‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 154

لا يذكر السحرة من هذا المسرح الى آخر المطاف، فلعلهم قتلوا كما أوعدهم الطاغية، ام و لأقل تقدير سجنوا ام حوصروا كيلا يلحقوا بموسى، فضلا عمن سواهم من القبط الذين آمنوا هناك.

«أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي» و هو سري الليل و سيره: «فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» (44: 23) فسرى الليل سرّ يخفى على الطاغية.

فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا: «أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» (26: 63).

و اليبس ما كانت فيه رطوبة ثم زالت او ماء فذهب، فقد انفلق البحر و أصبح طريقا يبسا «لا تَخافُ دَرَكاً» من الطاغية «وَ لا تَخْشى‏» غرقا في البحر.

و هنا «طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً» بصيغة الإفراد قد تطارد الرواية القائلة انه ضرب في البحر اثني عشر طريقا حسب اقتراح الأسباط الإثني عشر، ام تعني «طريقا» جنسه المناسب لعديده، و لا دليل عليه و لا هو الأظهر منه او الظاهر بل‏ «فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» (26: 64) تلمح باهرة لوحدة الطريق.

ذلك! إضافة الى ان في اتباع الحق أهوائهم، و لا سيما هذه المفرقة بينهم و هم بحاجة الى توحيد الكلمة على كلمة التوحيد، ان في ذلك فسادا لهم و كسادا للحق المرتجى منهم على ضوء هذه الرسالة القدسية الماحقة لمختلف الأهواء، الساحقة لمختلف الآلهة!.

و من ثم فانقسامهم الى اقسامهم الاثني عشر ليختص كل بكلّ، هذا يتطلب فرصة، و قضية الفرار و لا سيما بعد ما ترائى الجمعان، هي التسرع دون اي لبث لأيّة مهمة او قرار، فحتى ان كانوا متطلبين ذلك التفرق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 155

إشباعا لتفاصل الأسباط، لم يكونوا يتطلبوه و هم في خطر الإدراك و كما قالوا «إِنَّا لَمُدْرَكُونَ»! فهنا نقطع ان «طريقا» هي واحدة، و الرواية هي من المختلقات الاسرائيلية.

و هذه خارقة إلهية اخرى تظهر من عصا موسى، فيها نجاة بني إسرائيل و غرق فرعون بجنوده:

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ‏ 78.

التبعية هي اللحوق و المتابعة، و الإتباع هو الملاحقة، فقد لاحقهم فرعون بجنوده ليأخذهم، و لكنه متى؟ «فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى‏ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ، وَ أَنْجَيْنا مُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (26: 67).

«فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ» غرقا شاملا «ما غَشِيَهُمْ» منه، و ما أجمله اجمالا عن غرقهم بصورة مهينة و كأنهم غثاء «فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ ...» (28: 40).

وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى‏ 79.

و من إضلاله قوله لهم‏ «وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ» (40: 29) حيث صوّر لهم ضلالة هدى، و هدى موسى ضلالا، أضلهم على طول الخط في سلطته الجبارة و الى غرقهم، و علّ منه ما

يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ان قال: من قوله لعنه اللّه لجنوده:.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 156

«ترون البحر قد يبس من فرقي فصدقوه لما رأوا ذلك» «1».

و بطبيعة الحال لم يكن غرقهم أجمعين الا بعد اقتحامهم في البحر أجمعين، نزولا الى الطريق اليبس، إذ لو رجع البحر حين نزلوا الى ما كان لم يلحق اخرهم أولهم، و انما مكروا ببقاء الطريق اليبس حتى آخر نفر منهم ثم أطبق عليهم دون إبقاء، بعد ما نجى موسى و من معه: «وَ أَنْجَيْنا مُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ»- ف «ثم» هنا تؤخر غرقهم عن نجاة موسى و من معه.

و يا لها من معركة صاخبة بين كتلتي الايمان و الكفر، فالأولون يملكون كافة الطاقات الروحية، و الآخرون لهم طاقات مادية، فلم تكن الطاقتان متكافئتين في الواقع المادي، فلا سبيل الى خوض المعركة ماديا حيث تكلّ الطاقة الروحية أمام من لا أرواح لهم إنسانية.

فهنالك تتولى يد القدرة الإلهية إدارة المعركة، بعد ان اكتملت حقيقة الايمان و التصبر عليه في نفوس نفيسة لا تملك قوة سواها، فترفع راية الحق مرفرفة عالية، و تنكّس راية الباطل مخففة خاوية، و ليعلم الذين آمنوا ان اللّه هو ناصرهم في حاضرهم كما في مستقبلهم: «إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا» فقد ناسب الجو هنا التذكير بهامة النعم التي أنعم اللّه بها على بني إسرائيل، و ما واجهوها بها من تخلّف و نكران و كفران لأنعم اللّه، ما يوطئ الرؤس لاصقة بالأرض تخجلا لو كانت لهم رؤس انسانية!:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 385 في كتاب سعد السعود عن ابن عباس ان جبرئيل قال لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)- و نقل حديثا طويلا في حال فرعون و قومه و

فيه‏ «و انما قال لقومه‏ «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» حين انتهى فرآه قد يبست فيه الطريق فقال لقومه:

ترون البحر ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 157

يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ 80 كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى‏ 81 وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى‏ 82.

عرض لبعض النعم التي أنعم اللّه عليهم، سلبيا: «قد انجناكم من عدوكم» من سلطته الزمنية و الروحية الطاغية حتى صلح الظرف لا يجاب السلطة الشرعية فإيجابا: «وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ» اضافة الى منن مادية: «وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏» و متى؟ حين كنتم تتيحون في الأرض أربعين سنة في صحراء قاحلة جرداء، و علهما من الغذاء و سلوى الأمن كما فصلناهما في البقرة.

قائلين لكم‏ «كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ»: فيما رزقناكم طغيانا في نعم اللّه، ابتغاء له من حرام، ام صرفا في حرام من سرف أو أيا كان، ام نكرانا فكفران كذلك‏ «وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ» اللّه، في ألوهيته ان تشركوا به ام تنكروه، «فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى‏» في هوّات رغم ماله من قوات، و لقد هوى فرعون أمامكم، هويّا عن عرشه إلى فرشه ثم هوى إلى الماء و منه إلى جهنم و بئس المهاد .. و الهوي يقابل الطغيان و هو من خلفياته طال أم قصر، قل أو كثر.

و ترى ماذا يعني غضب اللّه و هو تغير الحال و اللّه لا يتغير من حال الى حال بل ليست له حال على أية حال ف «لا يتغير بانغيار المخلوقين»؟

انه من اللّه العقاب، حيث الصفات و الأفعال المتشابهة المنسوبة الى اللّه تجرّد عما لا يناسب ساحة الالوهية، إذا فغضب اللّه عذابه كما رضوانه ثوابه و

«من زعم ان الله عز و جل زال من شي‏ء الى شي‏ء فقد وصفه صفة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 158

مخلوق، ان الله عز و جل لا يستفزه شي‏ء و لا يغيره» «1».

و إذا ابتليتم بذنب من اشراك باللّه ام أيّة كبيرة عقائدية او عملية «وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ ...».

هنا «وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ» و في البقرة: «وَ إِذْ واعَدْنا مُوسى‏ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ. ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (52) و في الأعراف: وَ واعَدْنا مُوسى‏ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قالَ مُوسى‏ لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» (142).

أ ترى هذه الثلاث تحمل مواعدة واحدة جامعة مرة كما هنا، و مفردة اخرى كما في هاتين؟.

كأنها هي! حيث الأربعون هي الثلاثون المتمّمة بعشر، أم الأربعون تجمع المواعدتين، الثلاثين الحاضرة الظاهرة، و العشر المتمّمة لها بعدها ابتلاء لبني إسرائيل، إلا انها لم تكن ظاهرة من ذي بدء.

و هذه المواعدة و ان كانت تعم بني إسرائيل، و لكنما موسى (عليه السلام) هو المحور الأصيل فيها، فعلّه لذلك «وعدنا موسى ثلاثين- او- أربعين ليلة» ثم هنا «وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ» و هو الجانب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 386 في كتاب التوحيد باسناده الى حمزة بن الربيع عمن ذكره قال‏ كنت في مجلس أبي جعفر (عليه السلام) إذ دخل عليه عمرو بن عبيد فقال له جعلت فداك قول اللّه تبارك و تعالى: وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى‏» ما ذلك الغضب؟ فقال ابو جعفر (عليه السلام) هو العقاب يا عمرو انه من زعم ...

و

فيه عن الاحتجاج عنه (عليه السلام) مثله و فيه: من ظن ان اللّه يغيره شي‏ء فقد كفر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 159

الأيمن حيث فيه يمين الوحي و يمنه. «واعدناكم» لنزول ألواح التوراة الحامل لهذه الشرعة الإلهية.

«وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى‏» علاج حاسم ذو قواعد اربع بالنسبة لكل عصيان او طغيان، و منه الإشراك باللّه و كما تطلبوه حين جاوزوا البحر: «وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى‏ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى‏ أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (7: 138)، و من ثم توغّلوه في غياب موسى، مهما كان قتل أنفسهم شريطة التوبة: «وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى‏ بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (2: 54).

و التوبة في هذه الأربع هي الخطوة الاولى الى المغفرة، و ليست هي لفظة تقال، انما هي عزيمة في القلب توبة الى اللّه في ترك الحوبة، و من المعصية الى الطاعة، و من طاعة الشيطان الى طاعة الرحمن.

ثم الخطوة التالية لها «و آمن» حيث العصيان يضر بالايمان او يمحيه، فليرجع بالتوبة الى ما كان من الايمان، فلا يكفي الإصلاح عمليا ما لم ينبع من ايمان.

ثم الثالثة «وَ عَمِلَ صالِحاً» حيث الايمان دون العمل الصالح لا يفيد تلك الفائدة المترقبة، فكما ان العاصي عصى في قلبه و بقالبه، فليؤمن بقلبه و قالبه، و «صالحا» منكّرا هو الذي يصلح ما أفسده و يزيله الى صالح لحظيرة الايمان و حضرة الرحمان.

ثم الرابعة و الاخيرة في هذا المسرح‏ «ثُمَّ اهْتَدى‏» أ تراه لم يهتد بعد بهذه الثلاثة، و كلّ من بنود الاهتداء؟ اجل، و لكنما المعني من‏ «ثُمَّ اهْتَدى‏» بعدها، هدى بعد هدى، فلا تكفي للمغفرة الشاملة الكاملة ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 160

يهتدي عن خصوص ما ضل، و له ضلالات اخرى غيرها، قبل التوبة و بعدها، فلا تضمن هذه التوبة الثلاثية إلّا خصوص ما تاب عنها، و اما إذا ما «اهتدى» هدى عن كل ضلال «فاني لغفار» غفرانا مؤكدا بالغا ذروته مبالغا، يشمل كل ما يتطلب الغفران، غفرا عما كان إمحاء له، ام عما يريد ليحصل صدا عنه، فهي إذا مغفرة رافعة و دافعة، تجعل المغفور له في هدى صالحة غير كالحة.

و قد تعني «ثم اهدى» مع ما عنت، الاهتداء الى اللّه بالسبل الى اللّه، فما قيمة توبة و ايمان و عمل صالح دون وسيط الوحي، و هو الرسول أولا و من ثم الأئمة من آل الرسول الذين يحملون كل ما حمله عن اللّه‏ «1».

وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى‏ 83 قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى‏ أَثَرِي وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى‏ 84.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 387 في امالي الصدوق باسناده الى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حديث طويل و فيه يقول لعلي (عليه السلام) و لقد ضل من ضل عنك و لن يهتدي الى اللّه من لم يهتد إليك و الى ولايتك و هو قول ربي عز و جل‏ «وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى‏».

و

فيه عن اصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه قال: ان اللّه تبارك و تعالى لا يقبل الا العمل الصالح و لا يقبل اللّه الا الوفاء بالشروط و العهود فمن و في للّه عز و جل بشرطه و استعمل ما وصف في عهده حال ما عنده و استكمل وعده ان اللّه تبارك و تعالى اخبر العباد بطرق الهدى و شرع لهم فيها المنار و أخبرهم كيف يسلكون فقال:

و اني لغفار ... و قال: انما يتقبل اللّه من المتقين- فمن اتقى اللّه فيما امره لقى اللّه مؤمنا بما جاء به محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

و

فيه عن تفسير القمي عن الحارث بن عمر عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال: الا ترى كيف اشترط و لم ينفعه التوبة و الايمان و العمل الصالح حتى اهتدى، و اللّه لو جهد ان يعمل ما قبل منه حتى يهتدي، قال قلت الى من جعلني اللّه فداك؟ قال إلينا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 161

لقد اعجل موسى عن قومه الى ميعاد ربه لمرضاته تعالى، فانه مفتاق الى مناجاة ربه مشتاق، و

«المشتاق لا يشتهي طعاما و لا يلتذ شرابا و لا يستطيب رقادا و لا يأنس حميما و لا يأوي دارا و لا يسكن عمرانا و لا يلبس لباسا و لا يقر قرارا و يعبد اللّه ليلا و نهارا راجيا بان يصل الى ما يشتاق اليه و يناجيه بلسان شوقه معبرا عما في سريرته كما اخبر اللّه موسى بن عمران (عليه السلام) في ميعاد ربه بقوله‏ «وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى‏»

و

فسّر النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن حاله انه ما أكل و لا شرب و لا نام و لا اشتهى شيئا من ذلك في ذهابه و مجيئه أربعين يوما شوقا الى ربه» «1».

فبالفعل ترك موسى قومه الى جانب الطور الأيمن، حيث غلب عليه الشغف الى مناجاة ربه و قد ذاق حلاوتها من ذي قبل، فهو إليها مشتاق عجول، فيسأله ربه عما أعجله عن قومه، و لماذا لم يصاحبهم و المواعدة كانت تشملهم معه، و هو يجيبه‏ «هُمْ أُولاءِ عَلى‏ أَثَرِي» يتبعونني حسب القرار من فورهم‏ «وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى‏» حيث المواعدة انما هي لصالح الرسالة، فليسبق الرسول قومه لتلقّيه، و لكي يحضّر موسى نفسه قبلهم في ميعاد ربه، و على أيّة حال لم تكن هذه العجلة إلا «لترضى».

و قد تعني «على اثري» فيما عنت، أثر التربية الرسالية فلا خوف عليهم رجعة عنها، ثم و هارون اخي هو خليفتي عليهم فحتى إذا تأجلوا فهم تابعون اثري.

أ ترى ان قومه كلّهم كانوا على ميعاد مع موسى، و قد سبقهم ان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام) أقول: و قد يعني ترك ما ترك في ذلك الأربعين عدم الاهتمام به دون ترك مطلق حيث لا يطيق الإنسان أيا كان ان يترك حاجيات الحياة البدنية طيلة هذه المدة الطائلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 162

يكونوا على أثره دون تأجيل، فكيف يستخلف موسى أخاه هرون في هذه العجالة القريبة: «وَ قالَ مُوسى‏ لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» (7: 142).

قد تصلح الخلافة لفترة قصيرة كما الطويلة، حيث الحفاظ على بني إسرائيل كان ضرورة دائبة على ضوء هدي الرسالة، فليخلف موسى أخاه هرون في هذه العجالة، و لعلهم تأجلوا عن أثره لحوقا به، فتخلفا عن اثره في شرعته.

ام ان المواعدة لم تكن تعني الا السبعين المختارين: «وَ اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ..» (7: 155) و طبعا لم يكونوا هم ممن عبدوا العجل و إلا فكيف يختارهم لميقات ربه؟.

و قد تلمح آية الإختيار بلحوقها آيات الاختبار في غياب موسى، أنه اختبارهم من بينهم بعد ما عبدوا العجل.

فظاهر المواعدة و ان كان يشمل قومه كلهم، و لكن نكسة الاختبار حوّلهم الى ذلك الاختيار، فلا يليق من عبدوا العجل لحضور الميعاد المختار.

و على أية حال فقد استعجل عن قومه كلهم او مختاريهم، و نرى عرض القصة في الأعراف بنفس النمط باختلاف في صيغة التعبير يسير: «وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى‏ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ. وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ. وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى‏ إِلى‏ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 163

الظَّالِمِينَ. قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ‏ .. وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ. وَ اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ ..» (7: 155).

قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُ‏ 85.

لهذه الفتنة الاسرائيلية جانبان، رباني و شيطاني، و الثاني مقسّم بينهم و بين السامري، فقد كانوا منحازين الى الأمور المادية و الحسية في قرارات أنفسهم، اضافة الى الاستعباد الطويل في ظل الفرعنة المادية الطاغية، مما زاد في الطنبور نغمة اخرى، تاركا في كيانهم النفسي خلخلة و استعدادا لكل تقليد أعمى و انقياد، فلذلك ما كان يتركهم موسى و أنفسهم، و ترك لهم أخاه هرون في هذه العجالة و لكنهم فتنوا.

و السامري من ناحية اخرى أضلهم على ضلالهم، و قد تركهم اللّه و إياه في ذلك المجال العجال فتنة لهم و نبهة لموسى، فلو انهم كانوا مؤمنين مطمئنين لانكسر السامري أمامهم بكل حيله فأصبحت فتنة خير، و لكنها فتنة شر لهم لأنهم كانوا على شر و الى شر، فأبدى اللّه كامن شرهم، و لم يكن من اللّه إضلال، و انما اظهار الضّلال في هذا المجال: «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (21: 35) «وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (7: 168) «وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ» (47: 31) و بالنسبة لخصوص هؤلاء الانكاد: «كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» (7: 163) و ترى من هو السامري؟.

هنا تعترض الجمعية الامريكية على القرآن .. هذا من الجهل بالتاريخ و علم توقيع البلدان ان يسمى صانع العجل السامري، و لم يكن في عصر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 164

موسى شي‏ء يقال له سامرة و لا سامري الا الذي ملك بعد سليمان بخمسين سنة «1».

و هامشم العربي في تذييلاته المستقلة (55) بعد تصديقه لذلك التكذيب يقول: لا منشأ للتسمية بالسامري الى ان اشترى الملك عمري ملك إسرائيل جبل السامرة من شامر بوزنتين و بني على الجبل و دعى المدينة التي بناها باسم شامر السامرة فالقرآن يعزي صنعة العجل الذهبي الى رجل من مدينة سامرة المبنية بعد موسى زهاء خمسمائة و سبعين سنة!.

و لكنهما غفلا عن تصريحات التوراة ان واحدا من ولد يساكر بن يعقوب كان يسمى شمرون (تك 46: 13) و ان جما غفيرا من ولد شمرون و عشيرته كانوا مع موسى و هم وقتئذ يبلغون الألوف (عد 26: 23).

و عربية القرآن تقتضي تعريب اللغات غير العربية فيه و منها الشمروني حيث عربت الى السامري، و الجمعية الرسالية تتحاشى عن ان يكون الشمروني هو السامري صانع العجل جهلا او تجاهلا بالحقيقة، في حين تصادق على ان هارون هو الذي صنع العجل!.

فَرَجَعَ مُوسى‏ إِلى‏ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي‏ 86.

«فَرَجَعَ مُوسى‏» من فوره‏ «إِلى‏ قَوْمِهِ غَضْبانَ» عليهم من فعلتهم «أسفا» على ذلك و على إعجاله عنهم‏ «قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي» (7: 155) و ذلك الأسف و الغضب و التنديد لم يخص فقط هؤلاء الذين عبدوا العجل، بل و الذين سكتوا عن فعلتهم، و حتى هرون الذي منعهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في ج 1 ص 37 من كتاب جمعية الهداية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 165

عنها و لم يمتنعوا!.

أ ترى موسى رجع فور وصوله الى ميعاد ربه، إذ قال له حينه‏ «وَ ما أَعْجَلَكَ‏ ... قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ»؟ و قد ظل في الميعاد أربعين يوما كما وعد، و ليس من الممكن عادة حصول كلما حصل في هذه الفترة القصيرة؟!.

طبعا لا، و علّ‏ «وَ ما أَعْجَلَكَ» كان بعد انقضاء الأربعين، و واو العطف تعطف ما أعجلك بكل ما قاله تعالى و فعله طول الأربعين من إنزال الألواح و سواه، و اما انه إخبار له فور وصوله بما يحصل في المستقبل فلا يناسب ادب اللفظ، و لا موقف موسى ان يصبر على ضلالهم الآتي دون رجوع لصدهم، إذ لم يكن القصد من تلك المواعدة إلا نزول التوراة، و هو مؤخر رتيبا و في الحكمة التربوية عن تنزيههم و قد سقطوا في عبادة العجل في تلك العجالة.

هنا يأخذ في تأنيبهم‏ «أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً» فيما واعد أربعين ليلة «فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي» و لم تلحقوني على اثري؟ و «وَعْداً حَسَناً» بانزال التوراة في هذه المواعدة «فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي» في انتظارها و عدم التخلف عن توحيد اللّه؟ و طاعة هرون في هذه العجالة حق تلحقوني؟.

و وعدكم بمواصلة الإنتصار و دخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد و ظلال الشرعة الجديدة؟.

«أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ»- «أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ» (7: 150) فطال عليكم عهد فراقي، و قد قصر! و ان كان طائلا؟ فبما تأخرتم عن موعدي! ام طال عهد رجوعي بالالواح؟ و لم يكن إلا كما واعد اللّه! ام طال عليكم عهد الحفاظ على توحيدكم؟ و هذا هرون نبيكم خليفتي! ام طال عليكم عهد الرحمة السابقة السابغة إذ أنجيناكم من آل فرعون و أغرقنهم: «فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ» (57: 16)، ام «عجلتم امر ربكم»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 166

بانزال الألواح؟ و ليس امره بأيديكم!.

ام «عجلتم» امر عذابه ان يحل بكم بما أخلفتم موعدي؟ «أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي»؟.

فحتى لو طال عهد اللّه فأخره لحكمة عن موعده، كما حوّل الثلاثين الى الأربعين، فانما هو ابتلاء لكم، ليس ليحولكم في هذه العجالة القصيرة الى العجل، لو انكم آمنتم باللّه صادقين، بل‏ «أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي»!.

فمن طول العهد عليهم انهم عوهدوا في ظاهر الحال ثلاثين ليلة كما في آية الأعراف: «وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ» إذا فتأخير العهد الظاهر هو من ضمن الفتنة التي فتنوا بها، فتنة مثلثة الزوايا ثالثتها: «وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ» و هم يزعمون ان اللّه اخلف وعده، فلذلك انعطفوا الى عجل السامري بين الموعدين، و كان عليهم ان يحملوا وعد اللّه على الأصلح، ان الثلاثين غير حاصر، فاضافة العشر إليها لا تعارضها، فهذه ضابطة عقلانية ان اثبات شي‏ء لا ينفي ما عداه، فمواعدة الثلاثين لا تنفي العشر، و حتى إذا نفته، فقد تتكرر بمواعدة اخرى تلحقها.

قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُ‏ 87.

اعتذار عليل، يكشف عن اثر الاستعباد و الاستحمار الطويل، و التخلخل النفسي و السخف العقلي الكليل الكليل، يكشفون فيه عن ضؤولة أنفسهم و صغارها لحدّ كأنهم لا يملكونها امام مكر السامري.

«قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا» إذ كان الأمر اكبر من طاقتنا، فهو يملكنا اكثر من ملكنا أنفسنا فضلا عن ان نملكه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 167

و الملك مصدر الملك، فإخلاف موعدك كان خارجا عن ملكنا و مقدورنا «وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ» فهل القوم هم آل فرعون؟

فكيف أخذوا أوزارا من زينتهم و هم كانوا تحت إمرتهم، ثم من هذا الذي حمّلهم إيّاها دون ان يختاروها، و هم كانوا بطبيعة حالهم راغبين إلى زخرفات الحياة و زينتها، و لا سيما إذا كانت غنيمة من آل فرعون!.

ام ان القوم هنا هم بنو إسرائيل أنفسهم كما في الأعراف: «وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى‏ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ ..»؟ إذا فالمحمّلون في هذه المكيدة هم أصول الضلال السامري إذ أصبحوا اداة لكيده‏ «1» و القوم سائر بني إسرائيل الذين اغتروا بقرار السامري، فحمّلوا الأولين أوزارا و أثقالا من زينتهم، استجابة لما تطلبه منهم السامري فقذفوها في مقذفها كما قذف السامري.

ثم‏ «فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ» دون «قذف» قد تعم مع قذفه أوزارا من الزينة كما قذفوا، تعم إلقاءه بينهم هذه المكيدة المضللة، ام هي الأصل في ذلك المسرح كما تلمح له الفاء.

ذلك، و التوراة تنسب هذه المكيدة المضللة الى هرون كما في الاصحاح الثاني و الثلاثين من سفر الخروج: «و لما رأى الشعب ان موسى ابطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون. و قالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير امامنا لأن هذا موسى الرجل الذي اصعدنا من ارض مصر لا نعلم ماذا اصابه. فقال لهم هرون انزعوا اقراط الذهب التي في آذان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 13: 216 عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: ان الذين أمروا قوم موسى بعبادة العجل كانوا خمسة انفس و كانوا اهل بيت يأكلون على خوان واحد و هم: اذينوه و اخوه ميندويه و ابن أخيه و ابنته و امرأته و هم الذين ذبحوا البقرة التي امر الله عز و جل بذبحها ... (الخصال ج 1: 140).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 168

نساءكم و بينكم و بناتكم و أتوني بها. فنزع كل الشعب اقراط الذهب التي في آذانهم و أتوا بها الى هرون. فأخذ ذلك في أيديهم و صوره بالازميل و صنعه عجلا مسبوكا. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي اصعدتك من مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه، و نادى هارون و قال غدا عيد للرب، فكبروا في الغد و اصعدوا محرقات و قدموا ذبائح سلامة. و جلس الشعب للأكل و الشرب ثم قاموا للعب» (1: 6).

هكذا تتهم التوراة هارون عليه السلام ثم يعترض علماء العهدين على القرآن ان نسب صنعة العجل الى السامري لشبهة لغوية واهية!.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى‏ فَنَسِيَ‏ 88.

«فَأَخْرَجَ لَهُمْ» السامري بما ألقاه و قذفوا «عجلا» و طبعا بما أذاب الحلي فصنع لهم عجلا ذهبيا، و مهما لم ندر من هو السامري ندري انه كان من صنّاع التماثيل و الأصنام، عارفا- بجنب صنعه- هكذا تدليس و تلبيس لحد يتمكن من إضلال ذلك الحشد الكبير، و فيهم هارون و قلة قليلة من المخلصين لم يقدروا على صده و ايقافه لحدّه.

و «جسدا» هنا تخرج العجل عن كونه حيا، و «له خوار» و هو صوت العجل تثبت له صوته، فما كان- إذا- له من آثار الحياة إلا خوار، فالروايات القائلة ان اللّه أحياه فتنة لهم مطروحة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 304- اخرج ابن مردويه عن وهب بن مالك عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان اللّه لما وعد موسى ان يكلمه خرج للوقت الذي وعده فبينما هو يناجي ربه إذ سمع خلفه صوتا فقال: الهي! اني اسمع خلفي صوتا، قال لعل قومك ضلوا، قال: إلهي من أضلهم به قال: السامري، قال: كيف أضلهم؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 169

و ترى ذلك العجل الجسد أخرجه لهم السامري فمن اين «له خوار» و الجسد ليس له خوار؟ فهل الخوار من السامري؟ و كيف يكون للإنسان خوار- مهما احتال- من دبره الى فمه! و «له خوار» ينسبه الى العجل الجسد نفسه دون السامري، و الا كان حق البيان «فخار فيه»! ام انه من فعل اللّه؟ و اللّه لا يضل و لا سيما هكذا مستضعفين في العقلية و العقيدة!.

قد يكون «له خوار» ان جعل دبره في مهب الريح فصوتت من فمه كما الخوار؟ و لكنه صوت الريح، و ليس خوار العجل لحد يشبه العجل الحي! ثم «له خوار» مطلق لا يخصه بوضع خاص!.

قد يلمح «انا فتنا قومك من بعدك» ان خواره كان من فعل اللّه فتنة لهم ليظهر مكنون حمقهم من عمقهم، و ليس من البعيد و كما قال موسى:

بعد ما «أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ» (7: 155) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: صاغ لهم عجلا جسدا له خوار، قال: الهي! هذا السامري صاغ لهم العجل فمن نفح فيه الروح حتى صار له خوار؟ قال: انا يا موسى، قال: فبعزتك ما أضل قومي احد غيرك قال: صدقت قال يا حكيم الحكماء لا ينبغي حكيم ان يكون احكم منك.

و

فيه اخرج الفريابي، و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه عن علي رضي اللّه عنه قال: لما تعجل موسى الى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي بني إسرائيل فضربه عجلا ثم القى القبضة في جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار فقال لهم السامري هذا إلهكم و اله موسى.

أقول في الحديثين مواضع من مجال النظر فتأمل قياسا الى المستفاد من القرآن.

(1).

نور الثقلين 3: 388 في محاسن البرقي بسند عن أبي جعفر (عليه السلام) ان فيما ناجى اللّه به موسى ان قال: يا رب هذا السامري صنع العجل، الخوار من صنعه؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 170

فبالفعل «اخرج‏ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ» و هم في بلاهة فكر و بلادة روح، و عقل معقول بحب الزينة، و قلب مقلوب‏ «فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى‏ فَنَسِيَ».

هب انه «إلهكم» فكيف هو «إله موسى» و قد ذهب لمناجاته بمواعدته؟.

إنه إلهة و قد ضل عنه فراح يبحث عنه على الجبل «فنسي» انه هنا لا هناك!.

ام «فنسي» السامري اللّه الذي أنقذهم من آل فرعون و أنعم عليهم بما لا يحصى، فعكف على العجل الذهبي و اعكفهم عليه و أضلهم لحد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فأوحى اللّه تبارك و تعال اليه: ان تلك فتنتني فلا تفحص عنها.

و

في البحار 13: 227 شي عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول اللّه‏ «وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ» قال: لما ناجى موسى (عليه السلام) ربه اوحى اللّه اليه ان يا موسى قد فتنت قومك قال: و بماذا يا رب؟ قال: بالسامري، قال:

و ما فعل السامري؟ قال: صاغ لهم من حليهم عجلا قال: يا رب ان حليّهم لتحتمل ان يصاغ منه غزال او تمثال او عجل فكيف فتنتهم؟ قال: انه صاغ لهم عجلا فخار، قال: يا رب و من أخاره؟ قال: أنا، فقال عندها موسى‏ «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ»، قال: فلما انتهى موسى الى قومه و رآهم يعبدون العجل القى الألواح من يده فتكسرت فقال ابو جعفر (عليه السلام) كان ينبغي ان يكون ذلك عند اخباره اللّه إياه، قال: فعمد موسى فبرد العجل من انفه الى طرف ذنبه ثم أحرقه بالنار فذره في اليم، قال: فكان أحدهم ليقع في الماء و ما به اليه من حاجة فيتعرض بذلك للرماد فيشربه و هو قول اللّه‏ «وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ»

و

فيه ص 229 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية فقال موسى يا رب و من أخار الصنم فقال اللّه انا يا موسى أخرته فقال موسى: إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» ....

و

فيه ص 210 عن تفسير القمي‏ زيادة قوله تعال: انا لما رأيتهم قد ولوا عني الى العجل أحببت ان أزيدهم فتنة ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 171

«فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى‏ فَنَسِيَ» اللّه و «نسي» الاستدلال بحدث الأجسام على استحالة الوهيتها.

و «نسي» انه هو الذي أخرجه، فهو الخالق له فكيف أصبح إلهه و إله سائر الحضور مع موسى، و قد كان- إذا- هو أحرى بدعوى الألوهية و ليس له، فان موسى عمل ما هو اولى و أعلى من خوارق العادة و لم تثبت له الوهية.

«فنسي» آيات اللّه الكبرى التي أويتها موسى من ثعبان العصا و اليد البيضاء، نسيان التجاهل التناسي.

و النص يساعد نسيان السامري و موسى، و لكنه في نسيان موسى نقل لكلامهم، و في نسيان السامري هو كلام اللّه، و المعنيان معنيّان حيث يتحملها اللفظ و يناسبهما المعنى.

أَ فَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً 89.

هب ان العجل الذهبي خار و هو جسد، فما هو فضله على العجل الحيوان؟ وهب ان خوار العجل الجسد خارقة؟ فقد سبق لكم ان اللّه أحيا لكم بقرة و هو خارقة أعظم، و قلب عصى موسى حية تسعى و يده بيضاء من غير سوء، و فرق بكم البحر، فهل ان خوار العجل الجسد أفضل من كل ذلك؟ و إن كان يدل على شي‏ء فليدل على ما دلت عليه هذه الآيات، ام و هي فتنة شر فليجتازوها بخير.

ثم‏ «أَ فَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا» لا قولا منه يفهم، و لا اجابة لقولة الدعاء، فكيف هو آله يعبد و لا يستطيع قولا بدء و لا رجعا، و أنتم لكم القول بادئا و راجعا، فليعبدكم العجل- إذا- لو جاز، دون ان تعبدوه، فأنتم الذين شاركتم في صنعه بحليّكم، و السامري صنعه بحيلته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 172

فليعبدكم العجل، و السامريّ.

ثم‏ «وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً» و لا لنفسه: «أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ» (7: 148) فما قولتهم العاذرة «ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا» الا قولة كاذبة ماكرة، بل هم ظالمون بحق الحق و بحق أنفسهم و رسولهم.

قال بعض اليهود لعلي (عليه السلام): ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم؟ فقال: انما اختلفنا عنه و ما اختلفنا فيه، و أنتم ما جفّت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة «1».

و ترى لو رجع إليهم قولا و ملك لهم ضرا او نفعا او هداهم سبيلا لكان بكل ذلك إلها؟.

كلا، و إنما هذه كلها من الشروطات البسيطة البدائية للألوهية، فالفاقد لها يفقد- باحرى- كلها، ثم الواجد لها قد يكون إلها حين يملك سائر الشروط، ام لا يكون إلها حين لا يملكها كما لا يملكها.

فيا ويلاه كيف عبدوا عجلا جسدا له خوار و لا يصل إلى درجة الحياة الحيوانية الا خوارا، فلا ينطح و لا يرفس و لا يدير طاحونة و لا ساقية، عبدوه- فقط- لان له خوارا!- ذلك:

وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (90).

فتلك عقولهم المدخولة الظالمة في أنفسهم. و اضافة الى كل حجة بالغة انفسية لتزييف تلك العبادة الزائفة، قد ذكّروا بلسان الوحي‏ «إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ» فليس ذلك الخوار الا فتنة لكم، فتنكم اللّه به بالسامري، فليس ذو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 22: 105 في ظل الآية ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 173

الخوار ربّكم‏ «وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ» الذي خلقكم و العجل و السامري و الحلي و العالمين أجمعين، فهل ان العجل رحمان و أنتم صانعوه؟ ام‏ «إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ» الذي فطر الخلائق برحمته و قدرته؟ «فاتبعوني» فيما خلّفت بينكم‏ «وَ أَطِيعُوا أَمْرِي» دونما تخلّف عني، فانني خليفة موسى الرسول حين قال: «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» (7: 142).

و نرى هنا سرد الرسالة اجمالا في أصولها و فروعها، ابتداء بالسلب فيما فتنوا به، ثم الإيجاب‏ «إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ» ثم الرسالة «فاتبعوني» و من ثم احكام الرسالة «وَ أَطِيعُوا أَمْرِي».

و لكنهم بالرغم من الحجة البالغة الفطرية و العقلية انفسيا، و الرسالية آفاقيا، صمدوا على كفرهم و:

قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى‏ 91.

و إذا كان رجوع موسى رجعة لهم عن ضلالهم حجة لرجوعهم، فهذا اخوه هارون مؤمّر مطاع من قبله، و طاعته طاعته و معصيته معصيته، و لا يقول الا قوله، و لكن لا حياة لمن تنادي، و ان هي الا عاذرة حمقاء ابتغاء لهذه الفرصة اللئيمة في عكوفهم على عجلهم.

ثم و في «لن نبرح» قضاء على امده: «حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى‏» حيث استحالوا رجوعهم عن عجلهم في هذه العجالة، مهما أتتهم من برهنة قاطعة، فهم أولاء- إذا- لن يرجعوا في تصميمهم الحالي، مهما تحولوا بعد رجوعه و رجعوا!.

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا 92 أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي‏ 93.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 174

و ترى ما هو اتباعه له المرغوب المترقب منه الذي تركه حتى عده عاصيا لأمره فأخذ برأسه و لحيته‏ «وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ» (7: 150) و قد سمعناه وعظهم و وبخهم و أمرهم بما أمرهم؟ و نص الوصية الموسوية في هذه الخلافة «وَ قالَ مُوسى‏ لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» و قد خلفه و ما اخلفه و أصلح ما استطاع حتى كادوا يقتلونه. «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي» (7: 150) و لم يتبع سبيل المفسدين تركا لأمر او نهي، ام دخولا في نهي.

الإتّباع المرغوب هنا هو أن يلحقه بمن معه كما واعدهم اللّه مع موسى، و لا سيما «إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا» دون واجب الدعوة- فقط- و الموعظة، و قد فعل لحد كادوا يقتلونه‏ «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي» و لم يبق من واجب نهيهم عن ضلالهم إلا قتالهم و قد استضعفوه، او فراقهم وحيدا او بمن معه، و ما كان يتّبعه الّا الذين اتبعوه، و ذلك تفريق بينهم و «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي» فقد امره ان يحافظ على وحدتهم!.

و طبيعة الحال في رسول كموسى انه لما يرى الحال هذه المزرية- و بعد اللتيا و التي- أن يفور غضبا للّه، و طاهر الحال كان يدفعه لهكذا سؤال، دون ان يتهم أخاه هرون إلا تساءلا لاتضاح الحال‏ «أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي» و ما هكذا الظن بك، فوضّح لي الحال، حتى يسكن البال و يصفو المجال.

فلم يكن له- إذا- في اتخاذهم العجل ذنب‏ «1»، و لا في عدم اتباعه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 389 في كتاب علل الشرايع باسناده الى علي بن سالم عن أبيه عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل و فيه قال‏ قلت: فلم أخذ برأسه يجره اليه و بلحيته و لم يكن له في اتخاذهم العجل و عبادتهم له ذنب؟ فقال: انما فعل ذلك به لأنه لم يفارقهم لما فعلوا ذلك و لم يلحق موسى و كان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب، الا ترى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 175

موسى ذنب، إلا أن ظاهر الحال كان يقتضي ذلك التأنيب العجيب أن قال ما قال و أخذ برأس أخيه يجره اليه كما و القى ألواح التوراة، ثم لما تبين امره استغفر لنفسه و لأخيه: «قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (7: 151).

قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي‏ 94.

و ذلك الاعتذار يبين بوضوح أن موسى (عليه السلام) لم يتساءله الا عن عدم اتباعه الى الطور الأيمن، أخذا بهم معه، ليعالجهم موسى ما خالجهم، ام فراقا عنهم كزاوية اخيرة للنهي عن المنكر.

لقد تهدّرت اعصاب موسى حين رأى ما رأى لحد لم يتمالك نفسه ان يفعل إلا ما فعل و من ثم اعتذر: «... وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (7: 151).

و هنا تساءلات حول تأنيب موسى و اعتذار هارون:

كيف يأخذ برأس أخيه و لحيته يجره اليه دون ان يتأكد منه عصيانا لأمره و كما تردد «أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي» و هو يعرف أخاه انه من أهم سؤله المجاب في دعوته، و انه رسول اللّه معه، فكيف يهتكه هكذا او يتردد في امره؟.

قد يعذر موسى فيما فعل انه قضية الموقف المحتار، و علّه هكذا يفعل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

انه قال لهارون: ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أ فعصيت امري- قال هارون: لو فعلت ذلك لتفرقوا «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 176

بأخيه المختار ليدل المتخلفين من بني إسرائيل على مدى تخلفهم في فتنتهم‏ «فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» و ليرقبوا على أنفسهم أشد من ذلك و أنكى، حين يفعل الداعية بخليفته البري‏ء عما فعلوا و هو اخوه، يفعل هكذا، فما ذا- إذا- يفعل بهم بما افتعلوا، تعبيدا لجوّ التأنيب الشديد، و الأمر الإمر أن «اقتلوا أنفسكم».

و هذه سنة سنية في النهي عن شديد العصيان و التحذير عما يخلفه، فهو من باب: إياك اعني و اسمعي يا جاره، و كما يخاطب اللّه نبيه أحيانا بخطابات تنديدية و هو يقصد الامة المتخلفة.

فليعلم عبدة العجل حينذاك انه ليس بتاركهم و قد فعل بأخيه البري‏ء ما فعل لماذا لم يفارقهم اليه.

و هكذا يوجّه قوله له كما يوجّه فعله و جاه هؤلاء المتخلّفين و ليعلموا ان شرعة العدل لا تعرف نسبة و لا قرابة و لا خلافة في ظرف التخلف عنها، فضلا عن امة متخلفة هكذا، و ليعرفوا مدى عصيانهم لرسولهم ألّا مسامحة فيه و لا سماح عنه.

ثم و كيف يعذر هارون عما قصّر إن قصّر خشية التفرقة بين بني إسرائيل، و ليست الوحدة مرغوبة إلا في ظلال التوحيد، فحتى ان قتل دون منعهم عما افتعلوا لكان حقا رساليا بمسؤولياتها الدعائية الاصيلة، و ما الدعوات الرسالية إلا مفرقة بين الناس من متقبل لها او معارض، ثم موحّدة بين المؤمنين بها، فكيف يعذر هارون ان قصّر بقوله‏ «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي»؟.

انه و عظهم و ندّد بهم حتى كادوا ان يقتلوه، فلم يقصّر- إذا- في الدعوة، ثم قتل الداعية انما يسمح فيه في شرعة الرسالة إن اثر في قبول الدعوة ام مزيد الحجة، و لكن بني إسرائيل المعروفين بقتل النبيين لم يكونوا ليتأثروا بقتل هارون إلا حظوة لهم في البربرية إزالة لمن يصدهم، و تقليلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 177

لعديد الداعية، فتعريض هارون نفسه للقتل لم يكن الا تعريضا للرسالة الى الخمول و تضعيف الساعد المساعد لموسى الى الهمول، ثم التفرقة المحظورة هي التي كانت تشجّع المتخلفين في عكوفهم على عجلهم لما يرون الجو دون معارض و مشاغب، ثم تفريقا بين المؤمنين ان يلحق بعضهم بعبدته، و آخرون يلحقونه الى موسى، تمزيقا لذلك الجمع دون فائدة عائدة الى صالح الحق، إلا طالحا ضد الحق، و لقد كانت الرقابة لقول موسى الحفاظ على الوحدة ما دامت صالحة مهما ضل منهم من ضل، حيث الفرقة آنذاك كانت تزيديهم ضلالا على ضلال، و فيها دلال لمن ضل و أضل.

و لماذا «يَا بْنَ أُمَّ» دون «اخي» كما في عرض سؤله و اجابته؟ علّه لأنه كان أخاه من امه، ام جاء له من ناحيتها و ان كان أخا لأبويه، لأنها أشد حساسية و ارهافا و استجاشة للرحمة الاخوية، تكسيرا عن شدته و تكثيرا لرحمته.

و كيف هنا «امّ» و قضية الأدب كسرها للاضافة؟ علها مخففة عن «أماه» نداء لها ضمن نداءه ليكون آكد في الاسترحام.

و ترى موسى كيف لم يغضب عند ما أخبره اللّه، غضبه حين راى ما رآه؟ انه على‏

حد المروي عن أخيه المصطفى: «يرحم الله اخي موسى ليس المخبر كالمعاين، لقد أخبره الله بفتنة قومه و قد عرف ان ما أخبره ربه حق و انه على ذلك لمتمسك بما في يديه فرجع الى قومه فرآهم فغضب و القى الألواح ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 13: 204 و قال الطبرسي روي عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 178

و عله- و بطبيعة الحال- غضب هناك كما هنا و لكنه أخف و لم يأت له ذكر إذ لا مظهر له و هنا أخره يظهره.

هذا دور هارون في قصة العجل، و من ثم السامري و هو اصل البلاء:

و انما بدء موسى بالقوم، لأنهم هم المسؤول الاول في هذه الزلة الا يتبعوا كل ناعق و بمسمعهم و مرآهم آيات اللّه تترى من بين أيديهم و من خلفهم.

و من ثم هارون لأنّه المسؤول الثاني في هذه المعركة ان يحول بينهم و بين هذه الهوة المضلّلة، لأنه خليفة موسى و القائد المؤتمن في غيابه.

ثم السامري هو الأخير لأنه لم يفتنهم بقوة قاهرة ام معجزة باهرة، و لم يضرب على عقولهم، و انما وجد الجوّ صالحا للإضلال حيث استضعف القائد و تخلف و تعنف المقود، و قد كانوا يملكون ان يثبتوا على هداهم فطريا و عقليا، و على هدى نبيهم الأول و نصح الثاني:

قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ 95 قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي‏ 96.

و الخطب هو الأمر الخطير الذي يهمه صاحبه، فما هذا الأمر يا سامري حيث أهمك في هذه المكيدة المضللة المدللة؟ مسا من كرامة اللّه، و تضييعا لرسالة اللّه، و نكرانا لنعم اللّه! «قال»: ...

و لأن القصة منقطعة النظير في القرآن، لا تحمله إلّا هذه الآية، و هي غامضة في نفسها، لذلك تتطلب إمعان النظر اكثر مما له نظائر، و قد تضاربت في تفسيرها الأقوال، و أصبحت مجالا فاسحا للقيل و القال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 179

«قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ»: بصر به هو العلم و المعرفة عن بصر العين، قد يعلمه غير الباصر و قد لا يعلمه، و هنا «بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ» تختص بالباصر الخفي كما «فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» (28: 11).

فهناك امر بصر به و هم لا يبصرون، معرفة أو علما بما يجهلون، و كان بالإمكان ان يبصروا به و لكنهم مستغفلون، فلم تكن- إذا- معرفة خارقة للعادة في مسارح المعرفة، بل هي لمحة خفية لأمر عن تحرّ و تفتيش، لم يكن هؤلاء بصدده حتى يتلمحوا له، و السامري يأتيهم هنا مما يجهلون بما سولت له نفسه من الإغراء لإجراء مكيدته البائتة الدفينة.

«بَصُرْتُ‏ .. فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها» و هنا القبضة متفرعة على البصر، ثم النبذة تتفرع على الأثر، و كل ذلك من تسويلات نفس السامري: «وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي».

فما هي القبضة، و ما هو الأثر؟ و ما هي نبذة الأثر؟ و من هو الرسول المقبوض الأثر؟.

فهل الرسول هنا هو جبريل، و أثره موضع حافر فرسه، فقبض قبضة من ترابه فنبذها في حليّهم المركوم فأصبح عجلا جسدا له خوار؟ كما قد تداولته أقلام المفسرين في الأكثرية المطلقة.

و المتداول من «الرسول» في القرآن هو الرسول البشر، مهما شمل جمعه الرسول الملك‏ «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ» (22: 75) و ليس يعني‏ «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ» جبريل الا بتأويل عليل، ثم جبريل و هو الطائر القدسي الرسالي ليس يركب فرسا! و لا يظهر لغير الرسول، و لئن ظهر فانما هو في صورة البشر، فكيف عرفه السامري؟ أ بصورته الاصلية؟ و لا تصلح لغير الرسول! ام بصورة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 180

انسانية، فكذلك الأمر! ثم كيف يعرف- إذا- انه جبريل، اللهم الا للرسول.

و تجلي جمع من الملائكة لقوم لوط لم يكن ملائكيا كما لم يعرفوهم، و لم يكونوا حملة الوحي الرسالي، ام أعوانا لقوم لوط المجرمين! و من ثم كيف يكون لأثر حافر فرسه ام قدمه ذلك الأثر المعجز، و الآيات المعجزة إنما هي من افعال اللّه، يخصها بمن يحملون رسالات اللّه تثبيتا لها، دون سواهم مهما كانوا رسل الوحي الى الرسل، فضلا عن الدجالين المضللين، تجليا لهم بحيث يعرفونهم، و يزيدون اضلالا بآياتهم الخارقة!.

و مهما كان ذلك فتنة من اللّه فليست الآية المعجزة منها، و لو كانت آية لأصبح العجل الذهبي حيوانا، و نص الآية «عِجْلًا جَسَداً» يطارده! و ليس اللّه يطارد آية منه بأية اخرى بل يؤيدها بها و يبطل بها غيرها المدعى أنها منها «قالَ مُوسى‏ ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» و صنع العجل الآية بقبضة من اثر الرسول هكذا، إصلاح لعمل المفسدين سبحان اللّه عما يصفون!.

ام ان الرسول هنا هو موسى و أثره هو أوزار الزينة التي حملّوها، نسبت اليه هنا لأنه أمرهم بأخذها من القبط، فقبض منها قبضة و طرحها مع القوم في النار فاخرج لهم عجلا جسدا له خوار؟.

و لكن أوزار الزينة لم تكن للقبط بل هي من حليّهم أنفسهم‏ «وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى‏ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ».

و أنّى لهم ان يأخذوا من زينة آل فرعون و هم مستضعفون بينهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 181

و ملاحقون، فضلا عن ان يحملوا أوزارا من زينتهم! اللهم ان تحمّلهم أمواج البحر بعد غرقهم و لا برهان له، و «من حليهم» برهان عليه، و هي على أية حال لم تكن اثر الرسول، مهما كانت لأولاء ام هؤلاء، و حتى لو كانت من ملكة موسى فالصيغة الصالحة لها «اثر موسى» دون اثر الرسول، حيث الحلي و الزينة هي من آثار الحياة الدنيا و ليست «اثر الرسول» فانما اثره الرسالة بآثارها.

ثم القبضة المتفرعة على‏ «بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ» هي بطبيعة الحال عنهم خفيّة، و هم عارفون انه ألقى مما ألقوا: «فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ»! و مهما يكن من امر فالصيغة الصالحة له «فقبضت قبضة من زينة القوم» و لكنه على هذا الحال ايضا لم يقبض من زينة القوم و انما «حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ»! و من ثم فكيف يقال لموسى- و هو حاضر- قيلة الغائب و الصحيح «من أثرك- او- من حليك»! ام انه هو هارون و هو غائب عن مسرح التخاطب مهما كان حاضرا بينهما، و الأثر إما كالأول او كالثاني؟ و لكن الصيغة الصالحة عن هارون هي لفظه دون «الرسول» و إمامه موسى و هو اصل في هذه الرسالة، ثم عليه ما على الأولين الا المحظور الأخير.

علّ الرسول هنا هو موسى لأنه المحور في هذه الرسالة، الظاهر بنفسه و برسالته و آثارها، فالتعبير بالرسول كغائب دون «اثرك» علّه للتدليل على ان ما قبضه كان آثار الرسالة، بما فيه من تعريض على هذه الرسالة كما في نظائرها: «يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» (15: 6) و لان السامري كان ناكرا للرسالة و قبلها للربوبية: «وَ انْظُرْ إِلى‏ إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً ...» فقد يعني من قوله: «بَصُرْتُ بِما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 182

لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ» أنني عرفت من بطلان هذه الرسالة ما لم يعرفه هؤلاء، و لكي أبيّن لهم ضلالهم جئتهم من حيث يعرفون‏ «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ» و هو شطر من سنته ثم «نبذتها» إلغاء لها لأزلزل من اركان ايمانهم المزعزعة في نفسها، ام «نبذتها» خلطا لها بباطل من عندي ثم أظهرت حقها بمظهر الباطل و الباطل بمظهر الحق.

و نفس النبذ هنا- دون القذف- خلاف ما هناك- و أنه رفض بعد القبض- مما يدل على انه تضليل بعد تدليل: «قبضت فنبذت» فالقبض هو الأخذ قبولا و تصديقا، و النبذ هو الرفض تكذيبا، و هذه هي أضل طرق الإضلال ان يقبض من اثر الرسول كمصدق له، ثم ينبذ و يرفض نفس المقبوض تكذيبا و كما كان يفعله الدجالون: «آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (3: 72).

و لو كان المنبوذ هنا هو المقذوف هنا لك ام الملقى هناك لكان قذفتها ام ألقيتها «1» و النبذ صريح في الرفض دون الإلقاء و القذف، فقد قذفوا حليّهم بإلقائه‏ «فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ» و من قبل قبض قبضة من اثر الرسول فنبذها تهوينا لايمانهم، فلو ظلوا على ايمانهم ما ضلوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لم يأت النبذ في القرآن الا بمعنى الرفض ك «نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ» (2: 101) «فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ» (28: 40) «أَ وَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ» (2: 100) «فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا» (3: 187) «كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ» (104: 4).

و فيما جاء النبذ في غير المرفوض فهو نائب مناب المرفوض مثل يونس‏ «فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ» (37: 145) و «لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ» (68: 49) و كما مريم‏ «إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا» (19: 16) تباعدا عنهم لما وجدت من نفسها نبذا و رفضا لما حملت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 183

بالقائه قذفا لحليهم، و ما قالوا «هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى‏ فَنَسِيَ» فانما زعزعهم عن بقية الايمان بما قبض و نبذ، ثم القى بينهم قذف حليهم ليصنع لهم ما يعبدون كما كانوا يأملون!.

و علّ من اثره مواعدة الثلاثين، التي انقلبت الى الأربعين، فقد قبضها في قبضته، ثم نبذها في نبذته، قبضا كوعد اللّه، و نبذا كخلف لوعد اللّه، و عوذا باللّه!.

و من اثره‏ «إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى‏» فقد قبضه كتصديق ثم نبذه بتلك المواعدة، ان لو كان إلهه معه فكيف واعده الى جانبه الطور الأيمن؟!.

هذا و قد يؤيده ان خطب السامري المسؤول عنه لم يكن صنعة العجل الجسد لأنها كانت ظاهرة لا تدفع لسؤال، بل هو الأمر الخطير الذي أهمه فدفعه لصنعه و الدعوة الى عبادته، كما و يؤيده أخيرا «وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي».

و طبيعة الحال قاضية في ذلك المسرح ان ليست صنعة العجل الجسد الذي له خوار بمجردها هي السبب لضلال من ضل، إلا بتقديم ما يصفي الجو لتقبل ذلك الضلال المبين و قد فعل و افتعل فأضل كما ضل.

ثم الخوار للعجل الجسد فتنة إلهية و ليست آية تمكّن صاحبها من دعوى الألوهية او الرسالة، كيف و قد انقلبت عصى موسى حية تسعى و ثعبانا مبينا، و هذا العجل الذهبي ظل جسدا الا ان له خوارا، و هذا الاحتمال على اية حال اسلم من كل ما قيل او يقال، صيانة لكلام اللّه عن عضال لا يزول الا بمزيد اشكال، و مشكلة الخوار قد تدفع بدافع غير ما ذكر انه كان بسبب صناعي و وضع خاص هندسي أمام الريح فهو كصوت العجل و ليس صوته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 184

فلقد حدّث السامري بقولته ما حدث، و تقلّص فيه و ما تخلّص، و اعترف في ذلك الموقف الحاسم القاصم ان ذلك من تسويل النفس، و نرى موسى كيف يطرده من الجماعة طول حياته و يحرق الهة أمام من ضل به و ينسفه في اليم نسفا، إحراقا لهذه الضلالة عن بكرتها و نسفا لها.

قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انْظُرْ إِلى‏ إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً 97 «قالَ فَاذْهَبْ» من هذا الجمع المستضعف، فليس لك هنا مكان و لا مكانة، تغرّب عنهم طريدا شريدا مدحورا فريدا «فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ» ما هو أصعب و اتعب من الممات‏ «أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ» ليس انك لا تمس أحدا و لا يمسك احد في غربتك، بل و تتعذب بأي مساس كان رحمة لك عيشة بين الجماهير، تتعذب لحد ليس لك في الحياة إلا ان تقول «لا مساس»! فقد أصبح قصاصه «لا مساس» و هو شر قصاص! فالغربة المطلقة في الحياة عذاب، و عذاب القربة فيها عذاب فوق العذاب، حيث بدلت له الرحمة زحمة و كما بدّل نعمة اللّه كفرا و أحل قومه دار البوار جهنم يصلاها و بئس القرار.

و لان «مساس» مصدر من المفاعلة كما الضراب من المضاربة، فهو مس من الجانبين أيا كان المسّ، سمعيا او بصريا او بدنيا، ام اية معاطاة أخذا و عطاء روحيا او ماديا، فقد أصبح المساس الذي به الحياة الزاهرة بين الجماهير، شرا من الممات و كأنه من دوافعه، إبعادا له عن حظوظه، و ابتعادا لهم عن شذوذه، فأصبح- بالفعل- لا هو ميت و لا هو حي، مجموعا له شر الحياة و شر الممات اضافة الى العذاب الذي هو آت.

و يا بؤساه لمن إذا سألته عن حاله يقول «لا مساس» و إذا قلت له ام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 185

سمعت قاله يقول «لا مساس» و إذا تدنّت اليه أهله ام ولده يقول «لا مساس» و إذا دنّيت اليه ما له ام حاجة من حاجياته يقول «لا مساس» «فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ» فما ذا إذا بعد الممات؟:

«وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ» بعد الممات، العقوبات التي وعدها المضلّلون المكذّبون بآيات اللّه.

ثم‏ «وَ انْظُرْ إِلى‏ إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً» و ظلوا أولاء بما أضللتهم «لنحرقنه» حرقا لنفسك التي سوّلت لك، و حرقا لقلوب من ظلوا عليه عاكفين‏ «ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً» طرحا له، فيه طرح النسافة و هي ما تثور من غبار الأرض، حيث يبدله الحرق غبارا لا يبقي له صورة و لا سيرة، اعداما له عن بكرته، ازالة حاسمة لأثر الضلال.

كل ذلك بمسمع و مرأى الذين عبدوا العجل و سواهم، و على مشهد الإله المزخرف المزيف المحرق المنسف يعلن الداعية حقيقة العقيدة الصالحة:

إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً 98.

دون هذا الإله المعدم، و هو في وجوده له شركاء أفضل منه و أعلى، و لا علم له بنفسه حتى يدافع عنها، بل هو الذي لا إله الا هو وسع كل شي‏ء علما و «لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء».

و مهما ختم السياق هنا الى ما هنا، فليس ليختم في واقع الحال إذ أمر الذين عبدوا العجل ان يقتلوا أنفسهم كما في البقرة.

[سورة طه (20): الآيات 99 الى 123]

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (100) خالِدِينَ فِيهِ وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (101) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (102) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (103)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (104) وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (105) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (106) لا تَرى‏ فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (108)

يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلاً (109) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (110) وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (111) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً (112) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (113)

فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى‏ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114) وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (115) وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى‏ (116) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏ (117) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏ (118)

وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏ (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى‏ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى‏ (120) فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏ (121) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏ (122) قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏ (123)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 188

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً 99.

النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، و «من» هنا تبعّضها، و طبعا بالبعض الأهم منها و «نقصّ» تبعيض ثان حيث القص هو تتبع الأثر و هي القصص الأخبار المتتبّعة، و طبعا هي أهمها حيث لا يقص بمقصّ الوحي الأخير إلّا أهمها، فقصص القرآن هي سلالة السلالات من انباء تاريخ الرسالات، ما تتبناها ام ما تهدّمها، و بهذه السلبية و الايجابية يبنى صرح الإسلام الخالد اعتبارا بأنباء ما قد سلف، و زيادة هي‏ «وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً» ليعتبر معتبر و يتبصر متبصر.

«كذلك» العظيم العظيم من قصص موسى‏ «نَقُصُّ عَلَيْكَ» يا رسول الهدى‏ «مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ» من محاربي الرسالات و محادّيها، و ليس فحسب ان القرآن يقص قصص الماضين كتاريخ من التواريخ بل‏ «وَ قَدْ آتَيْناكَ» في جمعية الصفات و الرحمات‏ «مِنْ لَدُنَّا» أهم مما مضى و أعظم منها «ذكرا» هو ام الذكر و إمام الذكر مهما شمل سائر الذكر فانه مهيمن على كل ذكر.

هذا ذكر لدني مهما كان كل ذكر يحمله كتابات الوحي من لدنه، و لكنه درجات أعلاها ما يختص من بينها ب «قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً» فجمعية الصفات من ناحية و «مِنْ لَدُنَّا» من اخرى و «ذكرا» تنكيرا لبالغ عظم التعريف من ثالثة، تجعل ذكر القرآن رأس الزاوية في الذكريات اللدنية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 189

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً.

و لا فحسب‏ «يَوْمَ الْقِيامَةِ» بل و «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً. وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» (20: 132).

«مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ» في اي عرض منه، قراءة و استماعا و تدبّرا و تفهما و تصديقا و تخلقا و تطبيقا و نشرا، فهذه أبواب ثمان لجنة الذكر القرآن، و معرض القرآن مسرح يحلّق على كل المحالق، و ذكر عن كل نسيان أيا كان و أيان.

فالإقبال الى القرآن أزر، و الاعراض عه وزر يحمله من حمّل أزره فاعرض عنه الى وزره، و مهما كان لذلك الوزر مراحل ثلاث في معيشة ضنك، و لكنما الهامة الخالدة منه و الأوفى هي في الأخرى و كأنها المخصوصة بحملها:

خالِدِينَ فِيهِ وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا (101).

خلودا في وزر الإعراض عن الذكر قدره و لا يظلمون نقيرا، و حمل المسافر زاد له في غربته و تخفيف له عن كربته، و حمل الوزر للمعرضين عن الذكر في ذلك السفر الشاق الطويل الطويل حمل و بيل‏ «وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا».

و لان الوزر هنا هو الذنب المخلّف عن الإعراض عن الذكر، و الأعمال هي الجزاء بملكوتها الظاهرة يوم القيامة، فالخلود في الوزر هو خلود في نفس الوزر دون جزاءه، فانه هو جزاءه دون فصال، و «خالدين» كما في آيات اخرى، لا تدل بصيغتها على البقاء لغير النهاية، فانها أعم من الأبد و دونه، و الأبد أعم من اللانهائية الحقيقية كما في ابد الجنة، و سواها كما في سواها، فما الآبدون في النار إلا و هم دائبون فيها ما داموا و دامت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 190

النار، ثم لا نار و لا اهل نار قضية العدل، و ان العقوبة ليست الا قدر الخطيئة «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

و هنا الخلود في الوزر ليس إلا قدر الوزر، حيث الإعراض عن الذكر دركات، فالخلود في الوزر ايضا دركات‏ «وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا».

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً 102.

و «يَوْمَ الْقِيامَةِ» هو «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» و هي هنا النفخة الثانية بدليل «و نحشر»: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39: 68) و «المجرمين» هنا تعم‏ «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ» و سواه ممن أجرم مهما اختلفت دركات الإجرام، و الزّرق جمع الأزرق من الزرقة و هي اللون المعروف بين البياض و السواد.

و لان «زرقا» وصف للمجرمين دون عيونهم فحسب، فلا تعني- فقط- زرقة عيونهم، بل هم يومئذ زرق ككلّ خوفة من هول الموقف المطّلع، و من زرقة عيونهم عماها: «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً. وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» (20: 124) «وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى‏ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا» (17: 97) و قد تكون «زرقا» كمقدمة محضرّة ل «عميا» ان تشخص ابصارهم لا يرتد إليهم طرفهم و افئدتهم هواء، ثم تتحول ألوانها و تظهر بياضها و يذهب سوادها ثم تعمى.

و لا ينافي حشرهم- زرقا و عميا و بكما و صما- شخوص أبصارهم و رؤية اعمالهم و سماع ما يسمعون من تأنيب و سواه، و ما يتكلمون في التماس لتخفيف عذاب و سواه، حيث المواقف هناك عدّة قد تقتضي العذاب عماهم كما عند حشرهم، و اخرى ابصارهم و اسماعهم كما عند

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 191

حسابهم و عذابهم.

يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً 103 نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً «1».

التخافت هنا هو تخافض في الصوت و تسارّه لهول المطلّع كما يحشرون له زرقا فعميا، و كلامهم المتخافت فيه بينهم‏ «إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً» عشر ساعات ام ليال ام سنين و قد يقرّب «الا يوما» الأولين.

«نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ» و يتقولون من باطل تقديرهم للبثهم‏ «إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً» و بين «عشرا- و- يوما» ساعة و بعض يوم او عشية او ضحاها «2» و كل هذه استقلالا للبثهم في ارض التكليف و البرزخ بجنب حياة الخلود يوم القيامة.

و حق القول في لبثهم: «إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (22: 114) و لكنها ليست هذه القلة المحدّدة، بل هي النسبية بجنب الآخرة: «وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى‏ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (30: 56) فذلك اللبث المبحوث عنه يعم البرزخ دون خصوص الدنيا و هناك «عشرا» هي من قولة الاكثرية المجرمة، و كما هي «ساعة» بين مفرط و مفرّط، ثم عوان لسواهم: «يوما او بعض يوم- عشية او ضحاها» و اين ساعة من عشر؟ و اين هذه كلها و لبثهم في كتاب اللّه الى يوم الحشر؟.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30: 103- 106 من الفرقان تجد تفصيلا للبحث عن ذلك اللبث.

(2) «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ» (30: 55) «قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ» (23: 116). كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» (79: 46).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 192

هذه أقاويل اربعة عن مدة مكثهم في الأرض من ساعة الى بعض يوم عشية او ضحاها، الى يوم و الى عشر، تقديرات هارفة خارفة دون اية حجة و برهنة، تجمعها القلة لمكثهم أمام الكثرة الأخيرة.

و انها الحماقة الكبرى ان يضحوا بالآخرة الطويلة الطويلة لهذه القلة القليلة، الزهيدة التافهة الهزيلة.

و تراهم نسوا و غفلوا مدة مكثهم؟ و ليست بمغفول عنها و لا منسية! ام ذهلوا لشدة الوقعة في الواقعة فما ذكروا إلا قليلا مقدرا لهم بمختلف تقديراتهم حسب مختلف أحوالهم و اهوالهم، و الإنسان قد يذهل عن اظهر الأمور عند شديد الهول؟ و هذه واجهة!.

ام قابلوا طويل الآخرة بقليل الدنيا ببرزخها فقللوها بهذه و تلك؟

و هذه اخرى! و لماذا الأحرى بينها- على زيفها- «إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً» علها حيث اليوم ليل و نهار و قد كانت الحياة في البرزخ و الاولى بين مظلمة و مشرقة «يوم لك و يوم عليك» اضافة الى قلتها نسبة الى الاخرى.

هذا إلا ان بين ساعة و عشر ليال بون 240/ 1 فأين الواحدة من مئات؟ الا ان ذلك ليس من البعيد لهؤلاء البعاد عن الحق، ام ان «عشرا» هي عشر ساعات، فظنونهم كلها لا تعدو يوما او بعض يوم! فهم يحدسون عما قضوا على الأرض و قد تضاءلت الحياة الدنيا ببرزخها في حسبانهم، و قصرت أيامها في مشاعرهم، و هكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها و تنطوي، و تتضاءل متاع الحياة و همومها و تنمحي، فيبدو كل هذه على طولها و طولها فترة وجيزة يحسبونها ساعة او يوما او بعض يوم!.

و قد تجمع هذه القيلات حول اللبثين في البرزخ و الاولى، على اختلافات في تقديرات، ان الزمن في البرزخ اسرع منه عن الاولى، حيث الزمان يتبع السرعة، و البرزخ بما فيه الأبدان البرزخية أجرد من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 193

الدنيا بكثير، فسرعة الحركة فيه اكثر منها بكثير.

و ان حالة اليقظة في البرزخ لأكثر تقدير 24/ 2 حالة النوم حيث رزقهم فيها غدوا و عشيا، او النار يعرضون عليها غدوا و عشيا، يكفيهما ساعتان من الليل و النهار.

و ان الحياتين بالنسبة للآخرة قليلة، ثم هم في ذلك التقليل بالنسبة للبث الاولى كعاذرين أنفسهم ان حياة التكليف ما كانت كافية للانتباه.

و اللّه يصدقهم في اصل القلة هنا و هناك نسبيا بالآخرة، و يكذبهم في تحديداتهم الخارفة الهارفة «قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» يوم الدنيا، فلما ذا تغافلتم في هذه القلة عن الاستعداد لتلك الكثرة، و لا يعذرهم في قلة مدّعاة لمجال التكليف اجابة عن تطلبهم «ربنا أرجعنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل» حيث الجواب‏ «أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37) «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 52).

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً 105 فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً 106 لا تَرى‏ فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً 107.

فالقارعة التي تقرع الجبال و تنسفها، فما تراها فاعلة بالإنسان المجرم النسيان العصيان؟! «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ» ما هو مصيرها في قيامتها؟.

و هنا في الاجابة عن ذلك السؤال يتجلى المشهد الرهيب العجيب، فإذا الجبال‏ «يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً» حيث يذرها و يثيرها فلا تبقى منها باقية إلا داثرة فانية، لا كالمتعود من نسفها بشريا لإيجاد المسيرات، و انما «نسفا» ماحقا «فَيَذَرُها قاعاً» أرضا مستوية بعد ارتفاع «صفصفا» ملساء دون كلاء، خلوا من كل نتوء و اعوجاج و ارتتاء، فتصبح أرضا مستوية جرداء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 194

ملساء «لا تَرى‏ فِيها عِوَجاً» بانخفاض كالأودية «وَ لا أَمْتاً» بارتفاع كالروابي و التلال.

و نسف الجبال له عوامل عدة، منها الرجفة المدمرة: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا» (73: 14) و التسيير:

«وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً» (78: 20) «وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً» (18: 47) و بهذه و تلك‏ «تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» (101: 5) و على حد تعبير الامام علي (عليه السلام) «و تذل الشم الشوامخ و الصم الرواسخ فيصير صلدها سرابا رقراقا و معهدها قاعا سملقا».

ثم العوج قد يكون في سطح دون عمق من مرتفعات ام منخفضات، و قد نفتها «قاعاً صَفْصَفاً» ام هو في حجم مضلّع فكذلك الأمر، فليكن عوجا لا يرى كما في حجم مدور، فتصبح الآية من ادلة كروية الأرض، فانها عوج لا يرى لا في حياتها الدنيا و لا في أخراها، و قد انمحت اعوجاجاتها التي كانت ترى حيث «يذرها قاعاً صَفْصَفاً. لا تَرى‏ فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً».

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً 108.

«يومئذ» بعد قيامة التدمير و في قيامة الإحياء و التعمير التي هم فيها يحشرون‏ «يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ» فمن هو الداعي المتّبع هناك؟.

«الداعي» هنا هو اللّه في الأصل، او من يدعو بأمر اللّه، و لكن قرنه في آية القمر برسول اللّه و هو أفضل داع و أحراه من بعد اللّه، قد يحصره هنا في اللّه: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى‏ شَيْ‏ءٍ نُكُرٍ. خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 195

هذا يَوْمٌ عَسِرٌ» (54: 8) و لكنه لا ينافي النفخ في الصور حيث يدعو بأمر اللّه لعود الحياة «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى‏ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (36: 151) «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً» (78: 18).

«يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ» مسيّرين‏ «لا عِوَجَ لَهُ» لا الداعي إليها و لا الصور و لا اتّباعهم له، مهما كانوا معوّجين عن اتّباعه يوم الدنيا، و من اتباعهم له‏ «وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ» في نفي و اثبات، ثم الأصوات:

«فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً» خفيفا، استغراقا في المذلة، إما همسا في كلام، ام في الأقدام، نقلة من أجداثهم الى محشر الحساب، ثم الثواب او العقاب‏ «1».

فهناك اتباع اوّل للداعي نفخا في الصور، و اتباع ثان في موقف الحساب و الى اتباعات أخرى‏ «وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (2: 165) «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (40: 16).

هكذا يخيّم على المحشورين الصمت الرهيب و السكون الغامر العجيب، فالسؤال تخافت، و الكلام و الإقدام همس، و الخشوع ضاف، و الوجوه عانية، و جلال الرحمن يغمر النفوس!.

يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا 109 يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً 110.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 308 عن ابن عباس و الضحاك و عكرمة و سعيد و الشعبي‏ «فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً» أصوات اقدامهم، و عن سعيد بن جبير قال: سر الحديث و صوت الاقدام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 196

«لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ» مما يدل على ان هناك شفاعة، و لكن نفعها محصور في‏ «مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» ففاقد الشرطين لا يشفّع إذا شفّع، بل و لا يشفع إذ «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» (31: 38).

و ترى‏ «مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ ..» هو الشافع؟ و يكفيه اذن و رضى قوله! ام هو المشفّع له؟ و الشافع هو المحور الأصيل في اذن الرحمن و رضى قوله!.

قد تعنيهما الآية، فليكن الشافع مأذونا في شفاعته، و مرضي القول فيها عند الرحمن، و على هامشه المشفوع له مأذونا في ان يشفع له، و مرضيا في قول له، و قد جمعهما فيه‏ «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» (21: 38) اي من ارتضى اللّه دينه و هو من ساءته سيئته و حسنته حسنته.

فقول الشافع المرضي هو ما وقع موقعه الصالح، و قول المشفوع له المرضي هو كلمة التوحيد فانه اصل القول، ثم قوله الذي يعذره عن فعله المحتاج الى شفاعة.

إذا فليست الشفاعة يومئذ فوضى جزاف لا في الشافع و لا المشفوع له و لا المشفوع لأجله، حيث الكل منوطة بإذن اللّه و رضاه.

و من رضى القول و فقه للواقع الصالح و صالح الواقع دون خطإ قاصر او مقصر، حيث «يعلم» اللّه‏ «ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ..» شافعين و مشفوعا لهم‏ «وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» كذلك الأمر.

ثم‏ «ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» هو حاضرهم و ما يستقبلون، «وَ ما خَلْفَهُمْ» هو غابرهم و ما يستدبرون، و «ما خلفهم» هو الذي يتبنى‏ «ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» و هو العالم كل ذلك، فلو ان شافعا قال قولا لا يصدقه الواقع علما منه او جهلا، لم يكن قوله مرضيا، إذ «يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 197

يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً».

«لا يحيطون» بذاته و صفاته و أفعاله و بما يعلم «علما» أيا كان، حيث الحيطة العلمية لزامها مسامات العالم، و المعلوم، له ماله و فيه ما فيه حتى يساويه فيساميه فيحيط به علما، فلا رؤية لاي راء ببصر ام بصيرة «1» اما هيه، إلا معرفة محدودة ممكنة بحق الممكن و كما قال أفضل العارفين و خاتم النبيين (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «ما عرفناك حق معرفتك»

«قد يئست عن استنباط الاحاطة به طوامح العقول و تحيرت الأوهام عن ذكر أزليته» «2»

فضلا عن الحيطة به «إذ هو تبارك و تعالى جعل على ابصار القلوب الغطاء فلا فهم يناله بالكيف، و لا قلب يثبته بالحدود فلا تصفه إلّا كما وصف نفسه:

ليس كمثله شي‏ء و هو السميع البصير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 394 في اصول الكافي بسند عن صفوان بن يحيى قال: سألني ابو قرة المحدث ان ادخله الى أبي الحسن الرضا (عليه السلام) فاستأذنته في ذلك فاذن لي فدخل عليه فسأله عن الحلال و الحرام و الأحكام حتى بلغ سؤاله الى التوحيد فقال ابو قرة: انا روينا ان اللّه قسّم الرؤية و الكلام بين نبيين فقسم الكلام لموسى و لمحمد الرؤية؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) فمن المبلغ عن اللّه الى الثقلين من الجن و الانس‏ «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ» «وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» و «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» أليس محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال: بلى- قال: كيف يجي‏ء رجل الى الخلق جميعا فيخبرهم انه جاء من عند اللّه و انه يدعوهم الى اللّه بأمر اللّه فيقول: لا تدركه الأبصار ... ثم يقول: انا رأيته بعينين و أحطت به علما و هو على صورة البشر اما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة ان ترميه بهذا ان يكون يأتي من عند اللّه بشي‏ء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر- الى قوله: و قد قال اللّه‏ «وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» فإذا رأته الأبصار فقد أحاطت به العلم و وقعت المعرفة، فال ابو قرة: فتكذب بالروايات؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها و ما اجمع المسلمون عليه انه لا يحاط به علما و لا تدركه الأبصار و ليس كمثله شي‏ء».

(2) المصدر في كتاب التوحيد خطبة عن علي (عليه السلام) و فيها: قد يئست ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 198

- الاول و الآخر و الظاهر و الباطن- الخالق البارئ المصور- خلق الأشياء فليس من الأشياء شي‏ء مثله تبارك و تعالى» «1».

وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً 111 وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً 112.

عنت له تعنو خضعت مستأسرة بعناء، و منه يقال للأسير العاني كما

عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان» و عناه يعنيه قصده.

و الوجوه كل الوجوه بكل الوجوه عنت للحي القيوم الذي أحياها بعد موتها، سواء الوجوه التي عنته و عنت له يوم الدنيا، او التي لم تعنه و لا عنت له، و انما عنت و تعنّت، فهنالك الكل‏ «عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ» شاءت ام أبت‏ «وَ قَدْ خابَ» يومئذ «مَنْ حَمَلَ ظُلْماً» بنفسه و الآخرين و بالحق.

و اما الوجوه العانية له تعالى و إياه ايمانا و عملا صالحا «مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ» و ان لم تستوعبها كلها، و انما الصالحات الرئيسية عقائدية و عملية «وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» باللّه‏ «فَلا يَخافُ ظُلْماً» منه إذ لم يظلم، و لا من ربه إذ لا يظلم- «و لا ظلم اليوم»- «وَ لا هَضْماً» لحق من حقوقه‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

و «الوجوه» هنا ليست هي الظاهرة فحسب حيث المحشورون هم بكل كيانهم يعنون الحي القيوم، يواجهونه بظواهرهم و بواطنهم كما يواجههم اللّه تعالى بعلمه و قدرته فثوابه او عذابه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في التوحيد حديث طويل عن علي (عليه السلام) يقول فيه‏ و قد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات و اما قوله ... و لا يحيطون به علما- لا يحيط الخلائق بالله عز و جل علما إذ هو تبارك و تعالى ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 199

«وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ. وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» (75: 25).

و ليس‏ «مَنْ حَمَلَ ظُلْماً» كل من ظلم، فمنهم من يتوب عما ظلم، و منهم من يكفّر عنه صغير ظلمه إذ هو من سيئاته إذا كان تاركا للكبائر، و منهم من يشفّع له حيث اذن له الرحمن و رضى له قولا، فليس أولئك ممن حمل ظلما مهما ظلم، و انما الخائب هو الحامل ظلمه معه يوم القيامة، يخيّب قدر ظلمه و لا يظلمون نقيرا، و من أصدق المصاديق هنا ل «مَنْ حَمَلَ ظُلْماً» المجرمون المرودة لهم آيات التحذير التنديد.

و هنا «فلا يخاف» جزاء للشرط بديلا عن «لا يخف» جزما، علّه لتقدير «هو» «فهو لا يخاف» دون سواه، و ما أحسنه تقديرا لا معا لامحا لذلك الحصر!. ك «وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ»- «فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً».

ثم‏ «وَ لا هَضْماً» بعد «ظلما» هضم و انتقاص عن الثواب، كما الظلم هنا انتقاض للثواب، فالمؤمن الصالح لا يخاف ظلمه و لا هضمه، فقد لا يظلم و لكنه يهضم، و مهما كان الهضم من الظلم و لكنهما كالظرف و المجرور إذا اجتمعا افترقا و إذا افترقا اجتمعا.

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً 113.

«و كذلك» اللائح الواضح وضح النهار لأبعد اغواره في البيان و التبيان «أنزلناه» القرآن- «قُرْآناً عَرَبِيًّا» في لفظه و معناه، في مرماه و مغزاه بمبتدئه و منتهاه، فلا تجد فيه تعقيدا، و لا لفظا او معنى بعيدا «وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ» لمثلث النشآت، ما يحلّ حالا و ما هو آت، دون إبقاء لاي لاي ألوان الوعيد، من قريب و بعيد، فالتصريف تحويل من حال الى حال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 200

حتى تتحول الأحوال بهذه الأهوال‏ «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» المحاظير، و لا يعتذرون، بمعاذير يتقون عقائديا و عمليا، ام و لا قل تقدير يتقون التكذيب بآيات اللّه و الصد عن سبيل اللّه.

«أَوْ يُحْدِثُ» الوعيد «لَهُمْ ذِكْراً» إذا لا يتقون، ذكرا هو حجة عليهم حتى لا يقولوا «رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى‏» (20: 134) و من إحداث الذكر واقع الوعيد المزمجر المدمّر هنا و لمّا يتّقوا أو يتذكروا، و هنا يذّكّرون و «أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى‏ وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ» (44: 13) «وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ. ذِكْرى‏ وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ» (26: 209) «حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (10: 91).

فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى‏ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً 114.

«فَتَعالَى اللَّهُ» عما يصفونه و به يشركون لأنه «الملك» لا سواه «الحق» الثابت الحقيق بألوهيته الوحيدة لا سواه.

«تعالى» في ذاته و صفاته و أفعاله إذ «ليس كمثله شي‏ء- و لا يحيطون به علما»! فكلّ من سواه متدان بجنبه عان، و اللّه تعالى هو المتعالي الملك الحق.

انه ملك و مالك لكل شي‏ء بالحق من تكوين و تشريع و منه قضاء وحي القرآن، فلا تملك منه شيئا إذ لا يملّك وحيه لغيره مهما كان رسول القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 201

و ترى ما هو استعجال الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالقرآن حتى نهي عنه من قبل ان يقضى اليه وحيه؟.

فهل استعجل بنزول آية و لما ينزل لمواعدة بينه و بين بعض الكفار ان يجيبهم عن مسائل و قد ضربوا له أجلا فانقضى و لما ينزل الوحي بالجواب‏ «1»؟ و العجلة بآية ليست عجلة بالقرآن ككل! ثم كيف يعجل الرسول بما اللّه يؤجّله، حيث عجّله الكفار بما قرروا له أجل الجواب! ويكأنه يعلّق قضاء وحي اللّه على الآجال المضروبة من قبل الكفار!.

ام‏

«كان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذا انزل عليه جبريل بالقرآن اتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه، يتخوف ان يصعد جبريل و لم يحفظه فينسى ما علمه فقال اللّه: و لا تعجل بالقرآن؟ ... «2».

و قد ضمن اللّه له من قبل ألا ينساه: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏»! و ليس حفظ القرآن عجلة به بعد نزوله! و ليس من حفظه للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قضاء وحيه! و لا ينافي حفظه مزيد علمه، بل هو تثبيت لما اوحي اليه!.

إنه استعجال بتحريك لسانه به قبل قضاء وحيه تماما او بعضا حيث كان أليفا بمحكم القرآن قبل تفصيله، أنيسا بمعانيه قبل ألفاظه، فكان أحيانا يسبق جبريل في قراءة الوحي و لمّا يقرءه، او لمّا يتم، شغفا بالغا الى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 22: 123 قال الضحاك ان اهل مكة و اسقف نجران قالوا يا محمد أخبرنا عن كذا و كذا و قد ضربنا لك أجلا ثلاثة ايام فابطأ الوحي عليه و فشت المقالة بان اليهود قد غلبوا محمدا فانزل اللّه هذه الآية.

(2) الدر المنثور 4: 309- اخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال كان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ... و قال: لا تحرك به لسانك لتعجل به، أقول راجع تفسير الآية في الجزء 29 من الفرقان تجد تفصيلا لائقا بالبحث هناك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 202

منشور ولايته و سناد رسالته.

و الآية متأيدة في هذا التفسير الأخير بآية القيامة: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ. فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ» (19) كما و تؤيّد بتعقيبها في نفسها:

«وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» فلا يكفيك العلم بمحكم القرآن النازل ليلة القدر، إذ لا يحمل التفصيل و ليس إلا بالوحي، و لا يحمل تلك العبارات الفائقة التصور في أعلى قمم الاعجاز، و ليس إلا بالوحي.

إذا فقضاء وحي القرآن هو إتمامه بعد شي‏ء منه، ف «قضاه» بمعنى أتمه، و القرآن المفصل بلفظه و معناه، هو إتمام للقرآن المحكم: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ».

هذا إتمام لمحكمه بمفصله، و إتمام ثان هو في مفصله و كما يروى «كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذا نزل عليه القرآن بادر بقراءته قبل نزول الآية و المعنى فانزل اللّه‏ «وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى‏ إِلَيْكَ وَحْيُهُ» أي يفرغ من قرائته‏ «وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» «1».

و لا يؤنّب الحبيب إذا عجل بكلام حبيبه شغفا بالغا فيه، اللهم إلّا ان ينهى استكمالا له و كما أمره: «وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً».

و ذلك التعقيب التلحيق العميق ينبهنا ان ليس الرسول محيطا بكل شي‏ء علما، لا! و حتى العلم الرسالي بالفعل، فانما يتدرج في علمه أيا كان، شخصيا كالمعرفة ام رساليا كاحكامها، و

لقد كان يقول: «اللهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 396 في تفسير القمي في الآية قال كان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 203

انفعني بما علمتني و علمني ما ينفعني و زدني علما و الحمد لله على كل حال»

«1».

و المحور الأصيل في العلم المطلوب هنا هو علم القرآن و من ثم السنة و على ضوءهما- و العمل الصالح- علم المعرفة الإلهية و كلما يناسب ساحة الرسالة القدسية.

و

في المروي مستفيضا عن اهل بيت الرسالة عليهم السلام‏ «لولا أنا نزداد لأنفدنا «2».

و ما أحلاه ما

يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه و آله و سلم) ان العلم هو الإنصات له ...» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 309- اخرج الترمذي و ابن ماجه عن أبي هريرة قال كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول ...

(2)

نور الثقلين 3: 397 عن الكافي عن زرارة قال سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: لولا انا نزداد لأنفدنا قال قلت: تزدادون شيئا لا يعلمه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال: اما انه إذا كان ذلك عرض على رسول اللّه (صلّى للّه عليه و آله و سلم) ثم على الائمة ثم انتهى الأمر إلينا، و فيه عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ليس يخرج شي‏ء من عند اللّه عز و جل حتى يبدأ برسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ثم بأمير المؤمنين (عليه السلام) ثم بواحد بعد واحد لكيلا يكون آخرنا اعلم من أولنا.

و

عن المجمع روت عائشة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: إذا أتى علي يوم لا ازداد فيه علما يقربني الى اللّه فلا بارك اللّه لي في طلوع شمسه.

(3)

المصدر 399 عن الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهما السلام) قال‏ جاء رجل الى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال له يا رسول اللّه ما العلم؟ قال:

الإنصات له قال ثم ما؟ قال: الاستماع له، قال: ثم ما؟ قال: الحفظ له، قال:

ثم ما؟ قال: العمل، قال: ثم ما؟ قال: نشره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 204

و

حين يقال لأبي عبد اللّه الصادق (عليه السلام) انا نسألك أحيانا فتسرع بالجواب، و أحيانا فتطرق ثم تجيبنا؟ قال: نعم انه ينكت في آذاننا و قلوبنا فإذا نكت نطقنا و إذا امسك عنا أمسكنا «1».

و

حين يسأل امير المؤمنين (عليه السلام) من أعلم الناس؟ يقول:

من جمع علم الناس الى علمه» «2».

ان‏

«معرفة الله حق معرفته هو رأس العلم» «3»

و سائر العلم و سائلها، و لا نهاية لحق المعرفة و اليقين و كما يؤمر رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ».

وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً 115 علّها اضافة الى بيان واقع سابق من ضعف العزم الإنساني المتمثل في الإنسان الأولى، هي إلى جانب ذلك تكريم لساحة الرسالة القدسية الأخيرة، التي يحملها أعظم اولي العزم من الرسل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 398 في بصائر الدرجات عمران بن موسى عن موسى بن جعفر عن عمرو بن سعيد المدايني عن عيسى بن حمزة الثقفي قال قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) انا نسألك ...

(2) المصدر في الخصال عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سئل امير المؤمنين ..

(3)

المصدر في كتاب التوحيد باسناده الى ابن عباس قال جاء اعرابي الى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال‏ يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) علمني من غرائب العلم، قال: ما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه؟ قال الرجل:

ما رأس العلم؟ يا رسول اللّه؟ قال: معرفة اللّه حق معرفته، قال الاعرابي و ما معرفة اللّه حق معرفته؟ قال: تعرفه بلا مثل و لا شبه و لا ند و انه واحد احد ظاهر باطن أول آخر لا كفو له و لا نظير له فذلك حق معرفته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 205

فأنت يا محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) محافظ لعهد اللّه تماما، و عازم عليه تماما، و لذلك قد تسبق رسول الوحي في قراءته، و اين أنت من آدم حيث عهدنا اليه من قبل فنسي العهد و لم نجد له عزما و ثباتا على العهد!.

و لا نعهد عهدا الى آدم في الذكر الحكيم إلّا ألّا يطيع الشيطان و لا يقرب الشجرة المنهية كما في آيات عدة مثل ما هنا: «فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏» (118).

و نسيان عهد اللّه لو كان عن قصور لا يسمى عصيانا، و ان كان عن تقصير كان عصيانا، «وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً»- «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏» هما في جملة عساكر الادلة القاطعة على نسيانه المقصر العصيان، «وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» تعني أن لم يكن له عزم على تطبيق العهد رغم تقبّله و تصديقه، ف «لم أجد» في غير اللّه أعم من الوجود و عدمه حيث العلم غير مطلق و لا مطبق، و لكنه في اللّه صيغة أخرى عن عدم الوجود، و لماذا «لم نجد» بديلا عن «لم يكن أو لم يوجد له عزم» حيث الثاني يستأصل عزمه كأن اللّه لم يخلق له عزما، إذا فهو قاصر لا يتمكن من عزم، و لكن «لم نجد» تنفي وجود عزمه بما قصّر، لامحة انه خلق له عزما مختارا في تطبيق عهده، و لكنه نسي عهده و ترك عزمه لعهده، فأصبح عهدا دون عزم تقصيرا منه دون قصور، و لذلك يعلن في هذه الإذاعة القرآنية العالمية «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏».

اجل، و كلما كانت النفس أعزم على تطبيق عهد اللّه فهي أعظم عند اللّه، و ابعد عن محارم اللّه، حتى يتصل الى قمة العزم و هي النفوس القدسية لأولي العزم من الرسل و من نحى منحاهم كالائمة من آل الرسول الأقدس محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 206

و نسيان آدم، المقصّر، كان تناسيا على ذكر، و إلا فكيف هنا اصل النسيان و قد ذكره اللّه من قبل بموقفه مع الشيطان: «إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ ..» ام‏

«كيف ينسى و هو يذكره و يقول له إبليس: «ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ»

(7: 30)؟ «1».

و كضابطة عامة لا عصيان إلا بنسيان الرب و عهده تساهلا و تناسيا و تجاهلا عاندا ام عامدا ام عن جهالة، و نسيان اللّه و عهده على أية حال عصيان مهما اختلفت دركاته.

و لقد نبه اللّه آدم حين خلقه و أسجد له ملائكته و تمنّع إبليس عن السجدة، نبّهه بذلك العهد و ذكّره:

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى‏ 116.

و لقد فصلنا القصة و حققناها حسب المستطاع في البقرة و قلنا هناك و في مواضع اخرى ان المسجود له هنا عبودية او احتراما هو اللّه، و آدم هو المسجود له شكرا للّه، كما تقول سجدت لولدي بيانا لدافع سجودك شكرا للّه.

فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏ 117.

عداء سابق على السجدة لماذا أمر بها، و عداء لاحق على مرّ الزمن لماذا لعن بتركها:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 11: 187 ح 43 عن جميل بن دراج عن بعض أصحابنا عن أحدهما قال‏ سألته: كيف أخذ الله آدم بالنسيان؟ فقال: انه لم ينس و كيف ينسى ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 207

«قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 62) «قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (15: 39).

و الشقاء هنا، المتفرعة على الخروج عن الجنة الى الحياة الأرضية، هي التعب و العناء في هذه الحياة، فالشقاء بالكدّ و العمل و الشرود و الضلال و الحيرة و اللهفة و الانتظار و الألم و الفقدان، ام أيا كان، كل هذه تنتظرك خارج الجنة في حياة الشقوة الارضية، و أنت في حمى منها كلها في رحاب الجنة.

و من اصول الشقاء هناك خارج الجنة الجوع و العرى و الظمأ و الضحى:

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏ 118 وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏ 119.

لا جوع فيها حيث الأكل حاضر فيها كما تشهي دون كدّ للحصول عليه، و لا عرى حيث ملابس الجنة تلابسك دون سعى قد يخيب، و لا ظمأ العطش حيث الماء فيها كما تشاء و حيث تشاء، و لا ضحى الشمس حيث الجنة تجن عن الشمس الضاحية، ثم و برودة الهواء و نعامتها من ناحية، و عدم الحاجة الى مظلّات من أخرى، لا تحوجك تكلّف التستر عنها.

و هنا الجوع و العرى يتقابلان مع الظمإ و الضحوة، و هي في مجموعها تمثّل رؤوس متاعب الإنسان و شقاءه في الحصول على حاجيات الحياة و دفع مضراتها.

هذا- و لكنما الإنسان النسيان، الغفلان عن تجاربه مع الشيطان، و الرغبان في البقاء و السلطان، من هذه الثغرات ينفذ اليه الشيطان، ابتلاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 208

بالعصيان و خروجا عن جوار رحمة الرحمن:

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى‏ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى‏ 120.

«ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ. وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ ...»

(17: 21).

الشيطان يحبّذ الى آدم الأكل من الشجرة المنهية، واصفا لها بشجرة الخلد و ملك لا يبلى، بعد أنّ الرحمن يحدره عنها، واصفا لها بشجرة الشقاء و الخروج عن جنة الراحة و البقاء، و يا للإنسان من غفلة و نسيان لعهد اللّه و ذكراه، كيف يميل الى الوسواس الخناس، و يترك عظة اله الناس؟.

أ تراه كذّب اللّه في وعده مصدقا للشيطان، و هو من اكفر الكفر! ام ان شغفه البالغ لخلد الحياة في الجنة و ملك فيها لا يبلى أنساه ذكراه، فنسي عداء الشيطان و الشقاء الناتج عن اتّباعه‏ «فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» فلقد لمس اللعين في نفس آدم الموضع الحساس، و هو تطلّب البقاء، فأنساه العهد و العناء المتوعدة على الخروج من الجنة، فأقدم على المحظور:

فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏ 121.

و هذه السوآت هي العورات، فقد كانت عنهما مستورة، و كان بدوّها من اهداف الشيطان: «لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما» (7: 20) «يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما» (7: 27).

فقد كانت عوراتهما ملبوسة بلباس الجنة و لمّا تبدو لهما منذ خلقا، فلما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 209

اكلا من الشجرة نزع عنهما لباسهما فبدت لهما عوراتهما، عورة ظاهرة كانت خفية، نتيجة عورة باطنة في الروح هي النسيان العصيان، و ليعلم الإنسان انه في قرارة نفسه عورة ظاهرة و باطنة، فعند الامتحان يكرم المرء او يهان، و عند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال.

و بالفعل‏ «فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما» و هي مواضع الجنس و العفة بما أكلا، و مواضع الخفة في الروح لماذا أكلا، فأصبحا عارفين من عورات الروح و الجسم ما أريا «وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» سترا لعورات الجسم، و لكنهما كيف يستران عورات الروح؟:

«أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى‏ ذلِكَ خَيْرٌ» (7: 26) و قد بقي عليهما ان يسترا عورات الروح حيث‏ «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏»!

«و هي أول قدم مشت الى الخطيئة» «1»

و طبعا بين قبيل الإنسان، فان الشيطان سبقه فيها.

و قد تلمح‏ «طَفِقا يَخْصِفانِ» انهما ما قدرا على ان يخصفا، و إلّا لكان حق التعبير «فخصفا» فانما حاولا، و اما واقع الخصف فلا خبر عنه، ثم‏ «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏ ..» كانت مشروطة بعدم الأكل من الشجرة و قد اكلا فليعريا هنا و في الحياة الأرضية.

وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 403 في علل الشرايع باسناده الى الحسين بن أبي العلا عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حديث طويل يقول فيه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لما ان وسوس الشيطان الى آدم دنا من الشجرة و نظر إليها ذهب ماء وجهه ثم قام و مشى إليها و هي اوّل ثم مشت الى الخطيئة ثم تناول بيده مما عليها فأكل فطار الحلي و الحلل عن جسده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 210

و هنا أول انسان يبتلى بأول عصيان، مهما حاول ناس و هم الأكثرية المطلقة من مفسرين و محدثين ان يحوّلوا عصيانه الى ترك الاولى، و لكنه محاولة غافلة فاشلة حيث تخالف نصوص الكتاب و السنة و كما فصلناها على ضوء آية البقرة.

و منهم من يردّد القول ان ذلك كان قبل تشريع الشّرعة، و انه كان نهيا إرشاديا، و تراه ماذا يقصد من الشرعة الإلهية، أ هي المشرّعة منذ الرسالة الأرضية؟ و لا ينافيها حكم واحد تكليفي او يزيد قبل هذه الشرعة! ام تعم اي حكم الهي؟ فقد حكم اللّه قبل الشرعة الارضية احكاما عدة، منها ما أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس، و قد لعن إبليس حين ابى، فهلا هو عاص إذ لم تكن هنا لك شرعة؟ و هو شر عصيان! ام لم يكن الملائكة- إذا- طائعين؟ و هي خير طاعة! فكذلك في عصيان آدم و قد لحق عصيان الشيطان.

فحتى لو كان النهي إرشاديا- و لم يكن- فهو ايضا من الشرعة، و عصيان النهي الارشادي بهذه الصورة العجيبة، هو ايضا في الحق عصيان، ثم طبيعة الحال في الأوامر و النواهي الإلهية انها مولوية ككلّ الا بقرينة قاطعة، ام هي كلها ارشادية حيث ترشد الى مصالح تحملها فردية ام جماعية، فمجرد ان تسمي نهيا إرشاديا- و دون اي برهان- لا يخرج تخلفه عن العصيان، و كما اللّه صرح في هذه الاذاعة القرآنية «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏».

فلو كان تركا للأولى فكان الاولى بل المحتوم في القرآن البيان «و ترك الاولى» دون «و عصى» لا سيما مع تصريحات أخرى تؤيد انه حقا «عصى»: فالنهي المؤكّد عن الاكل منها، ثم فتكونا من الظالمين، و انه زل، و شقي، و عصى، و أهبط من الجنة، و تاب فيها و بعدها، هذه عساكر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 211

سبعة تدلنا على انه حتما «عصى فغوى».

و «عصى» بنفسها تكفي دلالة على اقتراف الحرام و لم تستعمل في القرآن كله إلا في نفس المعنى، كما الظلم و الزلة و الشقاء و الغواية، ثم هذه التوبة العريضة ليست الا عن ارتكاب محرم.

و ترك الاولى تخلفا عن نهي ارشادي كما يقولون، لا يستحق هذه التعابير القاسية القاضية على العدالة فضلا عن العصمة، و لا يستوجب تلك التوبة الطويلة العريضة! و العصمة الضرورية لساحة الرسالة هي منذ الرسالة حتى يقضي الرسول نحبه، دون ما قبلها الا لمن دلت لهم الدلالات القاطعة كالرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و عترته الطاهرة (عليهم السلام) و من نحى منحاهم من اولي العزم ام سواهم.

و ليت شعري ماذا يدفع هؤلاء الأعاظم الى تأويل نصوص الكتاب و السنة في عصيان آدم (عليه السلام)؟

أ استعظاما لشأن آدم (عليه السلام) و القرآن أعظم شأنا أن يؤوّل الى خلاف نصوصه، و ما تشهيره فيه بذنبه إلا

«ان مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة» «1»

و ليعلم ذريته انهم سيبتلون بالشيطان كما ابتلي أبوهم آدم فيتخذوه عدوا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير روح المعاني للالوسي 16: 275- اخرج البيهقي في شعب الايمان عن أبي عبد اللّه المغربي قال: تفكر ابراهيم (عليه السلام) في شأن آدم (عليه السلام) فقال يا رب خلقته بيدك و نفخت فيه من روحك و أسجدت له ملائكتك ثم بذنب واحد ملأت أفواه الناس من ذكر معصيته؟ فأوحى اللّه اليه يا ابراهيم اما علمت ان مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة!؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 212

و لعمر الهي الحق ان ذلك التأويل العليل غريب في نوعه دون اي تعويل إلا على أن الأنبياء معصومون! و لم يكن هذا العصيان إلا قبل نبوته‏ «1» لمكان‏ «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» و القرآن مصرح بذلك العصيان، و لا يوجد في عشرات من الأحاديث الناظرة اليه المفسرة له إلا نفس الذنب و الخطيئة و العصيان، دون ترك الاولى و لا مرة يتيمة.

و غريب من صاحب بحار الأنوار انه يعنون بابا من أبوابه ب «ارتكاب ترك الاولى» سردا لآيات عصيان آدم و رواياته، و لا ينبئك مثل خبير بغربة القرآن الغريبة حيث تؤول آياته البينات دون اي برهان، حتى و إذا صدقت بمتظافر الأحاديث التي هم يؤصّلونها، و يفرعون القرآن عليها «2»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 11: 164 ن عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا علي بن موسى (عليه السلام) فقال له المأمون يا ابن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أ ليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى قال فما معنى قول اللّه عز و جل: و عصى آدم ربه فغوى؟ فقال: ان اللّه تبارك و تعالى قال لآدم (عليه السلام) اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ» و كان ذلك من آدم قبل النبوة و لم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار، «انما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم فلما اجتباه الله تعالى و جعله نبيا كان معصوما لا يذنب صغيرة و لا كبيرة قال الله عز و جل: وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏ ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏ و قال الله عز و جل: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ».

(2)

البحار ج 11 و هذا الباب يشمل (48) صفحة من 155- 203- و فيها عشرات من الأحاديث الدالة على انه حقا كان عصيانا و فيما يلي عشرة منها تقدم واحد تحت الرقم (1): ص 163 ح 6 «فس أبي عن ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ان موسى سأل ربه ان يجمع بينه و بين آدم عليهما السلام) فجمع فقال له موسى: يا أبه! الم يخلقك الله بيده و نفخ فيك من روحه و اسجد لك ملائكته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 213

اجل انه عصى فغوى، و لكنها معصية صغيرة حيث نسي و اغتر بما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و أمرك الا تأكل من الشجرة فلم عصيته؟ قال: يا موسى بكم وجدت خطيئتي قبل خلقي في التوراة، قال: بثلاثين سنة، قال: فهو ذلك، قال الصادق (عليه السلام) فحج آدم موسى».

أقول: وجد ان خطيئة في علم اللّه لا يبررها حيث العلم ليس علة للعصيان، و هل كان آدم يعلم ان اللّه يعلم بخطيئته في المستقبل؟ ام سيّره على خطيئته إذا فهو خطيئة من اللّه و سبحان اللّه، إذا فكيف حج آدم موسى، و على فرض الغض عن ذلك فهما معترفان انه كان خطيئة لا تركا للأولى، و الا لكان آدم يحجه بذلك دون العلم السابق.

ح 7

«فس روى عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: لما اخرج آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل (عليه السلام) فقال يا آدم أ ليس الله خلقك بيده و نفخ فيك من روحه و اسجد لك ملائكته و زوجك حواء أمته و أسكنك الجنة و أباحها لك و نهاك مشافهة ان لا تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها و عصيت الله؟ فقال آدم يا جبرئيل ان إبليس حلف لي بالله انه لي ناصح فما ظننت ان أحدا من خلق الله يحلف بالله كاذبا.

ح 10 عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: لولا ان آدم أذنب ما أذنب مؤمن ابدا و لو لا ان الله تاب على آدم ما تاب على مذنب ابدا.

ح 15- عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ان الله تبارك و تعالى لما أراد ان يتوب على آدم أرسل اليه جبرئيل فقال له: السلام عليك يا آدم الصابر على بليته التائب من خطيئته ...».

ح 18- عن زر بن حبيش قال‏ سألت ابن مسعود عن ايام البيض ما سببها؟ و كيف سمعت؟ قال: سمعت النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ان آدم لما عصى ربه عز و جل ناداه مناد من لدن العرش يا آدم اخرج من جواري فانه لا يجاورني احد عصاني فبكى و بكت الملائكة فبعث اللّه عز و جل اليه جبرئيل فاهبطه الى الأرض مسودّا فلما رأته الملائكة ضجت و بكت و انتحبت و قالت يا رب خلقا خلقته و نفخت فيه من روحك و أسجدت له ملائكتك بذنب واحد حولت بياضه سوادا ... ثم و اصل في بيان ما كلفه آدم ايام البيض الثلاثة حتى صار كله بياضا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 214

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ح 25- عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان آدم بقي على الصفا أربعين صباحا ساجدا يبكي على الجنة و على خروجه من جوار اللّه عز و جل فنزل عليه جبرئيل فقال يا آدم، ما لك تبكي؟ قال: يا جبرئيل مالي لا ابكي و قد اخرجني اللّه من جواره و اهبطني الى الدنيا؟ قال: يا آدم تب اليه ....

ح 29- عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان آدم لما طاف بالبيت فانتهى الى الملتزم فقال جبرئيل أقر لربك بذنوبك في هذا المكان، فوقف آدم فقال: يا رب ان لكل عامل اجرا و قد عملت فما اجري فأوحى اللّه تعالى اليه يا آدم من جاء من ذريتك الى هذا المكان فأقر فيه بذنوبه غفرت له.

ح 35 من أبي جعفر (عليه السلام) قال: الكلمات التي تلقى بهن آدم ربه فتاب عليه قال: اللهم لا اله الا أنت سبحانك و بحمدك اني عملت سوء و ظلمت نفسي فاغفر لي انك أنت التواب الرحيم لا اله الا أنت سبحانك و بحمدك عملت سوء و ظلمت نفسي فاغفر لي انك أنت خير الغافرين».

ح 36- من عطاء عن أبي جعفر عن أبيه عن آبائه عن علي (عليهم السلام) عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال‏ انما كان لبث آدم و حواء في الجنة حتى خرج منها سبع ساعات من ايام الدنيا حتى اكلا من الشجرة فاهبطهما الى الأرض من يومها ذلك قال: فحاج آدم ربه فقال يا رب أ رأيتك قبل ان تخلقني كنت قدرت علي هذا الذنب و كل ما صرت و انا صائر اليه او هذا شي‏ء فعلته انا من قبل لم- ان- تقدره علي غلبت علي شقوتي فكان ذلك مني و فعلي لا منك و لا من فعلك؟ قال له يا آدم انا خلقتك و علمتك اني أسكنك و زوجتك الجنة و بنعمتي و ما جعلت فيك من قوتي قويت بجوارحك على معصيتي و لم تغب عن عيني و لم يخل علمي من فعلك و لا مما أنت فاعله و قال آدم يا رب الحجة لك علي ... قال اللّه يا آدم انا اللّه الكريم خلقت الخير قبل الشر و خلقت رحمتي قبل غضبي و قدمت بكرامتي قبل هواني و قدمت باحتجاجي قبل عذابي، يا آدم الم أنهك عن الشجرة و أخبرك ان الشيطان عدو لك و لزوجتك و أحذركما قبل ان تصيرا الى الجنة و أعلمكما انكما ان أكلتما من الشجرة كنتما ظالمين لأنفسكما عاصيين لي، يا آدم لا يجاورني في جنتي ظالم عاص لي، قال فقال: يا رب الحجة لك علينا. ظلمنا أنفسنا و عصينا و إلا تغفر لنا و ترحمنا نكن الخاسرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 215

قاسمه إبليس‏ «1» و كان ذلك قبل رسالته‏ «2» فانه:

ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏ 122.

الاجتباء من الجباية: الجمع، و الافتعال جمع متكلّف فيه، و إذ لا تكلف في افعال اللّه تعالى، فليكن اصطفاء له بعد صفاءه بتوبته و هداه، فللعصمة مرحلتان، إخلاص خلقي، ثم إخلاص من اللّه، فلما يجبي الإنسان نفسه لربه كما يستطيع، فقد يجتبيه ربه لنفسه رسولا منه الى خلقه، و «ربه» هنا دون «اللّه» ام‏ «رَبِّ الْعالَمِينَ» تلمح لهذه الربوبية الخاصة في ذلك الاجتباء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام): و الصادق حقا هو الذي يصدق كل كاذب بحقيقة صدق ما لديه و هو المعنى الذي لا يسع معه سواه او ضده مثل آدم (عليه السلام) صدق إبليس في كذبه حين اقسم له كاذبا لعدم ما به الكذب في آدم (عليه السلام) قال اللّه عز و جل: و لم نجد له عزما، و لان إبليس كان أول من ابتدأ بالكذب و هو غير معهود و أظهره و هو غير مشروع و لا يعرف عند اهل السماوات و الأرض ظاهرا و باطنا فحشر هو بكذبه على معنى لم ينتفع به من صدق آدم (عليه السلام) على بقاء الأبد و أفاد آدم بتصديق كذبه شهادة اللّه عز و جل بنفي عزمه عما يضاد عهده في الحقيقة على معنى لم ينتقض من أصفيائه بكذبه شيئا».

. (2)

نور الثقلين في عيون الاخبار باسناده الى أبي الصلت الهروي قال: لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا (عليه السلام) اهل المقالات من اهل الإسلام و الديانات من اليهود و النصارى و المجوس و الصابئين و ساير المقالات فلم يقم احد الا و قد الزمه حجته كأنه القم حجرا قام اليه علي بن جهم فقال له يا بن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أ تقول بعصمة الأنبياء فقال نعم قال فما تعمل في قول اللّه عز و جل: و عصى آدم ربه فغوى؟ فقال: ان اللّه عز و جل خلق آدم حجته في ارضه و خليفته في بلاده لم يخلقه للجنة، و كانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض لتتم مقادير اللّه عز و جل فلما اهبط الى الأرض و جعل حجة و خليفة عصم بقوله عز و جل: ان اللّه اصطفى آدم و نوحا و آل ابراهيم و آل عمران على العالمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 216

و «ثم» هنا تجعل اجتباءه الرسالي متأخرا عن توبته تعالى عليه و هداه، و هذه طبيعة الحال في الاجتباء، كما ان‏ «فَتابَ عَلَيْهِ» تدل على توبته الى اللّه فتاب اللّه عليه، و هذه التوبة محفوفة بتوبتين من اللّه الى التائب، من قبل حتى يتوب الى اللّه، و من بعد توبة من اللّه عليه تقبلا منه، حتى يتوب عليه: «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» (9: 119).

كما أنّ «و هدى» هي هدى بعد توبة اللّه عليه ثانية، و ليس الاجتباء إلا بعد هذه الهدى، فهو المرحلة الخامسة بعد تخطيّه هذه الأربع، توبات ثلاث و هدى، و الاجتباء هدى رسالية بعد الهدى الخاصة المبيّنة صلاحية الرسول كشخص، و هي المعنية بالهدى التالية:

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏ 123! هنا «قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً» و في سواها «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً» (2: 38) «اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» (2: 36) و و 7: 24) فهل المخاطب مثنى فكيف الجمع في ذلك الجمع؟ ام هو جمع فلما ذا المثنى في هذه اليتيمة؟.

«اهبطوا» في هذه الثلاث الاخيرة تجمع آدم و زوجه و الشيطان، و «اهبطا» هنا بقرينة الجمع في «يأتينكم» و العداء في‏ «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» تعني نفس الجمع، و التثنية اعتبارا بالفريقين المتناحرين على طول خط الحياة، فالعداء الأصيل هو بين الشيطان و الإنسان ككلّ، و يتفرع عليه عداء ثان بين قبيل الإنسان‏ «قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ» (17: 53) و هنا احتمال ثان ان التثنية تعني قبيلي الرجال و النساء المنتسلين من الأولين، و مباعضة العداء تعم عداء كل للآخر، و عداء كلّ مع قبيله،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 217

ثم الشيطان رأس الزاوية في كل عداء.

و ذلك العداء بين قبيل الإنسان، و اثره عليه من قبيل الشيطان، هما لا يزولان ام يخفان إلا بهدى اللّه الملك المنان:

«فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً» و نون التأكيد تنسف التردد في إتيان هدى الى التأكد منها، و «هدى» هذه، الآتية بعد الهبوط، ليست هي الفطرية و العقلية و الحسية و قد أوتيها كل مكلف منذ خلقه، بل هي الهدى الرسالية بالوحي، غير المستطاعة لهم، سواء أ كانت هدى العقل صدا عن اخطاءه اما زاد، و عليها هي مادة الرسالة الاولى التي حملها آدم (عليه السلام) حيث الشرعة الإلهية بفروعها الأحكامية الشاملة انما ابتدئت من نوح: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ ..» (42: 43) فقد «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ ..» (2: 213) و النبيون هنا هم حملة الشرائع منذ نوح الى محمد (عليهم السلام)، و آدم كان رسولا مهديا بهدي الدلالات العقلية الناضجة و لم يكن نبيا، حيث النبوة هي منزلة رفيعة في الرسالة، و آدم لم يحظو إلا مرتبة دانية بدائية من الرسالة.

«فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ» في أية شرعة الهية «فَلا يَضِلُّ» اتباعا للشيطان، و عداء بعضهم لبعض، و قصورا للعقل عن كامل المصلحة الحيوية، و بالنتيجة «وَ لا يَشْقى‏» بالرغم من ان الحياة الدنيا هي حياة الشقاء، و باحرى‏ «لا يَشْقى‏» في البرزخ و الأخرى، فالشقاء في الحياة لمتبع الهدى منفية، في عيشة راضية مرضية، و قد يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في تفسير آية الهدى‏

«من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا و وقاه سوء الحساب يوم القيامة ..» «1»

و هذا تفسير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 311- اخرج ابن أبي شيبة و الطبراني- و ابو نعيم في الحلية و ابن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 218

تطبيقي للهدى بأفضل مصاديقها.

و ترى كيف يهدّد آدم إذا عصى بأنه يشقى، و إذا أطاع فلا يشقى، و هنا يعده مرة اخرى‏ «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏» في هذه الحياة الارضية الشقاء؟.

علّه لان الشقاء المهدد بها تعم النشآت الثلاث روحية و بدنية، و هي تجبر باتباع الهدى، إلا بدنية في الاولى، لا تحسب بشي‏ء بجنب الرياحة الروحية برضوان من اللّه.

صحيح ان آدم اهبط من الجنة بما عصى، و لكنه زوّد في الحياة الارضية بزاد التقوى التي تجعل له منها جنة المأوى، اضافة الى حياته الحسنة في الدنيا، و الجنة التي يخلفها الإنسان بما سعى، خير من جنة دخلها دون ان يسعى.

[سورة طه (20): الآيات 124 الى 135]

وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ (124) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى‏ وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى‏ (126) وَ كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقى‏ (127) أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى‏ (128)

وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى‏ (130) وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى‏ ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ (131) وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى‏ (132) وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى‏ (133)

وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى‏ (134) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدى‏ (135)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ... و ذلك ان اللّه يقول: فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 220

وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ 124.

«ذكري» هنا هو «هداي» هناك، و كما الذكر درجات كذلك الاعراض عن الذكر دركات تجمعها «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» و «ذكري» بين آفاقي و أنفسي، و من أفضل الأول القرآن و رسول القرآن و يتلوه من يتلوه‏ «1» و الثاني فطري و عقلي، و كل ذلك من مصاديق «ذكري» على اختلاف درجاتها.

و كيف‏ «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي» و جاه‏ «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ» و الصيغة الصالحة «من لم يتبع هداي»؟ عله لان هناك من لا يتبع هداه و لا يعرض عنها، كالمستضعفين الذين لا يجدون حيلة و لا يهتدون سبيلا، في قصور مطلق ام طرف من التقصير لا يؤخذ بعين الاعتبار.

و كذلك العصاة الذين هم مصيرهم الى الجنة، إذ لم يعصوا اللّه اعراضا عن ذكره و هداه، و انما غلبت عليهم شهوتهم و شقوتهم و أركسوا فيها دون اعراض، فالصيغة الصالحة- إذا- كما هيه: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ..» و الآيتان تتحدّثان عن كتلة الايمان الصائب و الكفر الثاقب، و اما العوان بينهما فلا ذكر عنهم في آية الذكر و الهدى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كفاية الخصام 496- ابو صالح عن ابن عباس في الآية قال تعني الذي ترك ولاية علي (عليه السلام) أعماه اللّه و أصمه، أقول. و فيه روايات مستفيضة من طرق أصحابنا عن أئمتنا (عليهم السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 221

و المعيشة فعيلة من العيش و هو بالنسبة للمعرضين عن ذكر اللّه عيش الحياة الحيوانية التي يظن انهم منها في رياحة دائبة، و اما الروحية فهي خاوية عنهم و هم خاوون عنها، و لان الروح يتطلب- فطريا- اللامحدود من الكمال، و هم اثّاقلوا الى الحياة الدنيا و اطمأنوا بها، فلا يجدون بغيتهم فيها، و هم في نفس الوقت في تزعزع و تلكع دائب إذ لا ينالون منها غاية ما يحبون فيها.

فالمعيشة الضنك المخلّفة من الاعراض عن ذكر اللّه هي الضلال المبين و الشقاء الأشقى‏ «وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» هي ابرز مصاديق المعيشة الضنك، ثم البرزخ ثم الدنيا» «1».

و القلب الهاوي المضطرب المرتكن الى الدنيا و لذاتها لا يعيش صاحبه الا معيشة ضنكا مهما كان في سعة و متاع، حيث المقطوع الصلة عن اللّه و الاطمئنان الى حماه هو في ضيق و ضنك الحيرة، حرصا على حاضره، و حزنا على غابره، و طمعا في مستقبله بكل محاظره، فهو دائبا يعيش ضنك الجري وراء بوارق المطامع و الحسرات على ما لا يناله، و

قد يروى عن رسول الهدى قوله‏ «عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة و العسر في الشدة و أن لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله تعالى» «2».

و هذه هي الدنيا التي لا جزاء فيها، فكيف بالآخرة؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 311 عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) في الآية قال: عذاب القبر.

(2) التفسير الكبير للفخر الرازي 22: 131 روي عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) انه قال: ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 222

«وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» كما كان يوم الدنيا أعمى و اين عمى من عمى؟.

و تراها عمى عن البصر فلا يبصرون هناك شيئا؟ فكيف يقال لهم‏ «اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 14) «إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا» (32: 12).

ام عمى عن البصيرة؟ و لم تكن لهم بصيرة في الاولى حتى يعموا عنها في الاخرى!.

الأصل في العمى هي التي عن البصيرة: «وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى‏ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى‏ وَ أَضَلُّ سَبِيلًا» (17: 72) فهي- إذا- عمى الضلال عن السبيل، مهما كان بصيرا بالبصر الحيواني و أرقى‏ «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (22: 46) و «أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى‏ أَبْصارَهُمْ» (47: 23) «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ» (2: 18).

ام انها تجمع لهم عمى البصر الى عمى البصيرة حين يحشرون، ثم يرجعون الى ابصارهم ليروا بها ما يوحشهم عذابا فوق العذاب، و من ذلك مسرح الأعمال التي يرونها، و مختلف ألوان العذاب و مظاهر التجديف و التخويف التي يرونها، دون ان يروا او ينتظروا خيرا ينالونها «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» تحد البصر الى ما يزعجك، و لكنه أعمى من النظر الى ما يبهجك‏ «1».

قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى‏ وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً 125.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الكافي باسناده عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: من مات و هو صحيح موسر لم يحج فهو ممن قال اللّه عز و جل: و نحشره يوم القيامة أعمى- قال: قلت سبحان اللّه أعمى؟ قال: نعم أعماه اللّه عن طريق الحق».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 223

كنت بصيرا بصر البصر، و بصيرا بصر البصيرة الحذق و السياسة الحيوية، و علّ‏ «كُنْتُ بَصِيراً» هي باعتبار الاكثرية المطلقة، ام ان الأعمى لا يعرض عن ذكر اللّه، او انه حكاية حال البصير منهم حيث الأعمى لا يسأل هكذا، و الأعمى المؤمن البصير يحشر بصيرا لبصارته الإيمانية، و المعرض عن ذكر اللّه البصير يحشر أعمى فسنادا الى الضابطة العادلة:

«كما تعيشون تبعثون» يقول‏ «لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى‏ ..»؟ و الجواب.

الحاسم:

قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى‏ 126.

«كذلك» الذي عشت قد حشرت، إذ كنت أعمى عن إبصار الحق و سماعه و التفكر فيه على التماعه حيث‏ «أَتَتْكَ آياتُنا» مبصرة و مسموعة و معقولة «فسنيتها» انها آياتي، و أعرضت عنها و قد كانت ذكرى، و هكذا تحشر أعمى كما كنت أعمى‏ «وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى‏» حرمانا عن البصيرة مدى حياتك في الاخرى، و عن البصر حيث ضيعته فيما لا يعنى، ابطالا له عما يعنى!.

و ذلك ظهور الحالات الدنيوية في الملكوت، ان تظهر عمى البصيرة على البصر، فالهول الشامل حين الحشر من ناحية، و العمى الحائلة عن إبصار المسرح المفجع من اخرى، انه عذاب فوق العذاب، مهما يرجع بصيرا بعد ردح ام في فترات لكي يرى العذاب، عذابا من نوع آخر فوق العذاب، فعماه حشرا عذاب، و إبصاره بعده عذاب جزاء بما كانوا يعملون و لا يظلمون نقيرا.

وَ كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقى‏ 127.

«و كذلك» البعيد المدى الشديد الصدى‏ «نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ» و تولى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 224

«وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ» نجزي معيشة ضنكا في الدنيا «وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقى‏» لو كانوا يعلمون، و هنا تنتهي الجولة بطرفيها الصالح و الطالح، و بالتالي جولة للطالحين هي اقرب من الاخرى، فانها واقع تشهده العيون ان كانت الاخرى غيبا عن العيون:

أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى‏ 128.

«هدى له» هي الهدى الصالحة لمن يهتدي بها حجة بالغة عليه‏ «أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ» أولاء المعرضين عن ذكري‏ «كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ» الخالية البالية بما أسرفوا و لم يؤمنوا، و هم أولاء «يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ» و يرون بأمّ أعينهم آثارهم الخاوية «إِنَّ فِي ذلِكَ» الإهلاك في قرون مضت «لآيات» بينات‏ «لِأُولِي النُّهى‏» جمع نهية و هي العقل الناهي عن هوى النفس، و اما المعقول بعقال النفس فهو معرض عن آيات ربه و ذكره.

فحين تجول القلوب و العين في مصارع القرون، و تطالع العين و يطلع الضمير على آثارهم و مساكنهم عن كثب، و يتصور الإنسان النسيان شخصوهم الذائبة و أشباحهم الهاربة، حين يتأمل ذلك الحشد من الأشباح و الصور ثم لا يرى منهم أثرا إلا بيوتا خاوية و مساكن خالية، عندئذ يستيقظ للهوة التي تفغر فاها لتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر و «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى‏».

وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى‏ 129.

و الكلمة السابقة هي قوله في الأعراف‏ «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (24) و نظائرها الدالة على ان اليوم عمل و لا حساب و غدا حساب و لا عمل، و ما إهلاك قرون خلت او تأتي إلا نموذجا منبها من العذاب، و لولا هذه الكلمة «لكان» إهلاك المعرضين عن ذكر اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 225

«لزاما» لهم دون إبقاء: «وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» (42: 14).

و ترى ما هو موقف‏ «وَ أَجَلٌ مُسَمًّى» مرفوعا في آيتنا؟ أجمل المحتملات اللائقة بكلام اللّه كون «اجل» اسما ل «كان» التامة، و قد كانت ناقصة للمعطوف عليه، فالمعنى «لكان لزاما و كان اجل مسمى» خلاف ما أجلّه اللّه متاعا الى حين.

و الأجل- في كلمة سبقت- هو اجل الموت المقدّر لكل احد معلقا ام مسمّى، و لولا كلمة سبقت لكان إهلاكهم لزاما و لكان اجل مسمى خلاف الباقين الذين لهم أجلا معلق و مسمى.

فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى‏ 130.

«فاصبر»- «وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» (16: 137) و للّه‏ «فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ» و يتقولون عليك و على رسالتك العظمى‏ «فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ» و لكي ينشرح صدرك عما أضاقوه فاتّجه الى ربك كما أنت و زيادة «وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» الذي رباك و ليريبك اكثر مما أنت، «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» في هدأة الصباح و هو يتنفس متفتحا بالحياة، و «قَبْلَ غُرُوبِها» في هدأة ثانية عن زحمة النهار و سبحه الطويل، و الكون يغمض اجفانه، و الشمس تلبس أكفانها، كذلك‏ «وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ» قبل منتصفه فرضا و بعده- «نافِلَةً لَكَ عَسى‏ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً»- كذلك‏ «وَ أَطْرافَ النَّهارِ» بكرة و ظهيرة و عشية «لَعَلَّكَ تَرْضى‏» بهذه المواصلة في التسبيح بالحمد، ازاحة عما يضيق بك، و إراحة لخاطرك الخطير، و هذه الرضا ثمرة حاضرة للتسبيح تطمئن القلب في حمى الرحمن.

هذه، و في مكية ثانية «فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 226

طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ. وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ» (50: 40).

و في ثالثة «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ» (11: 114).

أ ترى ما هي الملائمة بين هذه الثلاث و في الاولى‏ «أَطْرافَ النَّهارِ» و أقلها ثلاثة، و الثالثة «طَرَفَيِ النَّهارِ» فأين هنا الظهيرة و هي من الصلاة الوسطى، و هناك تذكر الفجر و العصر مرتين ثانيتهما في‏ «أَطْرافَ النَّهارِ» و الظهيرة هي الطرف الأوسط تذكر فيها اشارة، ثم الثانية كما الثالثة تلغي الظهيرة؟

الأخيرتان تتجاوبان في الفجر و العصر و في فريضة الليل كلا او بعضا، و كأن ذلك كان قبل فرض الظهيرة، و الاولى تلمح لها انها من الفرائض اليومية ثم فرضت صراحا في العهد المدني بتمام فريضة الليل و كأنها العشاء، فأطراف النهار أقلها ثلاثة أوسطها الظهيرة «1»، أم انها تجمع بين الفرائض و النوافل اليومية، ام تعني الأعم من الصلاة كما الثانية، «وَ أَدْبارَ السُّجُودِ» قد تلمح ان التسبيح بالحمد فيها غير الصلاة.

و خصوص الخطاب فيها للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قد يرجح الأخير، لا سيما و ان الصلاة لا يعبر عنها في الفصحى بغير صيغتها إلا ان يعنى أعم منها، فالأوسط هو الأوسط بين الاحتمالات الثلاث و اصدق مصاديق التسبيح بالحمد هو الصلاة.

ثم قد يتأكد أن طرفي النهار و قبل طلوع الشمس و قبل غروبها، هما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الثانية في ج 29: 297- 300 للحصول على بيان يشابه ما هنا باختلاف يسير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 227

الفجر و العصر و كما يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «1» و من أطراف النهار التطوع بالنهار «2».

وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى‏ ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ (131).

«عينيك» الظاهرتين، او الظاهرة و الباطنة استعظاما ل «ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ» من اموال و بنين و سائر الحيويات الحيوانية الدانية في هذه الدنيا، و «أزواجا» هي القرناء فروعا و أصلاء، مهما شملت ازواج الزواج، فانها لا تختصها حيث المتع لا تحصر فيهم مهما كانت متعة الجنس من أعلاها، و لكنها تعم عامة الذكران و الإناث.

و «زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا» هي الطالعة فيها كما تطلع زهرات النباتات، و لكنها سريعة الذبول و الأفول، و كذلك زهرات الدنيا بأسرها الا ما يتذرع بها الى الاخرى.

و هذه الزهر و المتع ليست لهؤلاء الأنكاد إلا «لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ» فيما متعناهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 312- اخرج الطبراني و ابن مردويه و ابن عساكر عن جرير عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: قبل طلوع الشمس صلاة الصبح و قبل غروبها صلاة العصر و فيه عن عمارة بن رومية سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: لن يلج النار احد صلى قبل طلوع الشمس و قبل غروبها.

(2)

نور الثقلين 3: 407 في الكافي عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال‏ قلت له: و أطراف النهار لعلك ترضى قال: يعني تطوع بالنهار

و

فيه في تهذيب الأحكام عن زرارة عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل و فيه‏ بعد ان ذكر (عليه السلام) ما جرت به السنة في الصلاة فقال ابو الخطاب: أ فرأيت ان قوي فزاد؟

قال: فجلس و كان متكئا فقال: ان قويت فصلها كما كانت تصلى و كما ليست في ساعة من النهار فليست في ساعة من الليل ان اللّه عز و جل يقول‏ «وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 228

به فليست لها بقاء، و حتى إذا بقيت طيلة الحياة «رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏» إذ تخطى الاولى الى البرزخ و الاخرى ثم لا فناء.

و ليس ذلك تحريما لزينة اللّه‏ «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ..»؟ بل هو دعوة الى التمسك و الاعتزار بالقيم الاصلية الباقية، فلا تتهاوى النفوس امام المتعة و الزهرة و الثراء، و

قد يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): قوله: «ان أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا، قالوا: و ما زهرة الدنيا يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: بركات الأرض» «1»

و قد تعزّيه الآية عن فقره و غناهم‏ «2».

وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى‏ 132.

و مهما كان الأمر بالصلاة يعم كافة المسلمين و عامة المكلفين و لكن «أهلك» هم أحرى بذلك‏ «وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها»: الصلاة ان تقيمها و تأمر أهلك بها، و ان تقرّب بها و تقرّب الى اللّه زلفى، فهناك اصطبار على إقام الصلاة لتكون كلها صلاة و معراجا الى الأفق الأعلى، و اصطبارا آخر على الأمر بها مهما كان فيه إمر.

و ما أحرى عليا و فاطمة أهلا للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 313- اخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ....

(2)

المصدر اخرج جماعة عن أبي رافع قال‏ أضاف النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ضيفا و لم يكن عنده ما يصلحه فأرسلني الى رجل من اليهود ان بعنا او أسلفنا دقيقا الى هلال رجب فقال لا الا برهن فأتيت النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فأخبرته فقال: اما و اللّه اني لأمين في السماء و أمين في الأرض و لو اسلفني أو باعني لأديته إليه اذهب بدرعي الحديد فلم اخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 229

لذلك تراه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لما

نزلت كان يجي‏ء الى باب علي صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: الصلاة رحمكم اللّه‏ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» «1»

فقد

«امر الله نبيه ان يخص اهل بيته و اهله دون الناس ليعلم الناس ان لأهله عند الله منزلة ليست لغيرهم من عامة الناس ثم أمرهم خاصة» «2».

و لا تحسبن انا نسألك في الصلاة- امرا و تطبيقا- رزقا و حظوة روحية لنا، كلا «لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً» بل‏ «نَحْنُ نَرْزُقُكَ» بصلاتك و سواها من أرزاق روحية أما هيه، و الحياة «العاقبة» التي تعقب هذه الدنيا «للتقوى» و هي حياة الرجعة و البرزخ و القيامة فانها من ايام اللّه، و هذه السفرة المثلثة لا زاد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر اخرج ابن مردويه و ابن عساكر و ابن النجار عن أبي سعيد الخدري قال لما نزلت ....

(2) نور الثقلين 3: 408 في عوالي اللئالي و روي عن الباقر (عليه السلام) في قوله تعالى: و أمر أهلك بالصلاة و اصطبر عليها قال: ... و

فيه في عيون الاخبار في باب ذكر مجلس الرضا (عليه السلام) مع المأمون في الفرق بين العترة و الامة قالت العلماء هل فسر اللّه تعالى الاصطفاء في الكتاب فقال الرضا (عليه السلام) فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موضعا ..

و اما الثاني عشر فقوله عز و جل «و امر أهلك بالصلاة و اصطبر عليها فخصنا الله تعالى بهذه الخصوصية إذ أمرنا مع الأمة باقامة الصلاة ثم خصنا من دون الأمة فكان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يجي‏ء إلى باب علي و فاطمة (عليهما السلام) بعد نزول هذه الآية تسعة أشهر كل يوم عند حضور كل صلاة خمس مرات فيقول الصلاة رحمكم الله، و ما أكرم الله أحدا من ذراري الأنبياء (عليهم السلام) بمثل هذه الكرامة التي أكرمنا بها و خصنا من دون جميع اهل بيته فقال المأمون و العلماء:

جزاكم الله اهل بيت نبيكم عن الأمة خيرا فما نجد الشرح و البيان فيما اشتبه علينا الا عندكم» أقول: تجد مجموعة هائلة من المسانيد حول القضية في تفسير آية التطهير فراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 230

لها أفضل من التقوى: «وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى‏».

وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى‏ 133.

فلانهم تعوّدوا في ماضي الرسالات بالآيات البصرية، و آية هذه الرسالة الاخيرة بصيرة هي القرآن، لذلك ما كانوا يعتبرونه آية رسالية «وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ» و القرآن أفضل آية من ربه، ألم تأتهم هذه المفضلة الخالدة الناصعة «أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى‏» آيات بصرية تصدقها، و هم كانوا ناكريها؟ فهم لا يؤمنون بآيات الرسالات، سواء أ كانت بينة ما في الصحف الاولى، ام بينة الصحيفة الاخرى.

و من‏ «بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى‏» البشارات التي تضمنتها بحق هذه الصحيفة الاخرى و رسولها «1»: «إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى‏. صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏» (87: 19) و منها ما في كتاب اشعياء «كي بلعجي شافاه و بلا شون احرت يدبر إل ها عام هذه» (28: 11) لأنه بلهجة لكناء بشفاه اعجمية و بلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب» فان كل لغة تعتبر غيرها اعجمية و منها العبرانية، فالعربية بجنبها اعجمية لكناء، غير مفهومة للإنسان العبراني.

و منها القرآن نفسه فانه آية بينة غير مدخولة من الصحف الأولى و كما

يروى عن الامام علي (ع): «فجاءهم بنسخة ما في الصحف الأولى و تصديق الذي بين يديه و تفصيل الحلال من ريب الحرام» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و قد أفردنا لسردها كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماواة».

(2) نور الثقلين: 5: 558 ح 228 مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (عليه السلام) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 231

وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى‏ 134.

«قبله» تعني قبل الرسول قضية الذكورة، و قبل القرآن البينة لمحة من «آياتك» و لان محمدا هو القرآن البينة و القرآن بينة محمد فالمعنيان معنيّان، فلو كان المرجع فقط البينة فلتكن «من قبلها» ام فقط هو الرسول فكيف نتبع آياتك من دون القرآن؟.

و هذه الآية من براهين عدم الإهلاك و استحالته في عدل اللّه قبل إتمام الحجة بشرعة الهية، و لكنها لا تنفي عذابا في الاخرى بتخلف عن حجة العقل و الفطرة، إلا أن تنفيه ايضا «وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (17: 15) و التفصيل في تحصيل بالغ راجع الى تفسير هذه الآية.

إذا فبعد تمام الحجة و بالغ المحجّة و التخلف فالعذاب لا محالة واقع بعد الموت، و قد يحل قبله إذا فاحش الظلم و الطغيان ذكرى للظالمين، و حفاظا على العالمين، فسحا لهم بما يعملون لما يأملون، و كسحا للظلم المدمّر لمسرح التكليف: «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (4: 165).

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدى‏ (135) «كل» منا «متربص» عاقبة امره حيث الإنسان أيا كان يعيش الأمل نتيجة العمل «فتربصوا» أنتم المعرضون عن ذكر اللّه عاقبة أمركم و أمرنا «فستعلمون» غدا «مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ» و هم الدعاة الى اللّه‏ «1» «وَ مَنِ اهْتَدى‏» بهم الى اللّه، أهم أنتم المعرضون ام نحن المؤمنون؟!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 411 تفسير القمي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: و اللّه نحن السبيل الذي أمركم اللّه باتباعه و نحن و اللّه الصراط المستقيم و نحن و اللّه الذين امر اللّه بطاعتهم فمن شاء فليأخذ هنا و من شاء فليأخذ هناك لا تجدون و اللّه عنا محيصا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 233

سورة الأنبياء مكيّة و آياتها اثنتا عشرة و مائدة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 235

[سورة الأنبياء (21): الآيات 1 الى 29]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (2) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3) قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4)

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5) ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (7) وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ ما كانُوا خالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9)

لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (10) وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (12) لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى‏ ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (13) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (14)

فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (15) وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ (19)

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (20) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (23) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24)

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (26) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى‏ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 238

سورة الأنبياء تحمل صورة وضاءة عن ثورة الأنبياء و سيرتهم طول التاريخ الرسالي و ما لا قوه في سبيل الدعوة من اذيات و عرقلات و حرمانات، سردا لاكثر من النصف المذكورين في الذكر الحكيم بأسمائهم و رسولنا العظيم بسماته و بصماته، فهم- إذا- ثمانية عشر كادريس و نوح و ابراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و موسى و عيسى و من بينهم كلوط و هارون و داود و سليمان و أيوب و ذي الكفل و ذي النون و زكريا و يحيى، و في ذلك المسرح الفصيح الفسيح تلميحات و تصريحات ان لخاتم المرسلين ما لهم أجمعين و زيادة حتى في صعوبات الدعوة، و لم يبق من المذكورة اسمائهم في القرآن في السورة إلا ثمانية منهم‏ «1» فحقّ لمن قرءها حبّا لها بشروطها ان يرافقهم في جنات النعيم‏ «2» و يسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن‏ «3».

فقد حملت هذه السورة ذكريات عن اولي العزم الذين دارت عليهم الرحى، و عمّن ساندوهم في دعواتهم الرسالية، فحق لها و أحرى ان تسمى سورة الأنبياء.

و ميادين البحث فيها هي الأصول الثلاثة: التوحيد و الرسالة و المعاد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كآدم و شعيب و هود و صالح و يوسف و الياس.

(2)

نور الثقلين 3: 412 ثواب الأعمال باسناده الى أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: من قرء سورة الأنبياء حبا لها كان كمن رافق النبيين أجمعين في جنات النعيم و كان مهيبا في أعين الناس حياة الدنيا.

(3) و

في المجمع أبي بن كعب عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: من قرء سورة الأنبياء حاسبه اللّه حسابا يسيرا و صافحه و سلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 239

بمختلف صنوف البراهين كما هي دأب القرآن في دعوته العالمية المحلّقة على كافة المكلفين بدرجاتهم المعرفية.

و من أهم ما جاء فيها في التوحيد «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا» كأعمق برهان فلسفي عريق، و ما جاء في الوسط الرسالي من وحدة الرسالة و الأمم طول التاريخ الرسالي: «إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» (92) و بالمآل وحدة الدولة الاسلامية «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» (105) و اشارة الى الرجعة زمن قائد هذه الدولة: «وَ حَرامٌ عَلى‏ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» (96) و من بين ذلك استعراض لفتق الكون بعد رتقه، الى جانب فتق الشرعة الإلهية بعد رتقها!.

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ‏ 1.

مطلع قوية الضربات حيث تهز القلوب هزا، و تعض أصحابها عضا، إلفاتا لهم الى قريب الخطر، موقف جاد من الحساب ينتظرهم‏ «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ».

«اقترب» حيث الناس منذ نزول القرآن هم اقرب الى يوم الحساب منهم الى بدء الخلق، فقد مضى اكبر شطري الزمان، و لان كل آت قريب، و «ان الدنيا قد ولت حذاء و لم يبق منها الا صبابة كصبابة الإناء».

فمن الناس من هم في اوّل الزمان، و منهم من هم في وسطه، و لكن الناس منذ الرسالة الاخيرة هم في آخر الزمان، و لذلك فنبينا نبي آخر الزمان، و اقتراب الحساب مما ينبه الإنسان عن غفلته، و يوقظه عن غفوته‏ «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 240

و على الوجهين الأخيرين لاقتراب الحساب فالناس هم كل الناس منذ خلقوا الى يوم الحساب و كذلك على الوجه الأول في وجه‏ «1».

و «حسابهم» قد يعم البرزخ الى جانب القيامة فانه بداية الحساب و هي نهايته، فلان الدنيا مولية حذاء و كل آت قريب، فالحساب- إذا- يعم البداية و النهاية «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ»، فالناس- إذا- بين اقترابين لحسابهم، اقتراب دائب هو لكل الناس، و اقتراب جاد هو لمن يعيش آخر الزمان و هو منذ ابتعاث نبي آخر الزمان، «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ» ككل إلا من يستثنى.

و ترى الغفلة و هي عدم الانتباه، كيف تجامع الإعراض و لزامه الانتباه؟ علها لأنها غفلة عامدة مقصرة لا قاصرة، و الغفلة المقصرة تنهي صاحبها الى الاعراض بل هي بنفسها إعراض.

فقد يغفل الإنسان و لا يعرض لأنها غفلة وقتية يسيرة قصيرة قد ينتبه عنها، و لكنه إذا عاش الغفلة و تورط فيها و غرق- كما تلمح له الظرف‏ «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ» غارقون فيها- فهم- إذا- «معرضون» إذ لا منفذ لهم الى الانتباه حيث هم غارقون، و من اعراضهم عن اللّه و عن يوم اللّه و عما يتوجب عليهم امام اللّه فإعراضا عن حسابهم:

ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ‏ 2.

«وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ» (26: 5).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). إذا أخذ مبدء الزمان زمن الإنسان الاول قبل هذا النسل و سائر الانسال الانسانية، فقد يصبح هذا النسل عن بكرته في آخر الزمان على احتمال مضي الشطر الأكبر من الزمان قبله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 241

و «ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ» هو كل ما يذكرهم ربهم من رجالات السماء و كتاباتها، و «محدث» تحلق على الكل دون إبقاء، فكلام اللّه و هو من فعل اللّه، محدث أيا كان و أيان، سواء أ كان ذكر القرآن و رسول القرآن ام اي ذكر في اي زمان و مكان، و ما خرافة قدم كلام اللّه لفظيا ام نفسيا الا هرطقة هراء و سقاطة بالعراء و اللّه منها براء، اللهم إلا علم اللّه فانه عين ذاته كقدرته و حياته، و لكنه ليس ذكرا لسواه، و انما يحدث ذكرا لسواه لعلهم يذكرون.

«التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان و كل كتاب انزل كان كلام اللّه أنزله للعالمين نورا و هدى و هي كلها محدثة و هي غير اللّه حيث يقول‏ «أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً» و قال‏ «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» و اللّه أحدث الكتب كلها ...» «1».

ثم‏ «مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ» كما تعني ذكريات آي الذكر الحكيم، النازلة المحدثة تلو بعض و لصق بعض نجوما متقاطرة متتالية، و الناس هنا هم ناس الدور القرآني، كذلك تعني ذكريات كافة كتابات السماء، و الناس هم- إذا- ناس الأدوار الرسالية كلها دون إبقاء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 412 في كتاب الاحتجاج للطبرسي و روى عن صفوان بن يحيى قال قال ابو الحسن الرضا (عليه السلام) لأبي قرة صاحب شبرمة: التوراة ... فقال ابو قرة: فهل يفنى؟ فقال ابو الحسن (عليه السلام) اجمع المسلمون على ان ما سوى اللّه فعل اللّه و التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان فعل اللّه الم تسمع الناس يقولون: رب القرآن، و ان القرآن يقول يوم القيامة: يا رب هذا فلان و هو اعرف به منه قد اظمأت نهاره أسهرت ليله فشفعني فيه، و كذلك التوراة و الإنجيل و الزبور كلها محدثة مربوبة أحدثها من ليس كمثله شي‏ء هدى لقوم يعقلون، فمن زعم انهن لم يزلن فقد اظهر ان اللّه ليس باوّل قديم و لا واحد و ان الكلام لم يزل معه و ليس له بدو و ليس بإله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 242

و «ذكر من بهم» هو الذكر الذي يربّيهم، كما «ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ» هو الذي يذكرهم الرحمن، و ليس المحدث وصفا لذكر خاص، حتى يفهم منه ان هناك ذكر غير محدث هو القرآن، و قد استمعوه و هم يلعبون اكثر من كل ذكر سبق، و «أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً» تختص كل ذكر بالمحدث دونما استثناء.

«إِلَّا اسْتَمَعُوهُ» نبيا و كتابا «وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» يتخذونه لعبة كما يلعبون بسائر اللعب فهم عنه معرضون، فما استماعهم لذكر ربهم إلا اعراضا و لعبا دون تفهّم، و انما هو خوض و تقحّم: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ» (43: 83) إذ «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» (6: 91).

و إنها صورة بئيسة تعيسة لنفوس فارغة عن الهدى، مليئة بالهوى، لا تعرف جدا في حق الحياة فتلهو في اخطر المواقف استهتارا بالقدسيات، فتغدوا حياتهم عاطلة باطلة، هينة رخيصة قالحة!:

لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ‏ 3.

استمعوه‏ «لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» و هم يلعبون‏ «لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» فليس استماع الوحي ينفع و القلب لاه، حيث البصر و السمع هما من وسائل بصيرة القلب و سماعه.

«و» هؤلاء المناكيد «أَسَرُّوا النَّجْوَى» «الَّذِينَ ظَلَمُوا» بدل وصفي عنهم، و النجوى هي الإسرار في القول بحيث لا يتفهمه غير المتناجين فكيف اسروها؟ إنها في إسرارها سر في سر، سر في مادة النجوى، و سر في أصلها كيلا يعلمها المتناجى عليهم، و لكن اللّه فضحهم فيها بما أذاعها في هذه الاذاعة القرآنية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 243

و انما اسروها تخوفا من نقصها او نقضها فيفشلوا، فقد كانت شورى بينهم في ترداد القيلات، لتصبح طبخة ناضجة ناتجة عنها فيبرزوها و قد برزت قبل إبرازها:

«هل هذا» الذي نراه و نعيشه ردحا من العمر «إلا بشر» دون ميزة عن سائر البشر بل هو «مثلكم» في البشرية فلما ذا يتفضل عليكم، أ تفضلونه على أنفسكم دون مرجح‏ «أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» سحره؟ دعاية خاوية و حجة داحضة، فلو كانوا يبصرون لكانوا مؤمنين، حيث الآيات الالهية مبصرة بصرا و بصيرة: «فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» (27: 14).

قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ‏ 4.

«قال» الرسول جوابا عن نجواهم سرا «ربي» الذي رباني هكذا فلا أساوى او أسامى بمن سواي على أية حال‏ «يَعْلَمُ الْقَوْلَ» أيا كان و كيفما كان‏ «فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ»- «وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏» (20: 7) «و هو» لا سواه «السميع» كل قول «العليم» كل حال.

فالأقوال كلها و الأحوال كلها حاضرة لديه، و هو يعلم ألّا قول كقوله في القرآن دليلا حاضرا- في كل عصر و مصر ما طلعت الشمس و غربت- على انه قول اللّه لا سواه، فهل بالإمكان لبشر ساحر، ام و ملك ماهر باهر ان يأتي بفعل اللّه دون اذن و رسالة من اللّه، إذا فهو إله من دون اللّه فكيف ينسب فعله الى اللّه؟!.

إذا «قالَ رَبِّي يَعْلَمُ ..» في هذا الوجه كقوله في الفرقان: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (25: 6) توجيها لهم الى الأسرار التي يحملها الذكر الحكيم و لا يعلمها الا اللّه، إذا فهو دون ريب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 244

كتاب اللّه! و قد كفت هذه الملحمة الغيبية الكاشفة عن اسرار نجواهم، حجة عليهم، دون حاجة الى اجابة عن شبهتهم هذه، فهل ان علم الغيب هكذا سحر؟ فأين الآية المعجزة!.

فلقد احتاروا بشأن هذا القرآن متلكئين متلبكين لا يدرون من اي الى اين، دون ثبات على رأي و لا على صفة له خاصة، فهم يتمحلون في محاولة دائبة ان يعلوا اثره المزلزل لنفوسهم، المزمجر لكيانهم، في تنقلات و تطفلات:

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ‏ 5.

لا فحسب انه ساحر «بل» و ادنى منه إذ «قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ» تخاليط من رؤيّ غير منتظمة، فلا واقع له إلا أحلام و تخيلات، و لا نظم له الا أضغاث مختلطات من هنا و هناك دون اي رباط بينها، فهو- اذن- باطل في بعدية، بعيد عن الحق ببعديه.

لا فحسب‏ «بَلِ افْتَراهُ» على اللّه عامدا دون التباس عليه كأضغاث أحلام، مترويا في فريته، محاولا لتحويله محول كلام اللّه.

و لا فحسب‏ «بَلْ هُوَ شاعِرٌ» حيث استفاد من موسيقا التعبير منفذا الى قلوب البسطاء الهائمين الى الشعر، فالى هنا هو لا يليق بمنصب الرسالة لقاعدة المماثلة في البشرية أولا، ثم الاعمدة الاربعة: السحر- أضغاث أحلام- افتراء- شعر، و إذا لم يكن كما نقول بل هو رسول كسائر الرسل:

«فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» فالآية الإلهية من لزامات الرسالة و قد زوّد بها الرسل الأولون، و ليست عنده إلا الكلام، فان كان آية و ليس، فهو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 245

- إذا- بدع من الرسل، و ان لم يكن آية كما ليس فليس إذا من الرسل.

فهؤلاء لم يتطلبوا منه اية، و انما «آية كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» حيث تعودوا عبر الرسالات الاولى آيات بصرية «وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى‏ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ..»

(6: 124) «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ ...»

(29: 51) آية عقلية علمية عبر القرون، بديلة عن آيات بصرية عابرة غابرة دفينة مع أصحابها؟!.

و من الإجابات الناقضة لهذه المتطلبات الزور و الغرور، تدليلا على مدى حمقهم في عمقهم:

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ‏ 6.

فحتى لو اتبع الحق أهوائهم و أرسلت بآية كما أرسل الأولون ما كانوا ليؤمنوا بك، إذ «ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها» بتكذيبها آيات اللّه و صدها عن سبيل اللّه و بمرآهم آيات اللّه تترى‏ «أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ» و هم عارفون تلك الآيات العابرة الغابرة.

فلقد تحولت تلكم الآيات في تلك الرسالات الى آية أقوى و أبقى قضية خلودها، و لأنها تأخذ بأزمة العقول و القلوب في كل الحقول فهي- إذا- أحرى بالتصديق و الايمان و هم لا يؤمنون، فهل إذا أوتوا بآية كما أرسل الأولون‏ «أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ»؟.

و لان سنة اللّه جارية على إهلاك من يكذّبون بعد ما طبّقت اقتراحاتهم، «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ ...» إذا فهو السبب الأخير في عدم استجابتهم.

و اما قاعدة الشبهة المكرورة على السنة الناكرين‏ «هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ»؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 246

فهي منسوفة بكرور هذه الرسالات كلها في بشر و بشر:

وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ‏ 7.

لقد سبقت نظيرتها في النحل و فصلنا فيها ما استطعنا فلا نعيد، و هذه تحسم حسما ساحقا ركيزة المشكلة الشائكة لهم، بأنه ليس بدعا من الرسل لا في كونه: بشرا «وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» و لا في كيانه الرسالي آية رسالية، إلا انها أقوى و أبقى، فكما ان الرسالات واحدة في جذورها، كذلك آيات الرسالات التي تثبتها، و لكنها درجات كما هم درجات و «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» بهذه السنة الرسالية، و هم الذين عاشوا الرسل و آيات الرسالات، فاسألوهم‏ «إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» انهم كلهم بشر أمثالكم‏ «وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» (14: 11).

«رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» حجتان تستأصلان جذور الشبهة، ثانيتهما ان الوحي ليس لزام البشرية من حيث هيه، بل هو فضل من اللّه و رحمة خاصة لخصوص عباده ليهدوهم السبيل.

و هذه كرامة الهية ان يرسل اللّه الى البشر بشرا، فكيف تتخذ البشرية ذريعة لتكذيبها، بدل أن يتذرع بها الى تهذيبها؟.

اجل‏ «رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ» فهم كسائر البشر في كل حاجيات البشرية، إلا أنه «يوحى إليهم» فهم بعيدون بسناد الوحي عن أخطاء البشرية:

وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ ما كانُوا خالِدِينَ‏ 8.

ذلك! رغم قولهم‏ «ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 247

(25: 7) و ليس هذا الرسول بدعا في بشريته و لزاماتها المادية، «وَ ما جَعَلْناهُمْ» هؤلاء الرجال الرسل «جسدا» لا روح له‏ «لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ» ثم‏ «وَ ما كانُوا خالِدِينَ» لا يموتون، او لا تموت رسالاتهم و تنسخ شرائعهم‏ «وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ. كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ...» (35) فهم بشر كسائر البشر يأكلون مما يأكلون و يموتون كما هم يموتون، و انما يمتازون عنهم و يفضّلون عليهم بما يوحى إليهم.

فلقد كانت الرسل الى البشر بشرا قضية الحكمة البالغة الإلهية لتكون حياتهم الواقعية الملموسة نبراسا لسائر البشر، تحقيقا لشرعتهم في أنفسهم لتتحقق في انفس الآخرين، فالكلمة الحية الواقعية هي المؤثرة في قلوب الناس، حيث تترجمها حياة صاحبها، وشيجة دائبة بينهم و بين المرسل إليهم.

فأي داعية لا يحس مشاعر المدعوين و لا يحسون مشاعره، انه يبقى دون تجاوب في دعوته، مهما تسمّعوا الى أقواله، حيث الأفعال ادعى لهم و اولى بالاتباع من الأقوال و كما يقال «مروا الناس بالمعروف و انهوهم عن المنكر بغير ألسنتكم».

فالقولة التي لا تصدقها فعلة، قاصرة ام مقصرة، إنها تبقى على أبواب الآذان و مشارف القلوب دون مزاج معها الا شذرا و سطرا في قلة قليلة، و هذه تناحر الدعوة العالمية.

و هكذا يجب ان يكون كل قائد، ان يتكون من نفس الوسط الذي يقوده، عائشا معايشهم، ذائقا مذائقهم، و ضائقا بمضايقهم، و ليقودهم عارفا متطلباتهم و حالاتهم.

لذلك كله، و تكريما لقبيل الإنسان يبعث اللّه رسلهم من أنفسهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 248

فيجري عليهم كل ما يجري على أنفسهم من ولادة و حياة و موت، و من عواطف و نزعات و انفعالات، و من آلام و آمال و من كل ما هو آت من الطبيعة البشرية، اللهم إلا أخطاء هي لزام عدم العصمة حيث يعصمها علمية و أخلاقية و عملية و دعائية لتتم حجة اللّه على الناس، و لا يكون للناس على اللّه حجة بعد الرسل.

هكذا أرسلنا رسلا تترى، حاملين الحجج البالغة الالهية، واعديهم إنجاحا في الدنيا و الآخرة:

ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ‏ 9.

صدق الوعد هو وفقه للواقع حاليا و استقباليا، فمن الحال: «وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ...» (3: 152) و من الاستقبال:

«وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ...» (39: 74).

و قد يجمعها ككل‏ «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51).

و قد تعني هنا «ثم» المراخية لصدق الوعد- فيما عنت- الصدق اللائح في عواقب الرسالات هنا، و من ثم في البرزخ و الأخرى.

و هنا «فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ» بيان لصدق الوعد في خاتمة الاولى، ثم الاخرى هي أحق بالصدق و أحرى: «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ» (10: 103).

و هنا العوان بين المؤمنين الناجين و المسرفين الهالكين، هم غير مذكورين، و قد تعنيهم «من نشاء» مع المؤمنين، متعة الحياة الدنيا، ثم لا نجاة لهم كالمؤمنين في الاخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 249

ام ان «من نشاء» هم المؤمنون، و «المسرفين» يعم غير المؤمنين ككل، المختلفين في دركات الهلالك كاختلاف إسرافهم، و من أسفلها العذاب المستأصل لهم يوم الدنيا، و من سواهم من المسرفين هالكون في دركات اخرى هنا، غبّ ما تصلهم دركات الاخرى بالاوفى.

لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ‏ 10.

«إليكم» في وجه خاص تعني العرب فإنهم المحطة الاولى لنزول القرآن، ف «ذكركم» كما تعني هنا تذكّرهم عن غفلتهم، كذلك تعني ذكرهم بين الأمم حيث نزل القرآن منذ البدء فيهم و بلغتهم، فالقرآن أينما حلّق يذكرهم لمن به تعلّق و تحلّق، فلم يكن قبله لهم ذكر و شرف به يذكرون، إلّا عارات و غارات و سرقات و قتلات و دعارات و افتخارات بنكبات!.

فما تملك العرب طول تاريخهم من زاد يقدمونه للبشرية و العالمين أجمعين سوى ذلك الزاد العظيم المكين، فلو تقدموا بعروبتهم فحسب، لا تتقدم عند احد بل و تتهدم، فما قيمة العروبة دون القرآن، فلا كلمة لها و لا مدلول في تاريخ الإنسان إلا بما يحملون القرآن، الذي يتبناه حضارة الإنسان كإنسان!.

فالعروبة فيما سوى القرآن لا تحسب بشي‏ء في تاريخ الحضارات بل هي في دار البوار، و غير العروبة قد تحسب بشي‏ء فيما سوى القرآن في حضارات زمنية، مهما كانت خلوا من الروحية، ثم و من يحمل القرآن عربيا كان ام أعجميا يملك الحضارتين، دون تقدم لقبيل على آخر إلا قدر ما يتقدم في حمل القرآن، و قد سبق العرب طول التاريخ الاسلامي سباقون كثير من غير العرب و منذ بزوغ الوحي حتى الآن، و لا شرف هنا و هناك الا على ضوء شرف القرآن تفهما و تعلما و تخلقا و تطبيقا و نشرا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 250

و من ثم «إليكم» في وجه عام و كما هو طبيعة الحال في الدعوة القرآنية العالمية، فيه «تعني ذكركم» التذكر بالقرآن على طول خط الزمان و المكان‏ «وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ» (43: 44) و قوم الرسول كرسول هم العالمون أجمعون: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ» (50: 45) «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (15: 9).

ثم القرآن هو ذكر الشرف و المنزلة لمن به تذكر، و ببصائره تبصّر و اعتبر و تشرّف.

فلو نزلت عليهم آية كما أرسل الأولون بديل هذا القرآن، لم يكن فيها ذكر شرفا و ذكرى، بل كان لهم في تكذيبها الهلاك كما أهلك الأولون:

وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ‏ 11.

القصم هو كسر الشي‏ء الصلب، و المترفون الجبارون في هذه القرى كانوا أصلب شي‏ء عيدانا و أمنعه أركانا!.

و هكذا يتهدد المسرفين الظالمين قصما و هي أشد حركات القطع، و «من قرية» هي بعض القرى الظالم أهلها المترفون: «وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً» (17: 16).

ثم «قرية» هي الديار و الدّيار، و هم الأصل في الدمار و القصم يشملهما، كما الإنشاء هي انشاءهما ابتداء بالديّار ثم الدّيار، و بالتالي نشهد مشهد حراكهم في القرى المقصومة ببأس اللّه و هم كالفئران في المصائد:

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ‏ 12.

«يركضون» و أنى لهم ركضة بغير ركزة؟ «يركضون» «سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 251

نُصُبٍ يُوفِضُونَ» و قد تبين لهم باس اللّه بما أحسّوه، و لكن ركضة الياس اركض و اركز من ركضتهم فاني يركضون؟.

لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى‏ ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ‏ 13.

و هذه مهزئة لهم و مهزلة في تهكم مرير، سلبا لركضهم حيث لا ينفعهم، و إيجابا لرجعهم الى ما أترفوا فيه حيث يسألون تساءل التبكيت من قبل اللّه، ام سؤال الحاجة من قبل المستضعفين حيث كانوا يتهاجمون عليكم بالسؤال فتستكبرون عليهم و تختالون، ام ليتساءلوكم عما جنيتم عليهم، و مثلث السؤال تأنيب لهم و تعذيب، و تعجيز لهم بموقفهم الكئيب.

و لكن اين المجال لجواب و سؤال حين لا مهرب من بأس اللّه و لات حين مناص؟ فيلجئون- إذا- إلى الاعتراف بما ظلموا:

قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ 14 فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ‏ 15.

«قالوا» و لكن الأوان فائت، و البأس ماقت، و الأمان منه ساقط، حيث الرب عليهم ساخط «فَما زالَتْ تِلْكَ» المظلمة التي بها يعترفون «دعواهم» في تلك الزمجرة المدمرة ما لهم حراك و نفس‏ «حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً» حصادا فيه كل كساد «خامدين» عن نيرانهم التي أجّجوها مضطرمة على المستضعفين.

و يا له من حصيد انساني ليس له رصيد إلا محق و خمود لهم دون إبقاء إلّا خامد الحصيد و من وراءهم عذاب شديد!

«و ايم الله ان هذه عظة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 252

لكم و تخويف إن اتعظتم و خفتم» «1».

و ما الطفه تشبيها ان شبّه همود أجسامهم بعد حراكها بخمود النار بعد اشتعالها، او النبات الحصيد المحرق بالنار، الخامد بعد الاشتعال، و هو ابلغ في وصفهم بالهلاك و البوار و انمحاء المعالم و الآثار لاجتماع وصفي الحصد و الإحراق، و «خامدين» وصف لهم دون الحصيد، فهم- إذا- حصيد و هم خامدون!.

فكما تختلى الزروع بالمنجل، ثم تحرق بعد اليبوسة، «جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ».

و صحيح ان «كم قصمنا»- «فَلَمَّا أَحَسُّوا» تعطفان الى ما مضى، إلا ان لهما مصاديق مستقبلة من أصدقها زمن الدولة الاسلامية العالمية بقيادة الإمام القائم المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 414 في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين (عليهما السلام) في الوعظ و الزهد في الدنيا يقول فيه: و لقد أسمعكم اللّه في كتابه ما قد فعل بالقوم الظالمين من اهل القرى قبلكم حيث قال: وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً» و انما عنى بالقرية أهلها حيث يقول: و انشأنا من بعدها قوما آخرين فقال عز و جل: فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون يعني يهربون- قال: لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى‏ ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ‏- فلما أتاهم العذاب‏ قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ» و ايم اللّه ...

(2)

نور الثقلين 3: 414 الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن فضال عن ثعلبة بن ميمون عن بدر بن الخليل الأسدي قال سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول‏ في قول اللّه عز و جل: فلما أحسوا بأسنا- الى- «تسألون» قال: إذا قام القائم و بعث الى بني امية بالشام هربوا الى الروم فتقول لهم الروم لا ندخلكم حتى تتنصروا فيعلقون في أعناقهم الصلبان فيدخلونهم فإذا نزل بحضرتهم اصحاب القائم طلبوا الامان و الصلح فيقول اصحاب القائم: لا نفعل حتى تدفعوا إلينا من قبلكم منا فيدفعونهم إليهم فذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 253

و ذلك من قبيل الجري و التطبيق على المشابه و بأحرى الأشبه.

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ‏ 16.

ان اللعب هو من الباطل للحكيم العليم، اللهم للجاهل الغافل كالطفولة و سائر المجاهيل، فانه ما لا حكمة و لا غاية صالحة فيه: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» (38: 28).

فلو انه لم يبعث رسلا مبشرين و منذرين لكان الخلق لعبا و باطلا، و لو انه لم يستأصل الظالمين المستأصلين صالح الحياة الدنيوية لكان الشرع باطلا، حيث هم يظلمون الجو بما يظلمون، فلا يفسحون مجالا للذين يهتدون او يهدون، نقضا مستأصلا لدعوة الداعية، و إبطالا لفاعلية حجج اللّه البالغة.

فتطبيق توحيد اللّه بشرعة اللّه في واقع الرسالة الفعالة، و الجزاء العدل يوم الاخرى- و شذر منها هنا- يبقيّ مجال الدعوة في الأولى، كل ذلك من مخلّفات‏ «ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ».

فالجدّ الجادّ أصيل في خلق الكون و في تدبير الكون و في سنّ القوانين كونية و شرعية، و في الحساب الدقيق الذي يؤخذون به هنا أحيانا و بعد الموت تماما، دون اية مسامحة و لا لعب باطل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قوله: لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى‏ ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ» قال: يسألهم الكنوز و هو اعلم بها، قال فيقولون: يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ» بالسيف و هو سعيد بن عبد الملك الاموي صاحب نهر سعيد بالرحبة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 254

لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ‏ 17.

فالقصد من اللعب- و هو امر منتظم لفائدة خيالية لا واقع لها- القصد منه هو اللهو و هو الالتهاء عما يحق و له واقع صالح، و هو الاستيناس عما يزعج، و ذلك حرام في الشرعة الإلهية ككل‏ «1».

ف «لو» على فرض المحال‏ «أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً» لعبا و باطلا، لم نحتج ان نتخذه في الخلق، حيث الخلق محتاجون إلينا، و لسنا بحاجة الى الخلق في لهو و سواه، «لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا» في نفس الذات، لا من لدن خلقنا، اكتفاء بالأقل باطلا «إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ» لهوا و باطلا.

فالقائد اللاهي ان امكنه اتخاذه من لدنه، لا يتخذه من شعبه مخافة العار و الدمار، بل يتخذه من لدنه، فضلا عن اللّه الحكيم الغني العليم، غير المحتاج ان يلعب او يتخذ لهوا من لدنه فضلا عن خلقه، «ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ» فإنهم بنكرانهم يوم الجزاء يبطلون الشرعة الإلهية ابطالا لخلق الكون اجمع، و ان اللّه اتخذ لهوا من خلقه.

فلسنا نعمل باطلا من لعب و لهوايا كان و أيان:

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ‏ 18.

«قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» (34: 48) قذفا مطلقا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 415 في الكافي بسند عن عبد الأعلى قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الغنا و قلت: انهم يزعمون ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رخص في ان يقال: جئناكم جئناكم جيئونا جيئونا فقال: كذبوا ان اللّه عز و جل يقول: و ما خلقنا السماء و الأرض ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 255

و منه‏ «عَلَى الْباطِلِ» فالمحور للقذف الرباني قذف بالحق تكوينا و تشريعا و جزاء بالعدل وفاقا، فإذا عارضه باطل قذف به على الباطل، دمغا له‏ «فَإِذا هُوَ زاهِقٌ» و دمجا لمنظومة الحق «و لكم» الناكرين ليوم الدين «الويل» كل الويل «مما تصفون» اللّه خلاف وصفه، ام شرعة اللّه خلاف وصفها.

و لان حقيقة القذف هي للأشياء الثقيلة التي يرجم بها على الخفيفة، و الحق ثقيل في ميزان اللّه و الواقع، فقذفه على الباطل يرضّ ما صكّه و يدمغ ما مسّه، إصابة دماغ الباطل فإهلاكا عن بكرته، حيث الدماغ هو أهلك مقتل.

فالحق- إذا- قذيفة في يد القدرة الإلهية- على طول الخط- يقذف بها على الباطل فيشق دماغه، و هكذا مجي‏ء الحق و زهوق الباطل، هنا حجة بالغة في صراع، و في الأخرى تماما دون إبقاء

«ليس من باطل يقوم بإزاء حق إلا غلب الحق الباطل» «1»

و

«ما من أحد الا و قد يرد عليه الحق حتى يصدع قلبه قبله ام تركه» «2»

، فان للّه الحجة البالغة.

ذلك! طالما يبدو الباطل أحيانا منتفشا فاشيا فاحشا كأنه غالب، و يبدو فيها الحق منزويا خاويا كأنه مغلوب، و لكنها ما هي إلا أياما قلائل إملاء لأهله. و املالا، ليزداد و إثما و لهم العذاب اليم.

فإذا وصل الباطل حينا الى قمة الزهو و الإضلال فهنالك دمغ بالحق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 416 في محاسن البرقي بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام):

.... و ذلك قول اللّه: بل نقذف ...

(2) المصدر عنه (عليه السلام) يا أيوب ما من احد .... و ذلك ان اللّه يقول في كتابه: «بل نقذف ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 256

دون إمهال‏ «كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً ..» و الى ان تؤسس الدولة الاسلامية الكبرى بقيام القائم بالعدل المهدي من آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و خسر هنا لك المبطلون: «إنا للنصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الاشهاد» «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» (21: 105).

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ‏ 19.

و إذا كان له من فيهما فباحرى له ما فيهما، و «له» تعني انحصار الملك و الملك الحقين الدائبين فيه، و انحسارهما عمن سواه.

«وَ مَنْ عِنْدَهُ» هم المقربون إليه معرفيا و عباديا دون قرب زماني و لا مكاني‏ «لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ» بل يستحصرون فيها «وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ» عيّا و كلالا.

«إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ» و هذه العندية لا تختص بالملائكة، فأحرى منهم فيها الرسل الكرام و لا سيما اولوا العزم منهم، و امامهم العظيم اقرب المقربين عند اللّه و أسبق السابقين و اوّل العابدين محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ثم المحمديون من عترته الطاهرين سلام اللّه عليهم أجمعين.

و تلك السلطة المطلقة المستغرقة لكل كائن، تحيل اي تفلت عن ارادته، و اي تلفت عن مشيئتة في أية نشأة من النشآت، «فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى‏» (53: 25).

و لماذا المقربون هنا يختصون بالذكر؟ لأنهم نبراس العبودية و الخنوع لمن سواهم، حيث ينيرون الدرب عليهم، فهم الأدلاء الى اللّه، المكرمون عند اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 257

ثم و طبيعة الحال فيمن عند سائر الملوك ان يسمح له في بعض التخلفات خوفة منهم او إكراما لهم حيث التقرب فيهم تقارب و تجارة بين الملوك و إياهم.

و لكن «من عنده» يزدادون له طوعا كلما تقربوا، و تزداد مسئولياتهم عنده، دون تسامح عنهم في صغيرة او كبيرة، حيث الحاجة هنا هي من ناحية واحدة، و ليست مزدوجة تجارية.

فكل عبد من العبيد يستحسر لوقت ما عن الخدمة، منقطعا بالإعياء، و عباد اللّه الذين هم عنده انما يستحسرون عن ترك العبادة، و لا يستحسرون على أية حال عن عبوديته تعالى، حيث الشغف البالغ و الهيمان الحالق حصراهم طول الحياة في العبودية دون تكلف فيها و لا تخلف عنها:

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ‏ 20.

فهم مستيقظون لتسبيحه و ان كانوا نوّما فضلا عن يقظتهم، ف «لا يفترون» فتورا و إن لفترة قصيرة ما داموا هم احياء، ثم في البرزخ و الاخرى تقوى تسبيحاتهم و تزداد حيث الموانع زائلة و الدوافع كاملة فهم‏

«مسبحون لا يسأمون و لا يغشاهم نوم العيون و لا سهو العقول و لا فترة الأبدان و لا غفلة النسيان» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة السيد الشريف الرضي عن الإمام علي (عليه السلام) و

في نور الثقلين 3: 417 عن كتاب إكمال الدين و تمام النعمة عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه سئل عن الملائكة أ ينامون؟ فقال: ما من حي الا و هو ينام خلا اللّه وحده و الملائكة ينامون فقلت: يقول اللّه عز و جل: يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ»؟ قال:

أنفاسهم تسبيح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 258

و ترى كيف «لا يفترون» عن تسبيحهم و لهم اقوال و اعمال دون ذلك، فإنهم رسل‏ «جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا» برسالات تكوينية و تشريعية عدة؟.

علّه لان لهم مقام جمع الجمع كما لسائر الرسل بما جمع اللّه لهم الشتات، و ان رسالاتهم كلها تسبيحات للّه قالا و حالا و افعالا، فليس «يسبحون» تختص بالقول فقط، بل هو ادنى درجاته، حاكيا عن حالهم و فعالهم، فالمسبّح بهما دون قال مسبح للّه، و المسبح بالقال دونهما غير مسبح للّه، و الجمع بين الثلاث أجمل و أكمل، أن يحلّق تسبيح اللّه كل كيان الكائن فيصبح بكله تسبيحا للّه.

و ليس فقط «يسبحون» اللّه تنزيها في لفظة قول و حال و عمل، بل و يسبحونه عن ان تليق تسبيحاتهم لساحة قدسه معرفة و عبودية و كما

يروى عن أفضلهم و أعلاهم الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «ما عرفناك حق معرفتك و ما عبدناك حق عبادتك» معترفين بالتقصير القاصر عن بلوغ تسبيحه!.

اتخذوا آلهة هم يخلقون و يدبرون أمورهم فيعبدون؟:

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ‏ 21.

الإنشاء هو الإحياء بعد الموت، كما هو إحياء بدائي لا عن موت، و «من الأرض» كما تتعلق ب «ينشرون» احياء منها كما خلقوا منها، كذلك تتعلق بمقدّر ككائن: آلهة كائنة من الأرض، هم أنفسهم منها و منها ينشرون الأموات، و تعلق ثالث ب «اتخذوا» و «آلهة» في هذا التعلق هي الأصنام و الأوثان، فمن ذا الذي ينشرهم أنفسهم، و حين لا يقدرون على نشر أنفسهم فكيف ينشرون سواهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 259

فكما اللّه إله الإنشاء، كذلك إله للإنشار و بأحرى، فلتقطع آمال المشركين الذين يحسبون لهم آلهة من الأرض هم ينشرون، فيسامحونهم فيما يعلمون، «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

و لئن سئلنا: كيف ينكر عليهم إنشارا هم ناكروه قائلين‏ «مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ» مستبعدين ان يحيها اللّه و هو الخالق لها، فكيف يعتقدونه في أصنام ما هي الا جمادات بلا أرواح؟.

و الجواب: علها حجة إلزامية عليهم بما التزموا من عبادتهم لهذه الأوثان، و لزامها الثواب عليها فعلا و العقاب تركا، و ليس شي‏ء منهما في هذه الحياة الدنيا، فلتكن حياة اخرى فيها الجزاء، فهل ان آلهة من الأرض هم ينشرونهم فيجزون بما ينشرون؟.

و كيف «هم ينشرون» و هم يعجزون عن إنشار أنفسهم فأنّى تؤفكون؟.

ام كيف «هم ينشرون» و اللّه خلقهم و من يعبدون، أ ليس الذي بدء الخلق باحرى ان يعيده: «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»؟! و من الدليل- القاطع القاصع القامع، المستمد من جوهرة الكون و واقعه- على وحدة الالوهية في كافة الحقول إنشاء و إنشارا:

لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ‏ 22.

آية منقطعة النظير في برهنتها الكاملة الشاملة، الماحقة كل فروضات تعدد الآلهة، نقدّم تفسيرا لمفردات لها، ثم نخوض في البحث عن مدلولها.

ف «لو» تحيل مدخولها و بأحرى في المسائل العقلية، إحالة جوهرية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 260

لا تقبل تحولا الى غير المحال على أية حال.

و «كان» تامة تعني اصل الكينونة، ضاربة الى اعماق الماضي، أزلية لا أولية، فإذا لم تكن فيهما آلهة إلا اللّه منذ الأزل، فباحرى بعده حتى الأبد، إذا فهي حجة لسرمدية الإله الواحد دون شريك، ثم «إلا» هنا تعني الغير لا الاستثناء، حيث يعني- إذا- «لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا» و النتيجة «لو كان معهم الله لم تفسدا»!.

فانما هي بمعنى «الغير» فتعني «لو كان فيها آلهة غير الله ..».

و من ثم «فيهما» هنا لا تعني مكانا من السماوات و الأرض للّه و الآلهة إلا اللّه، فان اللّه هو الذي مكّن المكان فليس له مكان، و كان إذ لا كان، فلا تعني «فيهما» إلّا ما عنته‏ «هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ» ان يكون الكون ظرفا لفاعلية الالوهية دون ذاتها.

و هنا حوار حول هذه الحجة الباهرة نطرحها بكل دقة و إمعان، لكي نحصل على حق المعني منها دون تزعزع و تلكع:

1- المشركون لم يكونوا يدعون ان هناك آلهة غير اللّه كما اللّه، يخلقون كما يخلق و يميتون كما يميت، فما هي المغزى من ذلك التنديد الشديد و عرض الاستحالة في فرض مرفوض عند المشركين؟.

هذه الآية تحلّق- حجة بارعة- على غير الموحدين أيا كانوا، من مشركين و ثنوية و ثالوثية يعدّدون ذات الإله بكل شؤون الألوهية.

2- فرض‏ «آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ» انما يفرض «لفسدتا» من فساد السماوات و الأرض، إذا كانا مختلفي العلم و الحكمة، و اما الالهة المتوافقة في الحكمة و التدبير فلا اختلاف في ربوبياتهم، فوحدة النظام في واقع الكون لا تدل إلا على وحدة التنظيم، و هي أعم من وحدة الناظم، ام تعدده بوحدة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 261

التنظيم، «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ» لم تفسدا الا على فرض الاختلاف بينهم في التنظيم!.

و لا يرده ان الحكمة هي الموافقة للقوانين العقلية المأخوذة من واقع الكون، التابعة له، لكن الرب المدّبر فعله هو نفس نظام الواقع، المتبوع للقوانين العقلية و العلمية، فكيف يكون فعله تابعا لتلك القوانين؟.

حيث يرده، ان صالح الحكمة الالهية هو الذي يصلح واقع الكون، و صالح الكون آية لتلك الحكمة، و ليس من المفروض ان تكون هذه الحكمة الصالحة من اله واحد، فقد تكون من آلهة متوافقة في صالح الحكمة، و كما ان المدبّر الواحد فعله نفس النظام، كذلك غير الواحد!.

فاحتمال تعدد الآلهة لا يجتثه واقع النظام في الكون عقليا و علميا، إذ يحتمل ان يكون من منظّمين كثير، متوافقين في حكمة التنظيم، كما يحتمل انه من منظم واحد.

و الجواب الصالح عن هذه المشكلة الشائكة أن «لفسدتا» لا تعني فقط فساد السماوات و الأرض بفساد التدبير نتيجة الاختلاف و التناحر، بل و كذلك «لفسدتا» الآلهة إلا اللّه، و هي فساد الألوهية فيهم كلهم، ام فساد تعددهم!.

فلا يخلو تعدد الألوهية عن فساد في زاوية الكون، او المكوّن، ام تعدد المكون و المدبر، إذا فهو ثالوث الفساد تحليقا على كافة فروض التعدد، في اصل الذات ام في ربوبيات، ام في الخلق و الأمر، ام ضغث من هذا و ضغث من ذلك، فان وحدة النظام بهذه البراعة و اليراعة تشي بوحدة المنظم ذاتيا و صفاتيا و افعاليا.

فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات فتعددت النواميس و تناحرت و «فسدتا»!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 262

و لو اتحدت الإرادات رغم تعدد الذوات، فلا تخلو هذه الذوات من كونها مشتركة في كافة الذاتيات و الصفات؟ فقضيتها إذا وحدة الإرادات! فأين التعدد إذا إذ لا مايز بين هذه الذوات، فإذا «لفسدتا» عن تعددها، فلا الوهية في هذا البين صالحة لأصل التكوين فضلا عن نظامه!.

و لو اتحدت فيما قضيته وحدة الإرادات، و اختلفت فيما لا رباط له بها، اختلافا ذاتيا ام صفاتيا، فلنتساءل، هل ان هذه الذاتية او الصفاتية المائزة بينها هي كمال مطلق، ام محدد، ام هي نقص؟ فليكن كل فاقدا لبعض ما يجده الآخر أيا كان، و هذا تخلّف عن اللّامحدودية في الكمال التي هي لزام الألوهية، فالكل- إذا- محدود مركب مما به الاشتراك و ما به الامتياز، و الكل يفقد ما يجده الآخر من كمال، او يجد ما ليس في الآخر من نقص، إذا فكلّ منهم محدود ناقص ف «لفسدتا» فسادا في ذات الالوهية و صفاتها! ففسادا في الكون و كسادا عن بكرته حيث الناقص في ألوهيته مألوه و ليس خالقا، إذا فلا خلق، و واقع الخلق المنتظم دليل ان لا اله الا اللّه، ففرض آلهة الا اللّه يفرض فساد الكون في أصله او نظامه، و فساد كل الآلهة او فساد التعدد، فينقلب فرض التعدد الى حتمية الوحدة ام الفساد في الكون في بعدية و في الآلهة.

و تأنيث ضمير التثنية إنما هو باعتبار شموله للسماوات و الأرض كما يشمل الالهة إلا اللّه.

ذلك و كما نجد على ضوء هذه الآية روايات محكمة حكيمة فيها سرد شامل لمحتملات تعدد الآلهة و القضاء الصارم الحاسم عليها:

فعن أبي عبد اللّه الصادق (عليه السلام) في حوار مع الزنديق قوله:

لا يخلو قولك انهما اثنان من ان يكونا قديمين قويين او يكونا ضعيفين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 263

أو يكون أحدهما قويا و الآخر ضعيفا، فان كانا قويين فلم لا يدفع كل واحد منهما صاحبه و ينفرد بالتدبير؟- و ان زعمت ان أحدهما قوي و الآخر ضعيف ثبت انه واحد كما نقول للعجز الظاهر في الثاني، و ان قلت إنهما اثنان لم يخلو من ان يكونا متفقين من كل جهة او مفترقين من كل جهة، فلما رأينا الخلق منتظما و الفلك جاريا و اختلاف الليل و النهار و الشمس و القمر دل صحة الأمر و التدبير و ائتلاف الأمر على ان المدبر واحد- ثم يلزمك ان ادعيت اثنين فلا بد من فرجة بينهما حتى يكونا اثنين فصارت الفرجة ثالثا بينهما قديما معهما فليزمك ثلاثة لزمك ما قلنا في الاثنين حتى يكون بينهما فرجتان فيكون خمسة ثم يتناهى في العدد الى ما لا نهاية في الكثرة ... «1».

و

في رواية اخرى‏ «و إذا بطل هذا و لم يكن بينهما اختلاف بطل الاثنان و كان واحدا ..» «2».

فلان فساد الألوهيّة يقتضي نفي الإله، و صالح الكون المنسق المنتظم بتنسيق واحد دليل صالح الألوهية، إذا فليس فيهما آلهة الا اللّه الواحد القهار.

«فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» فاللّه الذي هو صاحب عرش الخلق و التدبير واحد لا شريك له، كما تدل عليه وحدة النظام من ناحية،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 10: 194- 195 عن التوحيد باسناده الى هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبد اللّه (عليه السلام) و كان من قوله (عليه السلام): ....

(2) نور الثقلين 3: 418 عن تفسير القمي و اما الرد على الثنوية ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 264

و فساد التعدد من ناحية الذات و الصفات من اخرى.

و مما يصفون «ربّ العرش» بجنب ان له شركاء، انه جالس على عرشه كسائر الجلوس على العروش، و لكن الألوهية نفسها ثم الربوبية للعرش، هما يزيفان هذه القولة الزائفة، فهو الذي يربي العرش و يحمله دون ان يحمله العرش!.

و من ذلك سؤاله عما يفعل كأنه يخطل او يجهل او يغفل و لكنه:

لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ‏ 23.

طالما اصحاب العروش من الخلق يسألون عما يفعلون لنقص في التقدير و التدبير بقصور او تقصير، حيث تملكهم العروش و يملكهم سوء التدبير، و لكن رب العرش و هو رب كل شي‏ء، انه عليم حكيم قدير، لا يفعل ما يفعله إلا عن حكمة و تدبير، رحمة ناصعة بارعة على كل صغير و كبير، فلما ذا يسأل إذا؟ سبحان العلي الكبير! اجل، ان رب العرش‏ «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ»-

«لأنه لا يفعل إلا ما كان حكمة و صوابا و هو المتكبر الجبار و الواحد القهار فمن وجد في نفسه حرجا في شي‏ء مما قضى كفر و من أنكر شيئا من أفعاله جحد» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 419 في كتاب التوحيد باسناده الى عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد الجعفي قال قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) يا بن رسول اللّه انا نرى الأطفال منهم من يولد ميتا و منهم من يسقط غير تام و منهم من يولد أعمى و اخرس و أصم و منهم من يموت من ساعته إذا سقط الى الأرض و منهم من يبقى الى الاحتلام و منهم من يعمر حتى يصير شيخا فكيف ذلك و ما وجهه؟ فقال (عليه السلام): ان اللّه تبارك و تعالى اولى بما يدبره من امر خلقه منهم و هو الخالق و المالك لهم فمن منعه التعمير فانما منعه ما ليس له و من عمره فانما أعطاه ما ليس له فهو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 265

ففيما يسأل لأي علة صارت الإمامة في ولد الحسين دون الحسن (عليهم السلام) فالجواب: لأن اللّه تعالى جعلها في ولد الحسين و لم يجعلها في ولد الحسن و اللّه لا يسأل عما يفعل‏ «1» و كما

«جعل اللّه النبوة في صلب هارون دون صلب موسى و لم يكن لأحد أن يقول لم فعل اللّه ذلك فإن الإمامة خلافة اللّه عز و جل ليس لأحد أن يقول: لم يجعلها في صلب الحسين دون صلب الحسن، لأن اللّه هو الحكيم في أفعاله‏ «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ‏ «2».

فمن الهراء هذه و تلك، و في العراء قيلة من قال: قطع اللّه النبوة عن صلب يوسف لأنه لم يحترم أبويه و لم ينزل من العرش حتى خروا له سجدا، تقديما لإخوته الحساد الفساق عليه و هو نبيّ مرسل من المخلصين!.

و على أية حال فسؤال المسؤولية التجهيل و التخجيل منفي عن ساحته، طالما سؤال التعلّم و التبجيل مرضي عند سماحته و قد أمر أول العابدين‏ «وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» و يؤمر كل عبد من عباد اللّه‏ «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...».

ليس هناك ضابطة عادلة حاكمة على اللّه تنضبط بها افعال اللّه تعالى،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المتفضل بما أعطى و عادل فيما منع و لا يسأل عما يفعل و هم يسألون قال جابر فقلت له يا بن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و كيف لا يسأل عما يفعل؟ قال:

لأنه ...

(1). المصدر في عيون الاخبار باسناده الى محمد بن أبي يعقوب البلخي قال سألت أبا الحسن الرضا (عليه السلام) فقلت: لأي علة ...

(2)

المصدر في كتاب الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق (عليه السلام) حديث طويل و فيه‏ فقلت يا بن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كيف صارت الامامة في ولد الحسين دون ولد الحسن و هما جميعا ولدا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و سبطاه و سيدا شباب اهل الجنة؟ فقال (عليه السلام) ان موسى و هارون كانا نبيين مرسلين أخوين فجعل اللّه النبوة في صلب هارون ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 266

فيخضع لها في أفعاله حتى يسأل، فانه الضابط لكل ضابطة عادلة و فاضلة، و كل أفعاله صادرة عن حكمة و فضيلة متعالية.

فطالما النبيون و هم معصومون يسألون هل طبقوا واجباتهم الرسالية و ماذا أجيبوا: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ» (5: 109) «فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ» (7: 6) فليس اللّه ليسأل عما يفعل و هم يسألون سؤال عدل،

«إذا كان يوم القيامة و جمع الله الخلائق سألهم عما عهد إليهم و لم يسألهم عما قضى عليهم» «1».

و ترى «هم يسألون» هم الذين يعبدون من دون اللّه؟ و منهم الأصنام و الأوثان، لا حول لها و لا حيلة فيما يفعل بها! طالما المسؤولية الكبرى على طواغيتهم.

بل هم المكلفون أجمعون، المرسل إليهم و المرسلون، طالما السؤال يختلف حسب اختلافهم عصمة او قصورا او تقصيرا، و هذا هو الصحيح، فان‏ «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ» هي من اختصاصات الربوبية، فكل من يؤهل للسؤال سواه يسأل دون إبقاء، هل كان فعله موافقا للحكمة و المصلحة الواقعية؟.

و لكن اللّه- و هو خالق الحكمة و المصلحة- هو فعله حكمة و مصلحة، نبراسا و مقياسا لكل فعل من كل فاعل، فلا يسأل- إذا- هل إن فعله يوافق الحكمة و المصلحة، فانه هو الفاعل فيها و الحاكم بها و ليس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 420 في ارشاد المفيد قال رحمه اللّه‏ و قد ذكر أبا عبد اللّه جعفر بن محمد (عليهما السلام) و مما حفظ عنه (عليه السلام) من موجز القول في العدل قوله لزرارة بن أعين: يا زرارة أعطيك جملة في القضاء و القدر، قال له زرارة نعم جعلت فداك قال: إذا كان يوم القيامة ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 267

محكوما بها كأنها من فعل غيره إلها أو مألوها.

فالحق الصالح في فعله ليس لموافقته الواقع، حيث الواقع الصالح هو من فعله، بل الحق في اي واقع انما يقاس بفعله او قوله، دون ان يقاسا بواقع هو من فعله!.

فمن هذا الذي يسأله عما يفعل، أ إله معه ام فوقه؟ و هو اللّه الواحد القهار! ام مألوه مسئول عن فعله؟ و لماذا يسأل، اللهم الا تعلما و تفهما، لا تعنتا و تجهيلا!.

و في «لا يسأل» إنشاء حاسما بصيغة الإخبار استئصال لكل سؤال عن جناب قدسه على اية حال، فهم بين ساكت مستسلم، وسائل فاشل قاحل.

كما «و هم يسألون» تحلّق المسؤولية على كل من يصح عنه سؤال مهما كان من اقرب المقربين و اسبق السابقين.

ثم السؤال «عما يفعل» قد يكون سؤالا عن سببه؟ و هو خالق الأسباب و مسببها، «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

او سؤالا عن غايته؟ و هو مغيّي الغايات! و لا غاية له من فعله ترجع الى صالحه ذاتيا ام صفاتيا! بل ان فعله غاية لكل صالح من افعال العباد! و غايته هي الرحمة على العباد!.

او سؤالا عن حكمته و مصلحته؟ و هو خالقهما و مقرر هما بفعله و قوله!.

او سؤالا عن «كيف فعل» اكتناها لواقع فعله و ارادته؟ و هو سؤال ساقط لاي سائل إذ لا يحيطون به علما و هو بكل شي‏ء محيط!.

و على أية حال فكل سؤال «عما يفعل» غير مسموح‏

«فويل لمن قال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 268

كيف و كيف» «1»،

اللهم الا سؤال التفهم فيما يصح، و سؤال الحاجة كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 316- اخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ان في بعض ما انزل اللّه في الكتب: اني انا اللّه لا اله الا انا قدرت الخير و الشر فطوبى لمن قدرت على يده الخير و يسرته له و ويل لمن قدرت على يده الشر و يسرته له اني انا اللّه لا اله الا انا لا أسأل عما افعل و هم يسألون فويل لمن قال كيف و كيف».

أقول التقدير لا يعني التسيير، بل هو تقدير لكل حسب ما يناسب عقيدته و طويته و فعلته بمشيئة.

و

فيه- اخرج ابن أبي حاتم و البيهقي في الأسماء و الصفات عن ميمون بن مهران قال‏ لما بعث اللّه موسى و كلمه و انزل عليه التوراة قال: اللهم انك رب عظيم لو شئت ان تطاع لأطعت و لو شئت ان لا تعصى ما عصيت و أنت تحب ان تطاع و أنت في ذلك تعصى فكيف هذا يا رب؟ فأوحى اللّه اليه اني لا اسأل عما افعل و هم يسألون.

و

فيه اخرج ابن أبي حاتم و البيهقي عن نوف البكالي قال‏ قال عزير فيما يناجي ربه يا رب تخلق خلقا تضل من تشاء و تهدي من تشاء فقال له يا عزير اعرض هذا فأعاد فقيل له لتعرضنّ عن هذا و الا محوتك من النبوة اني لا اسأل عما افعل و هم يسألون و في لفظ آخر: ان عزيرا سأل ربه عن القدر فقال سألتني عن علمي عقوبتك ان لا أسميك في الأنبياء

أقول و كما نراه غير مذكور في القرآن الا «كَالَّذِي مَرَّ عَلى‏ قَرْيَةٍ ...»! و

في آخر يذكر القصة عن موسى و في آخرها «فانتهى فلما بعث اللّه عزيرا و انزل عليه التوراة بعد ما كان رفعها عن بني إسرائيل حتى قال من قال انه ابن اللّه قال: اللهم انك رب عظيم ... فأوحى اللّه اليه اني لا اسأل عما افعل و هم يسألون فأبت نفسه حتى سأل ايضا فأوحى اللّه اليه: اني لا اسأل ... فأبت نفسه حتى سأل ايضا فقال:

أ تستطيع ان تصرصره من الشمس قال لا قال أ فتستطيع ان تجي‏ء بمكيال من ريح، قال لا قال أ فتستطيع ان تجي‏ء بمثقال من نور قال لا قال أ فتستطيع ان تجي‏ء بقيراط من نور قال لا قال فهكذا ان لا تقدر على الذي سألت اني لا اسأل عما افعل، و هم يسألون اما اني لا اجعل عقوبتك الا ان أمحو اسمك من الأنبياء فلا تذكر فيهم فمحى اسمه من الأنبياء فليس يذكر فيهم و هو نبي فلما بعث اللّه عيسى و رأى منزلته من ربه و علمه الكتاب و الحكمة و التوراة و الإنجيل .. قال اللهم انك رب عظيم ... فأوحى اللّه اليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 269

يصح فانه ممنوح، و هذا الأخير سؤال ان يفعل لا عما يفعل، و الاول سؤال عما يفعل لصالح التفهم الذي يصح.

و «عما يفعل» يعم كل أقواله و أفعاله تكوينية و تشريعية، فلو انه لم يبعث رسلا و اهلكهم بظلمهم لكانت لهم عليه سؤال و حجة: «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (4: 165) «وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى‏» (20: 134) «وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (17: 15).

فقد قطع بعدله و حكمته و فضله كل سؤال عنه عن كل سائل، فليس‏ «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ» استبدادا و استكبارا أعمى، هو في العين قذى و في الحلق شجى.

و ما أسؤلة الملائكة «أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها» و النبيين كنوح‏ «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» إلا استفهاما دونما استفحام و إلا لكان فسوقا منهم او كفرا، اجلّهم اللّه من ذلك إجلالا كريما.

اجل! و ان ارادة اللّه طليقة لا يحدها تحدّد أم تهدّد إرادة اخرى، لأنها منطلقة من قدرة قاهرة حكيمة، فهو الذي يضع الحدود بتلك الارادة الطليقة فكيف تحدّ إذا او تحدّد، اللهم إلا تحديدا من عنده كما يناسب ساحة الربوبية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اني لا اسأل عما افعل و هم يسألون و أنت عبدي و رسولي و كلمتي ألقيتك الى مريم و روح مني خلقتك من تراب ثم قلت لك كن فكنت لئن لم تنته لا فعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك اني لا اسأل .. فجمع عيسى من تبعه و قال: القدر سرّ اللّه فلا تكلّفوه!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 270

لا نقول ما يتقوله شذر من الناس النسناس، انه طليق الارادة حتى في الظلم، فينكرون وجوب العدل عليه بما كتبه على نفسه، ام واقعه في فعله.

انما نقول انها طليقة عن دوافع و نوازع خارجية فانها كلها من فعله، و لكنه لا يفعل إلا الصالح لساحة الربوبية باختيار، دون منعة عليه باضطرار، سبحان العلي الحكيم الجبار!.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ‏ 24.

فواقع الكون ببرهانه الساطع على وحدة الإله، خلو عن آلهة إلا اللّه‏ «أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ...» اتخاذا جارفا، اختلاقا لما لا يكون و لن يكون.

فالبرهان على اصل وجود الإله و على وحدته قاطع قاصع، و لا ينازعه اي برهان ينقضه او ينقصه، ف «قل» للذين يتخذون من دونه آلهة «هاتُوا بُرْهانَكُمْ».

و

قد قيل للإمام الرضا (عليه السلام) أتقول ان اللّه واحد؟ قال:

قولك انه اثنان دليل على انه واحد، لأنك لا تدع الثاني إلا بعد إثباتك الواحد، و الواحد متفق عليه و الثاني مختلف فيه» «1».

و ما أحلاه برهانا على من ليس له على الثاني برهان، اضافة الى سائر البرهان عقليا و كونيا و فطريا على التوحيد، كما و «هذا» الحق الحقيق بالاتباع‏ «ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ» من المؤمنين باللّه الموحدين‏ «وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي» رسلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التوحيد للصدوق عن الامام الرضا (عليه السلام) انه سئل: أ تقول: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 271

و مؤمنين، فلم يأت رسول ثابت الرسالة يقول غير ما نقول، اجماعا نقليا رساليا هو من اعمق الادلة العقلية على التوحيد، فان كان في الكون إله آخر ام الهة اخرى فمن هو رسولهم، و ما هي آثارهم الربوبية بجنب هذه الربوبية الشامخة الشاملة المحلقة على الكون كله؟! و «ذكر» في «من معي- و- من قبلي» يعم كتاب الذكر، و نفسه في أنفسهم الناتج عن ادلة انفسية و آفاقية، و الذكر الاول من الثانية، و بصيغة اخرى تعمهما

«يعني بذكر من معي ما هو كائن و بذكر من قبلي ما قد كان» «1».

و قد يعني «هذا»: القرآن، فانه يحمل ذكرا ل «من معي» و هم المسلمون اجمع «و من قبلي» حيث يذكر ذكري سائر كتب السماء دون إبقاء و كلّ محتمل و الجمع أكمل و أجمل.

إذا «قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ» طلب لبرهان على ما يدّعون بعد البرهان على توحيد اللّه، و لأنهم ليس لهم برهان ينقضه أصبح توحيد اللّه مزوّدا بعدم برهان على التعدد بعد البرهان على التوحيد و نفي العدد!.

و هو الأصل‏

في حوار الامام الرضا (عليه السلام): «قولك انه اثنان دليل على انه واحد لأنك لا تدعو الثاني إلا بعد إثباتك الواحد و الواحد متفق عليه و الثاني مختلف فيه»!

«بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ»: دليلا و مدلولا، فلا يميزون برهانا عن ادعاء و لا ادعاء عن برهان، و هو جهل الجهالة المقصرة، لا قاصرة غير مسئولة، و هناك قلة مضللة يعلمون الحق و هم منكرون‏ «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» و هم حملة مشاعل الضلالة و المتاهة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجمع في الآية قال ابو عبد اللّه (عليه السلام): ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 272

فالأكثرية من المشركين‏ «لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ» جهلا فاتكا، و الأقلية المسيّرة لهم‏ «يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ»، و اين اعراض من اعراض؟!.

و ليس عدم العلم بالحق يدفع جاهله الى الاعراض عنه إلا إذا تعرّق فأصبح كأنه علم ببطلان الحق، حيث‏

«يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهنا لك استحوذ الشيطان على أولياءه و نجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى» «1»

ثم و من ذكر من قبلي:

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ‏ 25.

«وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» (43: 45) فالرسالة الإلهية الموحدة تحلّق على تاريخ الرسالات كلها دونما استثناء، أ فلا يكفي ذلك الوحي المتواتر المتواصل من عند الرحمن أنه لا إله إلا هو تصديقا لوحيه، ام لا يكفي عدم إرسال رسول من قبل من يتخذونهم آلهة من دون اللّه ان ليسوا هم بآلهة إلا في خضمّ الخيال و الادعاءات الجوفاء الخواء؟.

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ‏ 26.

و هذه القولة الجاهلة نجدها بين فريق من اهل الكتاب هودا و نصارى‏ «وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى‏ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

خطبة لعلي (عليه السلام) بدايته: «انما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع و احكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله و يتولى عليها رجال رجالا فلو ان الحق خلص لم يكن للباطل حجة و لو ان الباطل خلص لم يكن اختلاف و لكن يؤخذ من هذا ضغث ...

(اصول الكافي- و في النهج باختلاف لفظي يسير).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 273

(9: 30).

كما و نجدها بين أقوام من المشركين، بل و قد انتقلت هذه المزعمة منهم الى جماعة من الكتابيّن كما إشارات له «يضاهئون»، و الجواب هنا كلمة واحدة إضرابا عما يقولون‏ «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ» و هي تحصر مزعمة اتخاذ الولد بالعباد المكرمين، دون سواهم مثل الجنّة و سواهم: «وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ» (37: 158) و كذلك مثل سائر أبناء اللّه عند المشركين في ثالوثهم المرتسم عندهم برسومات عدة.

«عِبادٌ مُكْرَمُونَ» و هم المخلصون المخلصون من عباد اللّه الصالحين، ملائكة أو نبيين أو أئمة معصومين» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 421 في تفسير القمي في الآية قال: هو ما قالت النصارى ان المسيح ابن اللّه و ما قالت اليهود عزير ابن اللّه و قالوا في الأئمة ما قالوا فقال اللّه عز و جل: سبحانه- انفة له- بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ» يعني هؤلاء الذين زعموا انهم ولد اللّه ....

و

فيه في الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه: و الزمهم الحجّة بان خاطبهم خطابا يدل على انفراده و توحيده و بأن لهم اولياء تجري أفعالهم و أحكامهم مجرى فعله فهم العباد المكرمون لا يسبقونه بالقول و هم بامره يعملون، قال السائل من هؤلاء الحجج؟ قال: هم رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و من حل محله أصفياء اللّه الذين قالوا: فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» الذين قرنهم اللّه بنفسه و برسوله و فرض على العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم منا لنفسه.

و

فيه في الخرائج و الجرائح في أعلام امير المؤمنين في روايات الخاصة: اختصم رجل و امرأة اليه فعلا صوت الرجل على المرأة فقال له علي (عليه السلام) اخسأ- و كان خارجيا- فإذا رأسه رأسه الكلب فقال له رجل يا امير المؤمنين صحت بهذا الخارجي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 274

«الدعاة الى الله و المظهرين لأمر الله و نهيه و عباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول و هم بامره يعملون» «1».

و

قد يروى عن أكرم عباد اللّه المكرمين بعد اوّل العابدين‏ «ان اللّه اختص لنفسه بعد نبيه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من بريته خاصة علاهم بتعليته، و سما بهم الى رتبته، و جعلهم الدعاة بالحق اليه، و الأدلاء بالرشاد عليه، لقرن قرن و زمن زمن، انشأهم في القدم قبل كل مذروّ و مبروّ أنوارا أنطقها بتمجيده بتحميده، و ألهمها شكره و تمجيده، و جعلها الحجج على كل معترف له بملكة الربوبية و سلطان العبودية، و استنطق بها الخرسات بأنواع اللغات بخوعا له بانه فاطر الأرضين و السماوات، و اشهدهم خلقه، و ولّاهم ما شاء من أمره، جعلهم تراجمة مشيته، و ألسن إرادته، عبيدا: «لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فصار رأسه رأس الكلب فما يمنعك من معاوية؟ فقال و يحك لو أشاء ان آتي بمعاوية الى هاهنا على سريره لدعوت اللّه حتى فعل، و لكن للّه خزان لا على ذهب و لا فضة و لا انكار على اسرار هذا تدبير اللّه اما تقرء «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ‏

و

فيه روى الأصبغ بن نباتة قال‏ كنا نمشي خلف علي (عليه السلام) و معنا رجل من قريش فقال يا امير المؤمنين قد قتلت الرجال و أيتمت الأطفال و فعلت و فعلت فالتفت (عليه السلام) اليه و قال: اخسأ فإذا هو كلب اسود فجعل يلوذ به و يبصبص فرآه (عليه السلام) فرحمه فحرك شفتيه فإذا هو رجل كما كان فقال رجل من القوم يا امير المؤمنين أنت تقدر على مثل هذا و يناويك معاوية؟ فقال: نحن عباد مكرمون لا نسبقه بالقول و نحن بامره عاملون.

(1). من زيارة الجامعة الكبيرة.

(2) نور الثقلين 3: 422 في مصباح شيخ الطائفة في خطبة مروية عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 275

اجل «سبحانه» ان يتخذ هؤلاء ولدا «بل» هم‏ «عِبادٌ مُكْرَمُونَ» بما أكرمهم اللّه بالعبودية بعد ما أكرموا أنفسهم بها، فلا كرامة للعبد مهما بلغ الذروة، إلا كرامة العبودية، فلا يزال العبد يكرم ربه بعبوديته، كرامة لنفسه ان يعبده قدر مقدرته، ثم المعبود يكرمه بكرامة على كرامته ان يخلصه لنفسه، بعد ما أخلص هو نفسه لربه، و اين إخلاص من إخلاص، إخلاص من العبد و إخلاص من المعبود.

فليس من إكرام اللّه لهم ان يتخذهم له ولدا سبحانه، فان الولادة التشريفية مستحيلة كما الحقيقية، حيث التشريف مجاز و هو لا يجوز في الأمور المستحيلة، و انما هو جواز عن الحقيقة الكائنة او الممكنة.

فقد يصح لعالم رباني ان يتخذ تلميذا له صالحا ولده تشريفا له و ذلك مسموح، دون معنى البنوّة الحقيقية او التبني، و لكنه لا يصح او يمكن بحق اللّه، قضية الإمكانية في حقيقته هناك و استحالته هنا.

و حتى لو أمكن ذلك الاتخاذ لم يكن فيه تشريف، إذ لا شرف للعبد اشرف من شرف العبودية و لا يساميها ايّ شرف، و كما التشريف بالربوبية له مستحيل كذلك البنوّة.

و من مواصفات هؤلاء العباد المكرمين التسليم السليم لرب العالمين:

لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ‏ 27.

ليس هنا لك اي سبق لهم على ربهم فيما امره اليه، ارادة ام قولة ام فعلة «لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» (66: 6).

و علّ «القول» هنا يعم الأوليين كما تدل عليه‏ «أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» ثم الثالثة تخصها «وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» و هذه عصمة كاملة شاملة كل كيانهم دون إبقاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 276

و في تقديم «بامره» على «يعملون» حصر و تحتيم لاختصاص اعمالهم بأمر اللّه، فلا يعملون عن امر أنفسهم و لا سواهم، إلا اللّه.

و ليس ذلك الأمر تكوينيا يسيّرهم دون اختيار منهم، حيث «لا يسبقونه- و- يعملون» ينسبان السلب و الإيجاب إليهم، و العمل المسيرّ لا طاعة و لا معصية! ثم امره يعم الفعل و الترك، ف «يفعلون» تعم فعل الفعل و فعل الترك، تدليلا على ان ترك الحرام ممدوح فيما لك فيه الاختيار كفعل الواجب، فكما الفعل الممدوح هو المختار كذلك تركه.

فهم بكل إراداتهم و أقوالهم و أفعالهم يحملون امر اللّه و مشيئته، حيث هم اداة مشيئته و ولاة امره دونما حاجة منه إليهم.

و تراهم- إذا- كيف سبقوه سبحانه في القول‏ «أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ» و قد جمعوا فيه الى سبق القول و سؤال الفعل و «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ»؟

علّه يستثنى من ذلك الإطلاق تفلتا عما هم عليه، ام انما قالوا ما قالوه و سألوا ما سألوه بأمره تعالى لكي يكونوا على ضوء جوابه‏ «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ» عارفين مدى جهلهم فيزدادوا منه تعلما ولديه تسليما!:

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28).

فمن‏ «ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» مستقبلهم و حاضرهم، و من‏ «ما خَلْفَهُمْ» غابرهم، ام كل مستقبل و حاضر و غابر مما يعلمون و ما لا يعلمون، فهو يحيط بهم و بمن سواهم علما «وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْ‏ءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ»!.

ثم‏ «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» اللّه من المشفّع لهم، و قد كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 277

فريق من المشركين يعبدونهم قائلين: «هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ» «ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏».

فتزييفا لهذه المزعمة الخاطئة يحصر شفاعتهم لمن ارتضى اللّه دينه، دون المشركين باللّه، المتخذين عباد اللّه المكرمين أبناءه سبحانه، فغير الموحد لا تناله شفاعتهم لو شفعوا لهم و لن يشفعوا «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» و «ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ».

فالموحّد مرضي عند اللّه كأصل و ضابطة في قبول الشفاعة على شروطها المسرودة في الذكر الحكيم، دون الملحد و المشرك و المنافق و المكذب بآيات ربه‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» (4: 48).

و الشفاعة هي آخر المطاف لمرتكبي الخطيئة، و مرتكبي الضلالة إن ظلوا على توحيد اللّه، دون ان يضلوا عنه، فليست إذا الا لمرتكبي الكبيرة التي بقيت حتى القيامة غير مكفّرة بتوبة في الاولى، ام بعذاب في البرزخ ام في جحيم القيامة، فمنهم من هم يخرجون من النار قبل توفية العذاب، بالشفاعة، و

قد تلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هذه الآية فقال: إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 317- اخرج الحاكم و صححه و البيهقي في البعث عن جابر ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) تلا قول اللّه: و لا يشفعون ... فقال: ....

و

في نور الثقلين 3: 423 في عيون الاخبار باسناده الى الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن أبيه عن آبائه عن امير المؤمنين (عليهم السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من لم يؤمن بحوضي فلا أورده اللّه حوضي و من لم يؤمن بشفاعتي فلا انا له اللّه شفاعتي ثم قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انما شفاعتي لأهل الكبائر من امتي فاما المحسنون فما عليهم من سبيل قال الحسين بن خالد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 278

و ترى الموحّد مشفّع له مهما تعمد في المعصية و لم يحنّ قلبه الى التوبة و لم تحسّنه حسنته و لا ساءته سيئته؟ و ذلك نكران ليوم القيامة، و للشرعة الإلهية!.

كلا فهكذا موحد غير مرضي دينه و عليه سخط اللّه، أ ترى من غضب اللّه عليه لنكرانه يوم القيامة، او تشكّكه فيها، سوف يرضى اللّه عنه فتشمله الشفاعة؟!.

فالشافعون- إذا- لا يشفعون إلّا لمن ارتضى‏

«الله دينه، و الدين الإقرار بالجزاء على الحسنات و السيآت، فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة» «1»،

و ان لم يقم بشروطات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقلت للرضا (عليه السلام) يا ابن رسول اللّه فما معنى قول اللّه عز و جل: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏»؟ قال: لا يشفعون الا لمن ارتضى اللّه دينه.

و

فيه عن الخصال عن الأعمش عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: و اصحاب الحدود فساق لا مؤمنون و لا كافرون لا يخلدون في النار و يخرجون منها يوما و الشفاعة جائزة لهم و للمستضعفين إذا ارتضى اللّه دينهم.

(1).

نور الثقلين 3: 423 في كتاب التوحيد بإسناد متصل عن محمد بن أبي عمير عن موسى بن جعفر (عليهما السلام) حديث طويل و فيه‏ قلت له: يا ابن رسول اللّه! فالشفاعة لمن تجب من المذنبين، فقال: حدثني أبي عن آباءه عن علي (عليهم السلام) قال: سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: انما شفاعتي لأهل الكبائر من امتي فاما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل، قال ابن أبي عمير فقلت له يا ابن رسول اللّه كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر و اللّه تعالى يقول: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» و من يرتكب الكبيرة لا يكون مرتضى؟ فقال (عليه السلام): يا أبا محمد، ما من مؤمن يرتكب ذنبا الا ساءه ذلك و ندم عليه و قال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كفى بالندم توبة و قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من سرته حسنته و ساءته سيئة فهو مؤمن فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن و لم تجب له الشفاعة و كان ظالما و اللّه تعالى ذكره يقول‏ «ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ» فقلت له: يا ابن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 279

التوبة، ام سوّفها حتى قضى نحبه.

وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ‏ 29.

«وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ» على فرض المحال حيث المعني من «هم» العباد المكرمون، ام كواقع إذا عني من «هم» كلّ من اتخذ للّه ولدا او اتخذ نفسه ولده، ام ادعى الألوهية، كما الشيطان و كل فراعنة التاريخ.

«إني آله من دونه» رفضا لألوهية اللّه، ام إشراكا لنفسه باللّه «فذلك» البعيد البعيد «نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ» و كضابطة عامة «كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» بحق الربوبية.

و أما من لم يقل منهم «اني آله من دونه» مهما اتّخذ إلها من دونه و هو رافضه، فذلك يبقى على كرامته: «وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ ...» (5: 117) «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ. لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و كيف لا يكون مؤمنا من لم يندم على ذنب يرتكبه؟ فقال: يا أبا محمد ما من احد يرتكب كبيرة من المعاصي و هو يعلم انه سيعاقب عليها إلا ندم على ما ارتكب و متى ندم كان تائبا مستحقا للشفاعة و متى لم يندم عليها كان مصرا و المصر لا يغفر له لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب و لو كان مؤمنا بالعقوبة لندم و قد قال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لا كبيرة مع الاستغفار و لا صغيرة مع الإصرار، و اما قول اللّه عز و جل‏ «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» فإنهم لا يشفعون الا لمن ارتضى اللّه دينه ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 280

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ» (21: 101).

[سورة الأنبياء (21): الآيات 30 الى 47]

أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ (30) وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (32) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33) وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (34)

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (35) وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (36) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (39)

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (40) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (41) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43) بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ (44)

قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (45) وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (46) وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى‏ بِنا حاسِبِينَ (47)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 282

أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ (30).

.. الم ير الذين كفروا آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق‏ «أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ ...» عطفا على ما أراهم اللّه تعالى و لم يروا و لم يتبصروا.

«الَّذِينَ كَفَرُوا» او منهم هنا هم المشركون المقسّمون الخلق و التدبير بين اللّه و الآلهة، لا الماديين او و الكتابيين مهما شملهم‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا» هامشيا حيث الحوار كان مع المشركين دون سواهم.

و الرؤية المستاءل عنها هي العلمية رأيا كأنها رؤية بصر، و هي الاكثرية الساحقة من إطلاقات الرؤية، و لا سيما المقرونة بما هنا «أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما» فأين كانوا هم و من قبلهم حتى ينظروا الى فتقهما بعد رتقهما و منهما خلقهما؟ «ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً» (18: 51).

و ذلك الرتق و الفتق في بناية الكون، و هما متواصلان بمختلف الصور على طول الخط، انه نقض صارم على خرافة التفرقة بين الخلق و التدبير، فإنهما مجموعان لصق بعض في كل رتق و فتق، فهما- إذا- فعل واحد من فاعل واحد، و حتى إذا كانا منفصلين فتناسق الخلق و التدبير في كل رتق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 283

و فتق دليل وحدة الناسق، المدبر الخالق، و كما وحدة الخلق دليل وحدة الخالق.

ثم الرؤية العلمية، عقلية او تجريبية، بالنسبة للفتق بعد الرتق، منها ما هي حاصلة عبر القرون البشرية لكل راء مراع صالح الرؤية، «أَ وَ لَمْ يَرَ» هنا استفهام إنكار، انهم رأوا ثم حكموا بخلاف ما رأوا، سواء الماديين منهم استدلالا بالتحولات المتواترة عبر الكائنات على المكوّن، او المشركين استدلالا بوحدة الخلق و التدبير على وحدة الخالق و المدبر، او الكتابيين، حيث تضاف الى رؤيتهم العلمية الرؤية الكتابية القائلة بفتق بعد رتق، فليوحدوا الفاتق الراتق، و ليؤمنوا بالشرعة القرآنية الفاتقة لما رتق قبلها، الفاتحة لما انغلق.

و من ثم رؤية اخرى يدفعون إليها على مرّ الزمن، فالاستفهام- إذا- استنكار لمن لا يتدبرون حتى يروا فتقا بعد رتق اكثر مما رأوا، حيث هما بعد بدايتهما مستمران مع الزمن في كافة اجزاء الكون.

إذا «أَ وَ لَمْ يَرَ» غابر يحلّق على المستقبل و الحاضر، حيث الرؤية الحاضرة و المحضّرة تعم عامة المكلفين دون إبقاء و استثناء.

فكما اختصاصها بالماضين تضييق لنطاق الدعوة القرآنية، كذلك- و باحرى- اختصاصها بالآيتين من العلماء الغربيين، اختلاقا من بعض المفسرين المتفرنجين المتأرجفين، انهم هم المفترضون فرضية انفصال الأرض من الشمس، تأويلا عليلا ل «أَ وَ لَمْ يَرَ» الى «أولا يرون» و «الَّذِينَ كَفَرُوا» بهؤلاء فقط، و «السماوات» بالشمس «و الأرض» هي الأرض، «كانَتا رَتْقاً» انهما كانا جرما واحدا، ثم «ففتقنا هما» بفصل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 284

الأرض عن الشمس»!!! «1».

تخريجات فيها تحريجات و تهريجات كأنها خدمة غالية للقرآن، وفقا بينه و بين هذه الافتراضة غير القانونية و لا الثابتة، المقبورة- أخيرا قانونيا علميا- مع الأبد.

و لقد فصلنا في فصلت على ضوء الآية «قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ...» فصلنا هناك مدى خرافة هذه القيلة الغائلة الغيلة، و انها تفسير للقرآن عن ساحته و سماحته و ليس تفسيرا له، فانه المحور في كل صغيرة و كبيرة عبر القرون، و ليس حائرا حول الافتراضات التي لا سند لها علميا فضلا عن الواقعية المسنودة الى قوانين تجريبية.

فكيف يعبّر عن مستقبل خاص بماض عام؟ و عن الشمس و هي قطرة صغيرة من خضمّ يمّ السماء الدنيا بالسماوات؟ و عن انفصال الأرض عن الشمس بفتقهما عن رتقهما و هو يعم المعاكسة أولا و يخص الانشقاق لا الاشتقاق ثانيا؟.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي 10: 197 تحت عنوان: القرآن إذ اخبر بأمور لم تعلم الا في القرن التاسع عشر يقول: تبت عن اهل اوروبا في هذه العصور إذ هم الذين قرروا هذا العلم و قالوا ان الشمس كانت كرة أشبه بالنار دائرة ملايين من السنين، و الأرض و السيارات و توابعها كانت معها، ثم ان أرضنا انفصلت كما انفصل غيرها من السيارات انفصلن جميعا من خط الاستواء الشمسي أثناء سرعة سير الشمس و جريها حول نفسها فتباعدت أرضنا و الأرضون الاخرى و هي السيارات فان شمسنا و السيارات الاخرى كلها سيارات و كلها أرضون و هكذا كل الشموس التي نراها كأنها كواكب ثابتة على هذه الحال لها سيارات و قد اشتقت منها و قد قدروا على سبيل الظن ان الأرضين في العوالم كلها لا تنقص عن ثلثمائة مليون ارض مسكونة ... فثبت ان أرضنا مشتقة من الشمس و الشمس ايضا من شمس اكبر .. منها أقول و في كل ذلك اسئولة و لا جواب له عنها!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 285

كلا! و آيات «فصلت» توخر خلق الشمس عن الأرض بمرحلتين اثنتين حيث‏ «خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ‏ .. ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ‏ .... فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ‏ ... وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ ..» و الشمس هي من مصابيح السماء الدنيا، فكيف تسبق أرضنا السابق عليها و على تسبيع السماء؟!.

فإليكم تفسيرا لآية الفتق جديرا بها حسب المستطاع دونما تحميل عليها ما ليس منها و لا إليها، و دون ان نحاول حمل النص او الظاهر القرآني على افتراضات خاوية او غير مستيقنة تقبل اليوم و ترفض غدا، فانه إمام العلم و أمامه، خالدا عبر كافة التقدمات العلمية و كشوفها المتعالية، فليطلق سراحه أينما انطلق دون أسر له بنظريات أسيرة محصورة محسورة!.

هنا «السَّماواتِ» هي السبع الطباق، أولاها هي السماء الدنيا حيث هي الأقرب إلينا، و الشمس بمنظومتها جزء ضئيل من أوليات هذه الاولى.

و «الأرض» علها فقط هذه الأرض، فالأرضون الست الاخرى معنية في نطاق السماوات ان كانت مقسّمة بينها ام هي في الاولى، ام هي جنس الأرض الشامل للأرضين السبع.

و على أية حال‏ «السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» هنا و في غيره هما عبارة اخرى عن الكون كله.

«كانَتا رَتْقاً» و الرتق لغويا هو الضمّ و الالتحام خلقيا ام خالقيا، و المعني هنا هو الثاني، و انما أفردت «رتقا» مصدرا و هو يثنى و يجمع كما الفاعل و المفعول؟ علّه للعناية الى حالة الوحدة حيث لم تكونا حين الرتق الاول لا سماء و لا أرضا فضلا عن سماوات و ارضين، و انما كانتا المادة الفردة الاولى المعبر عنها بالماء: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 286

سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» (11: 7) و طبعا قبل خلق الأرض و السماء.

فقد كانتا حينذاك رتقا في المادة الأمّ، ففتقت الأم في تفجرة هائلة فانقسمت الى دخان السماء و زبد الأرض، كما تفصله آياته في فصلت، بعد إجماله في هود: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ».

ف «رتقا» هنا دلالة أولى على هذه الوحدة السابقة، فلو كان المعني منه التصاقهما، ام فقط فتق كلّ عن رتقة، لكانت الصيغة السائغة له «رتقين» و لكن «رتقا» تعم الرتقات الثلاث ابتداء من هذه الرتقة البدائية و انتهاء الى فتق السماء بالماء و فتق الأرض بالنبات.

ففي آية هود «كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» يتبين باجمال انهما كانا في الأصل ماء و هو عبارة اخرى- و أحرى من غيرها- عن المادة الأم.

و في فصلت يفصّل ذلك و رتق ثان: «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (41: 13).

فدخان السماء هو اصل ثان لعالم السماء، و قد فتق عن الماء، ثم فتق الى سبعها بمصابيحها، و كما زبد الأرض للأرضين السبع: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» (65: 12) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 317- اخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابو الشيخ في العظمة عن مجاهد في الآية قال: فتق من الأرض ست ارضين معها فتلك سبع ارضين بعضهن تحت بعض و من السماء سبع سماوات منها معها فتلك سبع سماوات بعضهن فوق بعض و لم تكن الأرض و السماء مما ستين و مثله عن أبي صالح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 287

و من ثم فتقت الأرض بالإنبات بما فتقت السماء بانزال الماء، فتقا ثالثا بعد رتق ثالث كما هنا «وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ»- «أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا» (80: 27) «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ. وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ» (86: 13).

و في رواياتنا تصريحات و إشارات الى هذه الفتقات بعد الرتقات كما و تستنكر الفتق المختلق من اصحاب فرضية الانفصال:

«فلعلك تزعم انهما كانتا رتقا متلازمتين متلاصقتين ففتقت إحداهما عن الاخرى ..»؟ «1».

ثم تثبت سائر الفتقات و لا سيما المستفادة من ذيل الآية «وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ» و هي الفتقة الثالثة.

و من جماع الدلالة على كلها ام جلها مقتطفات‏

من خطب الامام امير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في روضة الكافي في سؤال الشامي أبا جعفر الباقر (عليه السلام) عن هذه الآية قال (عليه السلام): فلعلك ... فقال نعم فقال ابو جعفر (عليه السلام) استغفر ربك فان قول اللّه عز و جل‏ «كانَتا رَتْقاً» يقول: كانت السماء رتقا لا تنزل المطر و كانت الأرض رتقا لا تنبت الحب فلما خلق اللّه تبارك و تعالى الخلق و بث فيها من كل دابة فتق السماء بالمطر و الأرض بنبات الحب ...».

أقول: هذا تفسير بأظهر مصاديق الفتق بعد الرتق كما يبينه ذيل الآية، دون حصر فيه، و

قد قدم الامام (عليه السلام) خلق السماء و الأرض من الماء و في نفس الحديث بقوله: و خلق الشي‏ء الذي جميع الأشياء منه و هو الماء الذي خلق الأشياء منه فجعل نسب كل شي‏ء الى الماء و لم يجعل للماء نسبا يضاف اليه و خلق الريح من الماء ثم سلط الريح على الماء فشققت الريح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء ان يثور فخلق من ذلك الزبد أرضا بيضاء نقية .. ثم خلق اللّه النار من الماء فشققت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء ان يثور فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقية ... و ذلك قوله: و السماء بناها رفع سمكها فسواها و أغطش ليلها و اخرج ضحاها ... قال له الشامي يا أبا جعفر قول اللّه عز و جل: أ و لم ير الذين كفروا ...؟ قال: فلعلّك ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 288

المؤمنين علي (عليه السلام): «و ناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى اشراجها و فتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها»- «و كان من اقتدار جبروته و بديع لطائف صنعه ان جعل من البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبسا جامدا ثم فطر منه اطباقا ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها»

كما

«و كانتا مرتوقتين ليس بينهما أبواب و لم يكن للأرض أبواب و هو النبت و لم تمطر السماء عليها فتنبت ففتق السماء بالمطر و فتق الأرض بالنبات» «1».

و ليس الحصر في بعضها بالفتقة الاخيرة إلا نسبيا لاستنكار الفتقة المختلقة، بإثبات ما يصدقها ذيل الآية «وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ».

إذا «كانَتا رَتْقاً» تحلّق على كل فتق بعد رتق السماء و السماوات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 425 في تفسير القمي في سؤال الأبرش أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن هذه الآية «فما كان رتقهما و ما كان فتقهما؟ فقال (عليه السلام) يا ابرش هو كما وصف نفسه كان عرشه على الماء .. فلما أراد اللّه ان يخلق الأرض امر الرياح فضربت الماء حتى صار موجا ثم ازبد فصار زبدا واحدا ... فلما أراد ان يخلق السماء امر الرياح فضربت البحور حتى أزبدتها فخرج من ذلك الموج و الزبد من وسطه دخان ساطع من غير نار فخلق منه السماء و جعل فيها البروج و النجوم و منازل الشمس و القمر و أجراها في الفلك و كانت السماء خضراء على لون الماء الأخضر و كانت الأرض غبراء على لون الماء العذب و كانتا مرتوقتين ليس بينهما أبواب و لم يكن للأرض أبواب و هو النبت و لم تمطر السماء عليها فتنبت ففتق السماء بالمطر و فتق الأرض بالنبات و ذلك قوله‏ «أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما» فقال الأبرش: و اللّه ما حدثني بمثل هذا الحديث احد قط أعده علي فأعاد عليه و كان الأبرش ملحدا فقال:

و انا اشهد انك ابن نبي ثلاث مرات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 289

و الأرض و الأرضين، اجماعا دلاليا بين الآيات و الروايات و لا ينبئك مثل خبير.

و ما تدبير الخلق تكوينيا و تشريعيا إلّا فتق الرتق، و هو مزيج مع كل خلق، إذا فالخالق هو المدبر و المدبر هو الخالق دون اي فرق و لا فراق بين خلق و تدبير سبحان العلي القدير!.

فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ‏.

فمن ذلك الفتق فتق الماء عن رتق، إذ فتق عن أصله في السماء، ثم فتق السماء عنه إلى الأرض، ثم فتقت الأرض به بإخراج نابتاتها «1» نباتية و حيوانية و إنسانية أمّا هيه من حيّ، كما فتقت سائر الكرات الحية بذلك الماء حيث لا يختص- و لم يكن يختص- بهذه الأرض.

«كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ» تعم كل حي في السماوات و الأرض، فكما ان كل شي‏ء حي او ميت فتق من المادة الاولية الأم‏ «2»: «خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» كذلك جعل من أفضل ولائدها: الماء- كل شي‏ء حي، حياة ثانية بعد الاولى التي هي اصل الكون، «كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ» يخرج عن هذا المسرح الثاني كل شي‏ء ميت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من الدليل على شمول «حي» للنبات: انزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها- و اضرابها.

(2)

الدر المنثور 4: 317- اخرج احمد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم و صححه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أبي هريرة قال‏ قلت يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اني إذا رأيتك طابت نفسي و قرت عيني فانبئني عن كل شي‏ء، قال: كل شي‏ء خلق من الماء.

أقول: الماء هنا غير الماء المشروب، بل هو المادة الام كما في آية هود «وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 290

و هو كل جماد، فالماء الثاني- إذا- هو مادة كل حياة في‏ «كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ» دون إبقاء، سواء كانت حياة انسانية ام ملائكية ام جنية «1» اما هيه، و ما دونها من حياة نباتية و حيوانية.

«و قد يعم «الماء» اضافة الى أصله السائر في كل حي كضابطة كونية لأية حياة، قد يعم كل ماء متولد من ذلك الماء بخليط ام دون خليط، كما النطفة الجرثومية المخلوق منها كل دابة: «وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى‏ بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى‏ رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى‏ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (24: 45) فحين يخرج غير الدواب من الأحياء عن‏ «خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ» فليس يخرج عن‏ «جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ» مثل الملائكة و الطير و حيوان البحر، بما يوجد في الأخيرين من ماء النطفة أحيانا، فمهما كانت الملائكة مخلوقة من ماء و لكنه ليس ماء النطفة إذ لا تزاوج بينهم‏ «2».

ثم «الماء» النطفة يعم المني الدافق و سواه كما في الإنسان و سواه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و لا ينافي خلق الجن من نار جعله من ماء «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ» هو أصلهم الأولى كما خلق آدم من تراب، فنسل الجان من ماء النطفة و من اصل الماء، كما ان أصله النار فيه الماء.

(2) و لا ينافيه خلق الملائكة من النور كما في بعض الأحاديث، حيث النور كما النار من اصل الماء، ام خليطه، ام ان الجعل هو جعل بقاء الحياة الملائكية و الجنية بالماء و ان لم تكن أصولهم من هذا الماء، فلذلك لم يقل «خلقنا» و الجعل يعم الخلق بداية، و بقاءه و استمراره، فطائفة من الاحياء مثل الإنسان مجعولة من الماء خلقا و بقاء، و ثانية بقاء كالملائكة- و اللّه اعلم بما قال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 291

و لان الماء هو اصل الحياة

«طعم الماء طعم الحياة» «1»

و قد يكون بنفس السند شفاء من بعض الأدواء «2».

و لماذا هنا «جعلنا» دون خلقنا؟ علّه حيث المقصود أعم من الخلق بداية، و من استمرارية المخلوق منه حيوية، فكما خلق كل حي من ماء كذلك تستمر حياته بماء، دون إبقاء.

فهنالك فتق أول للخلق عن رتق الماء الأوّل و هو المادة الاولية، و فتق ثان هو خلق هذا الماء المشروب مما خلق منه، و فتق ثالث هو خلق النطف الجرثومية عن الماء الثاني، إذا فدور الماء في اصل الخلق و فرعه دور فعال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 427 عن المجمع و روى العياشي باسناده الى الحسين بن علوان قال: سئل ابو عبد اللّه (عليه السلام) عن طعم الماء، فقال: سل تفقها و لا تسأل تعنتا، طعم الماء طعم الحياة قال اللّه سبحانه‏ «وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ» و رواه في قرب الاسناد مثله.

(2)

المصدر في كتاب طب الأئمة عبد اللّه بن بسطام قال حدثنا ابن إسحاق ابن ابراهيم عن أبي الحسن العسكري (عليه السلام) قال: حضرته يوما و قد شكى اليه بعض إخواننا فقال: يا ابن رسول اللّه ان اهلي كثيرا يصيبهم هذا الوجع الملعون، قال و ما هو؟ قال: وجع الرأس، قال: خذ قدحا من ماء و اقرء عليه هذه الآية ثم اشربه فانه لا يضره ان شاء اللّه تعالى.

و

باسناده الى حماد بن عيسى يرفعه الى امير المؤمنين (عليه السلام) قال: إذا شكى أحدكم وجع الفخذين فليجلس في تور كبير و طست في الماء المسخن و ليضع يده عليه و ليقرأ هذه الآية و فيه عن سيف بن عمير عن شيخ من أصحابنا عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال كنا عنده فسأله شيخ فقال: بي وجع و انا اشرب له النبيذ و وصفه له الشيخ فقال له: ما يمنعك من الماء الذي جعل اللّه منه كل شي‏ء حي؟ قال: لا يوافقني، قال: فما يمنعك من العسل قال اللّه فيه شفاء للناس، قال: لا أجده، قال: فما يمنعك من اللبن الذي نبت لحمك و اشتد عظمك؟ قال: لا يوافقني قال (عليه السلام) له: أ تريد ان آمرك بشرب الخمر؟ لا و اللّه لا آمرك!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 292

منقطع النظير-:

«أَ فَلا يُؤْمِنُونَ» بذلك الخالق المدبر، المدبر الخالق، الذي بيده كل رتق و فتق، و بالنسبة للآلهة المختلقة و مختلقيها، حيث فتقها اللّه بعد رتق.

وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ 31 وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ‏ 32.

هنا عرض لفتق بعد رتق في الأرض، و آخر في السماء، هما من طيات الفتقات الثلاث للسماوات و الأرض، و الرواسي المجعولة في الأرض- لا المخلوقة- هي الجبال الراسية الموتّدة في أعماقها، الشاهقة رءوسها، و عل المفعول الاول ل «لجعلنا» هي الجبال قبل رسوّها و قد خلقت من الأمواج السطح الأرضية، كما

سئل الامام علي (عليه السلام) مم خلقت الجبال؟

قال: من الأمواج.

و لماذا جعلت الرواسي؟ «أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ» حفاظا عن الميدان و هو سرعة الدوران، و «عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها ... فسكنت من الميدان برسوب الجبال في قطع أديمها» «فسكنت على حركتها من ان تميد باهلها او ان تسيخ بحملها»: «وَ أَلْقى‏ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (16: 15) «1» فللرواسي علاقة عريقة بتوازن الكرة الارضية في سبحها الدائب بيمّ الفضاء، فلا تميد بهم و تضطرب بل هي مهد و مهاد!.

هذه رواسي الأرض ان تميد بهم في رجفاتها، و تلك فجاجها السبل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير آية النحل في النحل ففيها تفصيل اكثر مما هنا، و كذلك ... وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 293

بينها لعلكم تهتدون، و بأحرى منها الرواسي القيادية الروحية، الراسية في اعماق ارض الحياة الإنسانية، عن ان تميد بكم من ضربات و رجفات، و هم الرعيل الأعلى الرساليين، ثم الفجاج السبل هم العلماء الربانيون، الوسطاء بينهم و بين الناس.

«وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً» عن التساقط من علياها الى دنياها، إذ «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» «وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (22: 65) و محفوظا عن تسمّع الجن الى الملإ الأعلى: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ» (37: 10) «وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ» (15: 18).

«وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ»:- «قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ» (10: 101) فهم يعرضون عن آياتها كونية و شرعية.

و من السماء السقف المحفوظ بآياتها، سماء الوحي بآياته، إذ لا تدخّل فيها من الشياطين و سواهم من المتسمّعين.

فالسقف ما يظل الإنسان من عل و السماء هي أعلى السقوف، و لكنها خلاف سائر السقوف فانها دون عمد مرئية، و كذلك سماء الرسالات غير مرئية العمد، و هي أعمدة الوحي و رباطاته الإلهية محفوظة عن كل انفراج و انهدام و تشعث و استرمام، كما هي محفوظة من مسارق السمع، محصنة بمقاذف الشهب.

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ‏ 33.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 294

هنا تعرفنا الى سباحة الشمس و القمر، كل في فلكه الخاص به، فما هي سباحة الليل و النهار و هما من مظاهر سباحة الأرض و الشمس دونما استقلال عنها؟.

ان لها ثانية في يس تعني في «يسبحون» الأرض و الشمس و القمر:

«... لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (40) حيث تسبقها الأرض، فهي- إذا- معنية في هذه السباحة العاقلة مع النيرين.

فكذلك الأمر في هذه حيث تسبقها الأرض كما هناك، و هنا زيادة «آياتها» و منها نجومها بمجراتها ف «كل» من هذه الثلاثة آياتها «فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» دون حاجة الى حمل التوجيه ل «اللَّيْلَ وَ النَّهارَ» و هما ظاهرتان من سبح الأرض بواجهتها الخاصة للشمس!.

و قد نتلمح من هنا ان لا ثوابت في آيات السماء، فكلها سيارات، فردية في أفلاكها، و جماعية في مجرّاتها و جزائرها في خضمّ الفضاء!.

هذا و قد تعني «يسبحون» فيما عنت‏ «اللَّيْلَ وَ النَّهارَ» و المعني من سباحتهما في فلكهما مدار كلّ تبعا لدوران الأرض حول نفسها و شمسها، و لكن الليل و النهار مسبح لسابح الأرض و هما لا يسبحان، و هنا نتأكد ان «يسبحون» تشمل «آياتها» كلها، و هي الكواكب كلها.

وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ‏ 34.

«الخلد» هنا هو البقاء في الحياة الدنيا، و هي زائلة بمن فيها و ما فيها، فلا خلد لها فضلا عن مواليدها! «وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ» حيث قضوا نحبهم و منهم من ينتظر كالمسيح و الخضر و سائر الأحياء.

و قد تلمح الآية انه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) تمنى بقاء، ام اكثر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 295

مما كان كما

يروى‏ «لما نعى جبريل للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه قال: يا رب فمن لأمتي؟ فنزلت‏ «وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ...» «1».

و بذلك تستأصل منية الخلود حتى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مهما هرف فيه هارف و خرف خارف رغم نص القرآن‏ «2».

و لمحة ثانية تستأصل أمنيات المشركين‏ «أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ» (51: 30) إذ كانوا يتربصون به الموت فيتخلصوا منه و كأنهم بعده باقون‏ «3» «أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ»؟ كلا إلا متعة الحياة عاجلا او آجلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 318- اخرج ابن المنذر عن ابن جريح قال لما نعى ...

(2، 3)

المصدر- اخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال‏ لما قبض رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان ابو بكر في ناحية المدينة فجاء فدخل على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو مسجى فوضع فاه على جبين رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و جعل يقبله و يبكي و يقول بابي و امي طبت حيا و ميتا فلما خرج مر بعمر بن الخطاب و هو يقول: ما مات رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و لا يموت حتى يقتل اللّه المنافقين و حتى يخزي اللّه المنافقين، قال و كانوا قدر استبشروا بموت النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فرفعوا رؤسهم فقال ايها الرجل اربع على نفسك فان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قد مات الم تسمع اللّه يقول: انك ميت و انهم ميتون، و قال: و ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أ فإن مت فهم الخالدون، قال: ثم أتى المنبر فصعده فحمد اللّه و اثنى عليه ثم قال: ايها الناس ان كان محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلهكم الذي تعبدون فان محمدا قد مات، و ان كان إلهكم الذي في السماء لم يمت ثم تلا: و ما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أ فإن مات او قتل انقلبتم على أعقبكم ... ثم نزل و استبشر المسلمون بذلك و اشتد فرحهم و أخذت المنافقين الكآبة قال عبد اللّه بن عمر: فو الذي نفسي بيده لكأنما كانت على وجوهنا اغطية فكشفت ...

أقول و ابشر بأدب الخليفة عمر كيف يقول متغيظا «ان كان محمد إلهكم» ثم ابشر بمعرفته باللّه كيف يمكّنه في السماء!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 296

في بلوى الخير و الشر، كما الرسول لهم بلوى.

و قد تلمح «لبشر» ان الخلد جائز لغير البشر كما الملائكة هم خالدون مدى الحياة الدنيا فلا يموتون، و لا يعني الخلود الأبدية اللانهائية، إذ لا يزعمها اي عاقل و لا مجنون، و انما هو البقاء مدة طويلة و منها طول الحياة الدنيا، فذلك الخلود منفي عن كل بشر، مهما ثبت لغير بشر.

فالموت شامل كل بشر «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» (39: 30) مهما كان انتقالا من حياة إلى اخرى، و من نشأة إلى اخرى دون موت الفناء، اللهم إلّا في صعقة إلا ماتة حيث لا يستثنى منها إلا من شاء اللّه: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39: 68).

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ‏ 35.

أ ترى‏ «كُلُّ نَفْسٍ» هنا تشمل كل نفس حية و سواها، إلهية و سواها حيث اطلق على ذاته تعالى: «وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» (3: 28) «تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ» (5: 116) «وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» (20: 41)؟ «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» (6: 54)؟

كلّا! حيث النفس فيها و في اضرابها لا تعني إلا نفس الكائن و ذاته فلا تأتي إلا مضافة الى نفس الكائن، حيا و سواه، إلهيا و سواه، فكما «يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» كذلك: «أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي» (12: 54) و رأيت الدار نفسها، و وقع الجدار نفسه، فبين النفس الذائقة الموت و هذه النفس الذات عموم من وجه تفترقان في الجماد، إذ لا حياة له حتى يذوق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 297

الموت، و في اللّه فانه الحي الذي لا يموت، و تجتمعان في الأنفس الحية التي تذوق الموت.

فالنفس الذات لا بد لها من اضافتها الى الذات فلا تشملها غير المضافة ك «كُلُّ نَفْسٍ» مهما شملت المضافة غير الذات: «وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» (12: 54) «وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي» (20: 96).

فالذات المقدسة الإلهية خارجة عن‏ «كُلُّ نَفْسٍ» كما الأنفس غير الحية، حيث ان ذوق الموت ليس الا عن حياة، و الاضافة فيها تعني النفس الذات.

و النفس غير المضافة، أو المضافة إلى غير ذاتها كاملة، هي الجزء الحي من الكائن المركب من نفس و سواها، سواء الروح ككل‏ «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها. فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» (91: 7) او الروح بخاصة من أوصافه، كالنفس الامارة «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» (12: 54) و اللوامة «وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» (75: 2) و المطمئنة «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» (89: 26) و لان‏ «كُلُّ نَفْسٍ» غير مقيدة بواحدة من هذه الثلاث، و ان ذوق الموت هو لأصل النفس مصحوبة بهذه الثلاث، فهو إذا كل نفس حية، و هي هنا المكلفة المبتلاة بالشر و الخير، الراجعة الى ربها، فخاصة بالمكلفين من الملائكة و الجنة و الناس أجمعين، مهما خصّت الملائكة بالبقاء مدى الحياة الدنيا، و لكنها قد تعرضها الصعقة إلا من شاء اللّه‏ «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» (39: 68) و الصعقة بين موت و ذوق الموت.

ثم «و نبلوكم» لا تنافي عصمة الملائكة و كما ابتلوا في قصة آدم، ام انها خصوص بعد عموم، ف «نبلوكم» تخص غير الملائكة المعنيين بعموم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 298

«كُلُّ نَفْسٍ» و الاول اولى و لا سيما لشموله من هم اعصم من الملائكة و أعظم.

فلا تختص‏ «كُلُّ نَفْسٍ» بالنفس الإنسانية بشاهد اطلاق النفس عليها دون سواها، فانها تشمل كل نفس مكلفة مبتلاة راجعة إلى اللّه، و ذوق الموت أعم من الموت نفسه، فقد تذوقه و لا تموت موت الفوت ككل من يموت عن هذه الأدنى، حيث الأرواح لا تموت فوتا، و انما تذوق موت أبدانها، و فراقها عنها، و قد تموت ردحا ثم تحيى كما في صعقة القيامة «إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ».

اجل‏ «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ ..»- «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (29: 57) «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ» (3: 185).

ثم الموت قد يعني ذوقه نفسه، كما في كل موتة عن الحياة الدنيا، ام هو الفوت ردحا قبل قيامة الإحياء، أم يعنيهما و لا خارج عن هذه الثلاث اللهم إلا موت الآبدين في النار مع النار، حيث لا نار و لا اهل نار فانه موت الفوت، دون الجنة فانها دار القرار.

وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً؟

ذلك الخير حيث الخير كله بيديه، فما هو- إذا- الشر، و الشر ليس اليه؟.

فتنة الشر قد تكون جزاء وفاقا لشر قبلها كما فتن بنو إسرائيل: «فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» (20: 85) فهذه شر بشر و هو خير في ميزان العدل مهما سمي شرا في ميزان الخلق لمكان ابتلاءهم فيها «كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» (7: 163).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 299

و أخرى هي فتنة ملتوية صعبة، لا تلائم النفوس في البداية، و لكنها تبوء الى خير في النهاية كما يفتن المؤمنون بفقد الأحبة امّا هيه مما هم متعلقون به، مفتاقون اليه و العون فيه كما «قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ» (2: 249) و

لقد مرض امير المؤمنين (عليه السلام) فعاده إخوانه فقالوا: كيف نجدك يا امير المؤمنين (عليه السلام) قال: بشرّ، قالوا: ما هذا كلام مثلك؟ قال: ان اللّه تعالى يقول: وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً ...» فالخير الصحة و الغنى و الشر المرض و الفقر» «1».

و من البلاء الحسن نصر من اللّه‏ «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏ وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (8: 17).

ثم و في واجهة عامة شاملة، الدنيا بحذافيرها فتنة و بلوى‏ «إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (18: 7) «وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (5: 48) «وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (6: 165) «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (67: 2) وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (7: 168).

فلا كرامة في بلوى الخير و لا مهانة في بلوى الشر، اللهم إلا بلوى العقوبات: «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ، كَلَّا ...» (89: 15- 16) و بلوى المثوبات‏ «وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 30: 429 في مجمع البيان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) ان امير المؤمنين (عليه السلام) مرض ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 300

و ترى الابتلاء بالشر ابلى او الابتلاء بالخير، حقا ان الابتلاء بالخير أشد وطأة و إن خيّل للبسطاء عكسه، فهنا لك كثيرون من المؤمنين يصمدون في فتنة الشر، و اما فتنة الخير فقلة قليلة تصمد لها، فمن هذا الذي يصمد على قضية الإيمان في جماح القدرة الهائجة و السلطة المائجة إلا السابقون و المقربون و من ثم اصحاب اليمين؟ حيث الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء و يستحث المقاومة و يجند الأعصاب، و لكنما الرخاء ترخي الأعصاب و تفقدها القدرة على اليقظة و المقاومة.

لذلك ترى هؤلاء الذين يجتازون الكثير من عقبات الشر و الضر، هم أنفسهم ليسوا ليجتازوا عقبات فتن الخير، فيسقطون في هوّات الرعونات، و يتساقطون في مجالي الثروات و الفرعنات، و كما نراهم طوال التاريخ، أعاذنا اللّه من تلك الفتن العضال.

و كما نرى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يعجب من هؤلاء المؤمنين القلة قائلا:

«عجبا لأمر المؤمن ان امره كله خير و ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له و ان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له» «1».

«وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» كما منا تبدءون‏ «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» فقد كنا قبل عالم الاختيار في خيرة اللّه، إذ كنا أجنّة في بطون أمهاتنا، ثم حللنا عالم الاختيار ثم التكليف الاختبار، و من ثم نرجع الى ما كناد دون خيرة فيه منا اللهم الا ما قدمناه لأنفسنا «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏».

وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ‏ 36.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه مسلم بسنده في كتاب الزهد و الرقائق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 301

«وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا. إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا» (25: 42).

رجعة الى ما بدء به في هذه السورة من: كيف كان المشركون يستقبلون الرسول و به يستهزؤن؟ و ذلك بعد شوط بعيد في سنن الدعوات و مصائر الغابرين و مصارعهم في صراع الحق.

«إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً» دون أن يحسبوا لك حسابا آخر، كأنك مهزئ لهم و ملعب يتخذونك هزوا لأنك أنت، و انك تذكر آلهتهم بسوء «وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ» حال انهم- و هم معترفون بالإله الرحمن- هم بذكر الرحمن هم كافرون، ايمانا و احتراما بالآلهة الفروع، و كفرا و اختراما بالإله الرحمن» «1».

و ذكر الرحمن، و جاه‏ «يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ» هو الذكر اللائق بالرحمن: «وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى‏ أَدْبارِهِمْ نُفُوراً» (17: 46) كفرا بالرحمن، و لكنهم بذكر آلهتهم مؤمنون، و حين تذكر كما هي فهم مستاءون و مستهزءون.

و «بِذِكْرِ الرَّحْمنِ» اضافة للمصدر الى مفعوله هو ان يذكر الرحمن، و هو بتقدير اللام له مصداقان آخران، القرآن و نبي القرآن فإنهما أفضل ذكر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 319- اخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال‏ مر النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على أبي سفيان و أبي جهل و هما يتحدثان فلما رآه ابو جهل ضحك و قال لأبي سفيان هذا نبي بني عبد مناف فغضب ابو سفيان فقال: ما تنكرون ان يكون لبني عبد مناف نبي فسمعها النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فرجع الى أبي جهل فوقع به و خوّفه و قال: ما أراك منتهيا حتى يصيبك ما أصاب عمك و قال لأبي سفيان اما انك لم تقل ما قلت إلا حمية فنزلت هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 302

للرحمن، ثم و سائر الذكر آفاقية و انسية حيث تذكّرنا الرحمن.

و «هُمْ كافِرُونَ» تأكيد في تأنيب، انهم الذين يستاءون من ذكر آلهتهم بالحق تزييفا لأنهم بهم مؤمنون، كيف هم يكفرون بذكر الرحمن وحده و هم به مصدقون: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» (29: 61).

خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ‏ 37.

أ ترى ما هو العجل المخلوق منه الإنسان، و على ايّ كان فلما ذا يندد به الإنسان و هو من خلق الرحمان؟ فهل انه مبالغة في مواصفته كأنه مخلوق من عجل؟ و المبالغة فيها شطر من الكذب و كلام اللّه منه براء! ثم و كيف ينسب اللّه الى نفسه ما هو فعل الإنسان!.

ام هو على القلب ان خلق العجل من الإنسان؟ و هو قلب لكلام اللّه! و تغلّب على ما رسمه اللّه! اضافة الى مبالغة كاذبة!.

«عجل» هنا هو المعجول به في نشأته إذ «خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ» معجول به في إنزاله و كما أب الإنسان الأول استعجل حيث خلق من عجل، و هو ترابه و روحه المستعجل في نضوجه‏ «1»، فالعجل- إذا- في نشأته و ذاته‏ «وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا» (17: 11) منذ كان ماء دافقا، فهو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المجمع عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) ان آدم لما خلق و جعلت الروح في اكثر جسده وثب عجلان مبادرا الى ثمار الجنة و هم بالوثوب و في تفسير القمي لما اجري في آدم الروح من قدميه فبلغت الى ركبتيه أراد ان يقوم فلم يقدر فقال اللّه‏ «خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ» و في الدر المنثور عن مجاهد في الآية قال: آدم- حين خلق بعد كل شي‏ء آخر النهار من يوم خلق الخلق فلما اجري الروح في عينيه و لسانه و رأسه و لم يبلغ أسفله قال يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 303

مستعجل بطلب ما يؤثره و استطراف ما يحذره، و اللّه سبحانه يعطيه ما طلب و يصرف عنه ما رهب على حسب ما يعلمه من المصالح، لا ما يهواه من المطالح.

فالعجل في أصله خير تحريضا له على الاستعجال في مسارح الخيرات، كدحا منه في الطلب، و كبحا بلجام الصبر في مسارح الوقفة او الهرب.

فلا مأخذ على اللّه في خلق الإنسان من عجل و في عجل تضمينا للنجاح في طلبات الخير، بل هو على الإنسان الكادح غير الكابح في مجالاته الحيوية حيث يدعو بالشر دعاءه بالخير و كان الإنسان عجولا.

و من ذلك العجل الطالح غير الصالح استعجال المكذبين بآيات اللّه بعذابات اللّه، و لها اجل مسمى: «و لولا اجل مسمى لقضي بينهم» و من قبلهم لهم آجال في الحياة الدنيا مستأجلة امهالا و املالا و هم يستعجلونها!.

«سَأُرِيكُمْ آياتِي» لوقتها «فَلا تَسْتَعْجِلُونِ» حينها بل و تستأجلونها و لات حين مناص، إذ قد مضى يوم الخلاص.

فالإنسان بطبعه يمد ببصره و يده الى ما وراء اللحظة الحاضرة استعجالا لكل آجل و ان كان فيه ضره، الا ان يتصل برحمة من اللّه، و يكل امره الى اللّه، و يستسلم في كل عاجل و آجل للّه، ابتغاء مرضات اللّه.

ف «إياك و العجلة بالأمور قبل أوانها، و التساقط فيها عن إمكانها، او اللجاجة فيها إذا تنكرت، او الوهن عنها إذا استوضحت، فضع كل امر موضعه، و أوقع كل عمل موقعه» ف «مع التثبت يكون السلامة، و مع العجلة يكون الندامة، و من ابتدأ العمل في غير وقته كان بلوغه في غير حينه».

ثم و مستأجل المستعجل هو كمستعجل المستأجل، فليكن التعجيل و التأجيل كلّ لوقته المؤجّل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 304

وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏ 38.

و ترى ما هي الرباط بين صدق الوعد و متاه و هم يرددون هذه القولة أمام الداعية كأنهم بذلك هم الغالبون!.

و «هذَا الْوَعْدُ» قد يعم عاجله و آجله في عاجل الحياة و آجلها، و على أية حال فهو وعد مجهول الأمد، معلوم البدد.

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ 39 بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ‏ 40.

«لو» قد تعني هنا استحالة علمهم بالزمن المحدد للوعد، فالجواب مقدر، لو يعلمون لكان شأنهم غير شأنهم المستهزء الشائن، ام تعني تمني علمهم عرضا لحالهم الظاهر من قالهم، و «حين» على الوجهين مفعول «يعلم» فلو يعلمون و قد ناشتهم النار من وجوههم و ظهورهم، في هذه المباغتة لوعدهم، حيث تلقفهم النار و هم يلعبون: «أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» (7: 98).

و انها مباغتة تشل الارادة و تذهل العقول، فلا هم يكفون عن وجوههم النار او عن ظهورهم و لا هم ينصرون في ذلك الكف، إذا فتبهتهم النار التي أحاطت بهم سرادقها «فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها» بقوة ذاتية ام نصرة «وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ» تأجيلا و قد كانوا بها يستعجلون.

وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ‏ 41.

تسلية لخاطر الرسول الأقدس (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أن لست بدعا من الرسل في هزئك‏ «وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ» ثم باغتهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 305

العذاب في الاولى قبل الاخرى‏ «فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ» نزولا و حلولا «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» و هو العذاب الموعود، و هو نفس استهزاءهم‏ «وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» (35: 43).

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ‏ 42.

الكلاءة هي الحفظ للشي‏ء و تبقيته، فمن ذا الذي يحافظ عليكم من الخطرات الناجمة لكم الهاجمة عليكم إلا الرحمن الذي خلقكم، «بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ»- «وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً» (6: 61) «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ حَفِيظٌ» (11: 57).

«قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ‏ .. مِنَ الرَّحْمنِ» الا الرحمن و كما يقال: أعوذ بك منك! امّن يلكؤكم من بأس الرحمن .. «وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ» (6: 17) فلا كالئ إلا الرحمن‏ «بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ» فهم غافلون ألّا كالئ لهم من الرحمن إلا الرحمن‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»! أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ‏ 43.

تلك الآلهة الوالهة، الجاهلة العاجزة الكالحة، إذ لا يستطيعون نصر أنفسهم من بأس الرحمن‏ «وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ» و يجارون، افهم‏ «تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا» و هم «آلهة من دوننا»؟ آلهة من دوننا، تمنعهم من دوننا!.

فحين لا كالئ لهم في الاولى و هي دار الأسباب و البلوى، فكيف- إذا- بالأخرى و قد تقطعت الأسباب، و حارت دونها الألباب؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 306

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ» 44.

انه ليس لهم حول و لا قوة في منعهم من دون اللّه‏ «بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ» متاع الحياة الدنيا و زينتها فأترفوا فيها «حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ» في متعهم و اترافهم في كل أطرافهم، فنسوا ذكر اللّه، و ذلك هو الابتلاء البعيد السحيق بالمتعة النعمة، حيث تبدل نعمة و نقمة، فقد بدلوا نعمة اللّه كفرا و أحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها و بئس القرار.

«أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها ...»- «وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ. أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ» (13: 41).

ذلك الإتيان الرباني هو إتيانه بالقوة القاهرة ارض الإنسانية لينقصها من أطرافها بعد إكمالها بأطرافها، نقصانا لناسها النسناس‏ «1» و هو من كمالها، ام لناسها الناس كالعلماء الربانيين‏ «2» و هو من نقصها، و على اية الحالين فهو انتقاص من ارض عن ساكنيها قلة ام ثلة، كما و من نقصانها الزلازل و البراكين المدمرة المزمجرة لاطراف منها، حيث تعني الأطراف محيطاتها الحائطة بها فهي- إذا- كلّها، و ذلك المثلث من نقصانها تهدّد بمن يتمتعون كما الانعام و لا يرعوون، فأوسطه للمسلمين الذين لا يسمعون و لا يعون من علماءهم و الآخران للمكذبين بآيات اللّه الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 319 عن الحسن يقول في الآية: ظهور النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على من قاتله أرضا أرضا و قوما قوما.

(2)

في المجمع: و روي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: نقصانها ذهاب عالمها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 307

و ذلك من مسارح الغلبة الربانية على الذين هم عن ذكر ربهم معرضون‏ «أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ»؟ كيف، و نحن نرى الأرض طول تاريخها الانساني تطوى فيها رقعة الدول المتغلبة المتألبة فتنحسر و تتقلص و تتنكّس، فإذا هي ويلات في دويلات بعد ما كانت امبراطوريات كالروماني و الايراني، و إذا هي مغلوبة على أمرها و قد كانت غالبة على آخرين.

قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ‏ 45.

إنذار رسالي ليس إلا بالوحي، دعاء لمن يسمع الدعاء، فاحذروا أن تكونوا من الصّم الذين لا يسمعون الدعاء فتطوى الأرض تحت أقدامكم، و تقص يد القدرة الربانية اطرافكم، فتصبحون جيفة جيفة بعد ما كنتم- كما تزعمون- في حياة ناعمة شريفة.

فلا قصور و لا تقصير في الإنذار بالوحي، و انما ذلك فيمن ينذرون و لا يسمعون‏ «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ» (8: 22) حيث تنازلوا عن السمع و العقل انسانيا، فأصبحوا شر الدواب‏ «لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (7: 179):

وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ‏ 46.

«نفحة» فقط دون زيادة، و هي النفحات الدنيوية بمختلف العذابات مستأصلة و دونها، و هي على أية حال نفحة من العذاب و اصابة اليسير منه القصير، دون نفسه الطويل العسير، يدل واقعه على عظيم متوقّعه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 308

و شاهده على فظيع غائبة.

و هنا لك الويل و الاعتراف‏ «إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ» و لات حين مناص،! و قد مضى يوم الخلاص.

وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى‏ بِنا حاسِبِينَ‏ 47.

الموازين هي جمع الميزان: ما يوزن به، و «القسط» عطف بيان للموازين ام وصف لها، و انما أفردت تأشيرا الى وحدة الموازين في كونها قسطا، مهما كان لكلّ حالة و قالة و فعالة ميزان من نوعها هو القسط المعني، منها، كما «الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» حيث الحق هو الوزن، فحق الصلاة وزن لها، كما حق الايمان ام أيا كان هو حقه المرام، كتابا و نبيّا هما الجناحان المحلّقان على الحق المرام الطائران بنا الى الحق المرام.

فلذلك يجمع الوزن الحقّ بعده مفرّعا عليه: «وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ..» (7: 9).

و لان القسط هو فوق العدل فهو أحق الحق، فقد تلمح ان اللّه يثيب الصالحين اكثر مما عملوا قسطا، و يعاقب الطالحين اقل مما عملوا للحد الذي لا ينافي العدل.

فالحق القسط هما الموازين و هما متمثلان في كتابات الوحي و رجالاته‏ «1» و لكلّ جنبات من الميزان، توزن بها الأقوال و الأحوال و الأعمال ثم لا وزن كما لا ميزان للباطل:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 430 في معاني الاخبار باسناده الى هشام قال‏ سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الآية قال: هم الأنبياء و الأوصياء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 309

«أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» (18: 105) «فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ. وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ» (101: 7) و كما

يروى‏ «الحسنات ثقل الميزان و السيآت خفة الميزان».

فليس- إذا- الميزان ما له كفتان ام أيا كان من وزن نتعوده‏

«ان الأعمال ليست بأجسام انما هي صفة ما عملوا ..» «1»

فانما هو القياس للحسنات على الحق و القسط، فعلى قدر تمثلهما فيها يكون الوزن، ثم لا وزن للسيئات‏ «2» اللهم إلا قياسا على سيئات لغير من خفت موازينه كأهل الإسلام‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البرهان 3: 61 في الاحتجاج عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في حديث له‏ مع سائل يسأله قال: او ليس توزن الأعمال قال ان الأعمال .. و انما يحتاج الى وزن الشي‏ء من جهل عدد الأشياء و لا يعرف ثقلها و خفتها و ان اللّه لا يخفى عليه شي‏ء قال فما الميزان؟ قال: العدل، قال: فما معناه في كتابه: فمن ثقلت؟ قال: فمن رجح عمله.

(2)

المصدر في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين (عليهما السلام) في الوعظ و الزهد في الدنيا في الآية اعملوا عباد اللّه ان اهل الشرك لا تنصب لهم الموازين و لا تنصب لهم الدواوين و انما يحشرون الى جهنم و انما نصب الموازين و نشر الدواوين لأهل الإسلام فاتقوا اللّه عباد اللّه.

(3)

الدر المنثور- اخرج جماعة عن عائشة ان رجلا قال يا رسول اللّه ان لي مملوكين يكذبونني و يخونونني و يعصونني و اضربهم و اشتمهم فكيف انا منهم؟ فقال له رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): يحسب ما خانوك و عصوك و كذبوك و عقابك إياهم، فان كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك و إن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك و لا عليك و ان كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل، فجعل الرجل يبكي و يهتف فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اما تقرء كتاب اللّه‏ «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ... «فقال الرجل يا رسول اللّه ما أجد لي و لهم شيئا خيرا من مفارقتهم أشهدك أنهم أحرار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 310

و من قسط الموازين- حيث «لا تظلم‏ نَفْسٌ شَيْئاً»: «وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها» تصويرا لا صغر ما تلحضه العيون، تمثيلا مثيلا لأقل الحسنات، و اما السيئات فلا يؤتى بصغائرها لمن ترك كبائرها: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ» (4: 31) و كذلك الكبائر المعفوة بتوبات، و علّه كذلك صغائر السيئات لمقترفي في الكبائر، فلا تكفيهم كبائرهم بأسا، و ذلك قضية الحق القسط لمقترفي في السيآت‏ «1».

فلا يفلت عن الوزن ماله وزن‏ «وَ كَفى‏ بِنا حاسِبِينَ» حيث الحيطة العلمية و القدرة الّا محدودة و هو سريع الحساب.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 48 الى 77]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى‏ وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50) وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ (51) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (52)

قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (53) قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (54) قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (55) قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلى‏ ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57)

فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (60) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى‏ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (62)

قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلى‏ أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى‏ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (65) قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (67)

قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (68) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ (69) وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (71) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (72)

وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ (73) وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (74) وَ أَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) وَ نُوحاً إِذْ نادى‏ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (77)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البرهان 3: 61 عن الطبرسي في الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) في حديث له مع زنديق في جواب مسائله قال (عليه السلام): و اما قوله: وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً» فهو ميزان العدل يؤخذ به الخلائق يوم القيامة يدين اللّه تعالى بعضهم من بعض و يجزيهم بأعمالهم و يقتص للمظلوم من الظالم و معنى قوله: فمن ثقلت موازينه و من خفت موازينه فهو قلة الحساب و كثرته و الناس يومئذ على طبقات و منازل فمنهم من يحاسب حسابا يسيرا و ينقلب الى اهله مسرورا، و منهم من يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم لم يتلبسوا من الدنيا بشي‏ء و انما الحساب هناك على من تلبس منها هاهنا و من يحاسب على النقير و القطمير و يصير الى عذاب السعير أئمة الكفر و قادة الضلال فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا و لا يعبأ بهم لأنهم لم يعبئوا بامره و نهيه يوم القيامة فهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار و هم فيها طالحون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 313

سرد لقصص من بعض المرسلين و ما لا قوة و ذاقوه من بأس المكذبين، و ما نصرهم اللّه عليهم و العاقبة للمتقين، تسلية لخاطر الرسول الأقدس تأسيا بسنن المرسلين.

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى‏ وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ 48 الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ‏ 49.

«الفرقان» هو آية الرسالة الحقة المعبّر عنه هنا في التورات ب «ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ»: «وَ إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (2: 53) فليست التوراة بنفسها آية و فرقانا بين حق الدعوى و باطلها، و انما هو القرآن الذي هو بنفسه فرقان و ضياء و ذكر للمتقين، و لذلك يعقبها كلها ب «هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ»، ففرقان موسى هو ثعبان العصا و اليد البيضاء و اضرابهما من آيات اللّه الكبرى، و فرقان محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو القرآن: «وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ» (3: 4)- «تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى‏ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» (25: 1).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 314

ثم‏ «وَ ضِياءً وَ ذِكْراً» يتمثلان في التوراة و رسول التوراة، فليسا هما الضياء و الذكر ككل، و انما «ضِياءً وَ ذِكْراً» و لكنما القرآن الفرقان هو الضياء و الذكر ككل‏ «وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ» كما هو الفرقان ككلّ.

و «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ..» مواصفتان للمتقين المستضيئين بضياء و المتذكرين بذكر، «يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» و هو «بالغيب» و «يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» و هم «بالغيب» عن المشاهد» ام‏ «يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» بالغيب في قرارة أنفسهم، ام بسبب الغيب و هو الآخرة التي هم منها مشفقون، محتملات اربع تحتملها كلها «بالغيب» باختلاف الجار و المجرور صدقا و مصداقا «1».

«وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ» القيامة «مشفقون» خوفا تشوبه الهيبة و العظمة.

وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ‏ 50.

«ذِكْرٌ مُبارَكٌ» يحمل كل فرقان و ضياء و ذكر دون إبقاء، فالبركة هي الرحمة الواسعة المباركة «أنزلناه» بعد كتابات السماء و آياتها كلها، و هي تشملها و زيادة قضية الخلود «أ فأنتم» المألوفون بمرور الضياء و كرور الذكر و الفرقان «له» الشامل لها كلها «منكرون» فباحرى ان تنكروها إذا «أنتم‏ لَهُ مُنْكِرُونَ».

فنكران القرآن الفرقان نكران لكل فرقان لاي نبي كان، و لا مجال لنكرانه لكتابي حيث الالفة بوحي الكتاب تلزمه على الايمان به و لا سواه، فانه آية بيّنة الهية تدل على وجود اللّه لناكريه، و على وحدته لمشركيه، و على وحيه الرسالي القمة للمترددين فيه، فهو الفرقان الضياء الذكر المبارك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالياء على الثلاثة الاول بين ظرفية و سببية، و على الاخيرة سببية، و الغيب على الترتيب غيب اللّه- غيبهم عن الناس- غيبهم في أنفسهم- غيب الآخرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 315

الذي‏ «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ‏ 51.

«من قبل» هنا قد يعني- فقط- من قبل موسى و هارون، و لكنه إيضاح للواضح حيث القبلية الزمنية لإبراهيم واضحة لدى الكل!.

فقد تعني- فيما عنت- القبلية الرتبية و أوليتها بالنسبة لموسى مهما شملت الزمنية، و كما عبر عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بأول العابدين فقد «أوجس‏ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى‏» و لم يوجس ابراهيم حين وضع في المنجنيق‏ «1» و ابتلي بابتلاءات لم يبتل بها موسى، و هذه من قبليته الرتبية على موسى.

أم و قبلية في حياته، ان رشده في الدعاية الصامدة التوحيدية كان قبل إمامته و رسالته، حيث كان في حضانة آزر و هو بعد طفل، لم يبلغ مبلغ الرجال و لا الشباب، فقد بزغت دعوته هذه منذ بزغت حياته العقلية الطفولية، و ذلك الرشد هو من عطيات اللّه.

«وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ» و لم تكن عطية مجانية فوضى، بل‏ «وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ» انه يوفّي و يكفّي أمانة اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 12: 35 عن إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال‏ سألت أبا عبد اللّه الصادق (عليه السلام) عن موسى بن عمران (عليه السلام) لما رأى حبالهم و عصيهم كيف أوجس في نفسه خيفة و لم يوجسها ابراهيم (عليه السلام) حين وضع في المنجنيق و قذف به في النار؟ فقال: ان ابراهيم (عليه السلام) حين وضع في المنجنيق كان مستندا الى ما في صلبه من أنوار حجج اللّه عز و جل و لم يكن موسى (عليه السلام) كذلك فلهذا أوجس في نفسه خيفة موسى و لم يوجسها ابراهيم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 316

إذا فليس رشده المؤتى من لدنا «من قبل» فوضى جزاف، بل انه حلّ محلّه اللائق اللابق، و ذلك هو الرشد الرشيد لمن يبتعثه اللّه رسولا الى خلقه، انه يصنعه بعينه و رعايته، ما يعبّد طريقه الى الرسالة، منذ أصلاب الآباء و أرحام الأمهات حتى الولادة و الطفولة و الغلمة البالغة و الكهولة و الشيخوخة، فسلام عليه يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حيا، و لكي يأهل لحمل الامانة الكبرى، متعبا نفسه فيها.

و هذه الآية بما بعدها حلقة رسالية شاخصة في ميادينها تحلّق على تاريخها مقسّمة الى مشاهد متتابعة بينها فجوات، بادئة بسابق الرشد لإبراهيم في ذلك المسرح الصريح الجري‏ء «وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ» و باستعداده لحمل الامانة الكبرى التي حملها المرسلون، و هو صاحب الراية في الطليعة:

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ‏ 52.

و ان بين قاله لأبيه آزر و قاله لقومه ردح من الزمن، إذ قال لأبيه و هو تحت حضانته و كفالته و لما يبلغ مبلغ الرجال و الشباب ليخوض خضمّ المجتمع حتى يكون له قوم، مهما كان القال نفس القال، لوحدة المجال، وداء الشرك العضال.

«إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً. يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا» (19: 43)- «وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (6: 74). و التماثيل هي الأشباه، إذ كانوا يعملون الصور المجسمة الشبيهة بذوات الأرواح، و هي أشباح بلا أرواح، و كيف يعكف ذوو الأرواح لما يصنعونه من غير ذوات الأرواح، و هم لإن يعبدوا لها أحرى من أن يعبدوها، لأنهم أولاء صانعوها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 317

و في إنجيل القديس برنابا الحواري حوار بين ابراهيم و أبيه آزر نذكر منها هنا مقتطفات‏ «1».

و «ما هذِهِ التَّماثِيلُ» استجواب فيه تزييف آلهتهم التماثيل، أجسادا بلا أرواح يعكف لها ذوو الأرواح؟!.

قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ‏ 53.

قالوه عذرا لعكوفهم القاحل الجاهل على هذه التماثيل كسنة قومية محترمة بين الأقوام، و ذلك تحجّر عقلاني داخل القوالب التقليدية الميتة، و تنازل عن العقلية الانسانية بل و الحيوانية، التي لا ترضى تذللا أمام الأذل الأرذل، المصنوع للعابد نفسه و أضرابه.

قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ‏ 54.

فالضلال المبين، الذي يبين انه ضلال انه ليس ليتبع مهما كان سنة الآباء، و ليست عبادة الآباء لأنهم آباء بالتي تكسب هذه التماثيل قداسة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الفصل 26: 25 «كان ابراهيم ابن سبع سنين لما ابتدأ ان يطلب الله فقال يوما لأبيه يا أبتاه من صنع الإنسان .. (46): اي شي‏ء تشبه الآلهة (47)؟ أجاب يا غبي اني كل يوم اصنع إلها أبيعه لآخرين لاشتري خبزا و أنت لا تعلم كيف تكون الآلهة (48) و كان في تلك الدقيقة يصنع تمثالا (49) فقال هذا من خشب النخل و ذلك من الزيتون و ذلك التمثال الصغير من العاج (50) انظر ما أجمله الا يظهر كأنه حي (51) حقا لا يعوزه إلا النفس (52) أجاب ابراهيم إذا يا أبي ليس للآلهة نفس فكيف يهبون الأنفاس (53) و لما لم تكن لهم حياة فكيف يعطون إذا الحياة (54) فمن المؤكد يا أبي ان هؤلاء ليسوا هم الله .. (57) ان كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان فكيف يتأتى للإنسان ان يصنع آلهة (58) و إذا كانت الآلهة مصنوعة من خشب فان إحراق الخشب خطيئة كبرى (59) و لكن قل لي يا أبت كيف و أنت قد صنعت آلهة هذا عديدها لم تساعدك الآلهة لتصنع أولادا كثيرين فتصير أقوى رجل في العالم ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 318

و قيمة، حيث القيم تنبع من الواقع المتحرر الطليق، سواء عرفها الآباء ام جهلوها، و ليست مفتعلة تصبح سننا متّبعة مهما تواترت بين الآباء.

قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ‏ 55.

و مجرد استفهامهم هذا دليل تجردهم عن الحق، و عن اي برهان لما هم عليه، فانه سؤال المزعزع العقيدة، حيث لا يطمئن الى ما هو عليه، تيه يتخبط فيه من لا يدينون دين الحق، انحسارا و تخلفا عن حكم الفطرة، و انحصارا بالاحكام التقليدية القالحة الجاهلة.

«أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ» الناصع كما تدعيه‏ «أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ» بعقائدنا، تبديلا لها الى اخرى من اضرابها، ام من اللاعبين بالحق حيث تظهر الباطل بمظهر الحق.

و قد يعنى من الحق فيما يعنى «الجد» بقرينة اللاعبين، هل أنت مجد فيما تقول ام لاعب، حيث الجد خلاف الآلهة بعيد عمن يعيش جوّ الإشراك.

قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلى‏ ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ‏ 56.

بل جئت بالحق‏ «بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ» لا هذه التماثيل التي أنتم خلقتموهن، و قد فطر اللّه الخلق كله بفطرة التوحيد، و منه الإنسان المفطور على ذلك «و انا» المفطور على ما فطرهن «على ذلكم» الحق الناصع‏ «مِنَ الشَّاهِدِينَ» و السماوات و الأرض هي كلها بمن فيهما و ما فيهما «عَلى‏ ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» شهادة فطرية و عقلية و كونية اما هيه، و لا تملك اية حقيقة هكذا شهود في كمها و كيفها، ما يملكه التوحيد من شهود، حيث الكون كله شهوده دون إبقاء، الا من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 319

تنازل عن فطرته و عقليته.

و علّ «فطرهن» جمعا دون فطرهما، لكي تشمل معهما هذه التماثيل، فهو- إذا- رب للعابدين و المعبودين سواه، فكيف يعبدون سواه؟.

فلست انا- فقط- الذي جاء بالحق في التوحيد، بل الكون كله، و لست أقوله دون ايمان كالذين‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» بل اشهد به كما يشهد الشاهدون، فلست انا من اللاعبين، بل جئتكم بحق مبين.

هذه شهادة ابراهيمية على التوحيد و انه الحق الجدّ، و بالتالي يثنيّها بالواقع الذي توعّده.

وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ‏ 57.

موقف جري‏ء ما اجرأه و أجراه على يديه، أمام تلك الحشود المحتشدة المشركة، تاركا ما اعتزمه من كيد الأصنام، الأكيد، مبهما دون إفصاح، مما يضخّم أبعاد الوعيد، و كأنهم نظروا الى وحدته دون ناصر فوهدته لو اعتزم، فلم يأخذوا وعيده بعين الإعتبار، سنادا الى قوتهم و ضعفه، لذلك لم يرجعوا له جوابا، فلو كان لبان حيث الموقف موقف البيان.

كيد مؤكد لاصنامكم‏ «بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» كما ولّوا و تركوه، تهوينا لكيده المعتزم و توهينا لحقه المخترم و قبولا لعذره الكائد المكتتم‏ «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» (37: 89):

فلما هموا بالذهاب الى عيد لهم، طلبوا اليه ان يرافقهم فأبى عن الانسلاك في سلكهم بعذره العاذر: «إِنِّي سَقِيمٌ» دونما سقم ظاهر، إلا سقم النفس و اضطراب الحال و كسوف البال، حيث كان يتقطع حزنا على اشراكهم، و يتميز غيظا لأنهم لم يلبوا ندائه، و قد عقد عزمه ان يهدم صرح آلهتهم التي ألهتهم و يقوّض عرشهم، لما رأى الحجة القولية لا تنفع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 320

فأراد ان يشرك أبصارهم ببصائرهم، و حواسهم مع افئدتهم علّهم الى رشدهم يثوبون و عن غيّهم يتوبون:

فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ‏ 58.

خلى الجو من رصد العيون، فدلف الى أصنامهم فوجد باحة قد اكتظت بالتماثيل و انتشرت في ارجائها الأصنام فخاطبها محتقرا لشأنها «ألا تأكلون! ما لكم لا تنطقون» و أنّى للحجارة ان تأكل او تنطق، فأخذ يلطمها بيده و يركلها برجله و تناول فأسا و هوى عليها يكسرها و يحطمها حتى جعلها جذاذا الا كبيرا لها في أجسادها، ليجعلها جذاذا في قلوب عابديها بذلك الواقع، بعد ان جعلها جذاذا من ذي قبل ب «ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ» جذاذات ثلاث تجتث جذور الخرافة الشركية لو كانوا يعقلون.

فلقد كاد أصنامهم ب «إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» حي خلى الجو لما اعتزم، ثم جعلهم جذاذا: قطعا مكسورة مفتّتة مهشّمة «إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ» يرأسهم كأنه إله الآلهة «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ» حيث الموقف يتطلب رجوعا الى كبيرهم كمتّهم في جعلهم جذاذ فيسألونه كيف وقعت الواقعة و هو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة، ام هو الذي جعلهم جذاذا ليبقى في الميدان وحده كما هو قضية الحال في تعدد الآلهة لو كانوا يشعرون:

«و لعلى بعضهم على بعض»! ثم رجوعا الى ابراهيم الذي تركوه لحاله و هو المتهم الثاني إذ لا حول و لا قوة لكبيرهم، و من ثم رجوعا الى اللّه بعد انتباهة هنا و هناك، و ضمير المفرد الغائب في «اليه» يتحمل الرجوع الى كلّ من الثلاثة على الأبدال، حيث الكل من بنود الرجاء لإبراهيم و قد حصل على الأولين تماما، و على الأخير بعضا حيث زلزل اركان تقاليدهم العمياء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 321

و بالفعل رجعوا إلى المعبد، و بدل ان يرجعوا إلى أنفسهم ان الآلهة لا تغلب، إذا فما هي بآلهة، حيث الخرافة قد عطلت أنفسهم عن انسانية التفكير، و بدل ان يرجعوا إلى كبيرهم ثم إلى ابراهيم فالى اللّه، فإذا هم يتساءلون فيما بينهم حائرين.

قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ‏ 59.

حكما على من فعل هذا أيا كان‏ «إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ» بلا اي عذر و لا عاذر، حيث التغلب هكذا على الآلهة، و كسرها عن آخرها إلا .. ان ذلك هو الظلم العظيم و الضيم الحطيم فلنفتش عن الظالم أيا كان اهو كبيرهم ام هو ابراهيم؟

قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ‏ 60.

و هنا «سمعنا» دون: رأيناه او سمعناه و «فتى» دون رجلا، ثم‏ «يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ» دون ابراهيم، هي توهينات ثلاث لكاسر الأصنام، تجهيلا لأمره و تصغيرا لشأنه و تعريضا به انه «فتى» شاب و هذه الجرأة الظالمة هي من فعل الشباب، مجهولا لا يعرف‏ «يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ» كأنه أسمعه المستعار، او ان معرفة اسمه عار، ام انه في الأصل مجهول الاسم و الرسم ليس له اي مقدار حتى يعرف بيننا باسم او رسم، فانه مجهول حيثما دار.

و هي هي دأبة دائبة عائبة لمن يراد توهينه و تهوينه مهما كان فعله عظيما، اشعارا بانه في نفسه صغير صغير، مهما ارتكب الكبير الكبير.

«فَتًى يَذْكُرُهُمْ» بسوء، و انه سوف يكيدهم فقد كادهم بالفعل، و «ابراهيم» رفعا فاعل «يقال» قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى‏ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ‏ 61.

فلقد تقاطرت الوفود، و تكاثرت الجموع إلى أجساد الآلهة و أجداثها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 322

كلّ يرغب في القصاص من ابراهيم، فجاءوا به وسط الجمع الزاخر بالقمع القاهر، و أخذوا يحاكمونه استجوابا عن الطامّة الواقعة، أمام الجماعة المتغيّظة التي تحرق الإرم حنقا و غيظا.

«فَأْتُوا بِهِ» إتيانا جاهرا «عَلى‏ أَعْيُنِ النَّاسِ» حيث يعاينونه في نفس المشهد و قبل ان تتفرقوا «لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» يشهدونه من هو هذا الجري‏ء، و يشهدون عليه انه الفتى الذي كان يذكرهم، ف «يشهدون» إقراره على فعلته، ثم «يشهدون» نكاله بفعاله، كيلا يطمع طامع بعد في فعلته، اجتثاثا لجذور هذه الضغينة الشكيمة بالآلهة، و لكي يرتاح عابدوها بما يشهدون من نقمته.

شهادات اربع علّها معنية كلها حيث يتحملها اللفظ و المعنى، فإن «يشهدون» الأجرد عن متعلقات، تعم كافة المتعلقات من شهادة نفسه و إقراره و عذابه و الشهادة عليه انه هو لا سواه.

قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ‏ 62.

استفهام استنكار للأخذ بالإقرار حتى يشهدوا إقراره، ليكون في عزمهم على تحريقه إعذارهم، و «آلهتنا» دون «الآلهة» كاعتراف منهم انه كان ينكرهم.

و ابراهيم الذي اصطنع ذلك الجو الحاشد، و المسرح السائد، تراه ماذا عليه في الاجابة عن ذلك السئوال العضال، حتى يحقق مأموله؟.

فهل يصارح بالواقع كما وقع: «أنا فعلت» و في ذلك تهديم لصرح الحجاج، و تعجيل منهم لكل عقوبة و لجاج، فيصبح ما صنعه باطلا يرجع الى بوار، فلا حجة تحصل، و لا الرسول يبقى بل ينكل، حتى ان بقي فما فائدة بقية في حياة الرسول دون تحقيق لحجته، بل و الناكرون للتوحيد يزدادون لجاجا حين يرون آلهتهم جذاذا دونما حجة، تجعلها جذاذا بها بعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 323

جذاذها في أجسادها!.

أم يقول كذبا «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ» باتا في قوله، و الكذب فشل و خلل في الرسالة، و سوء سابقة للرسول، فلا يعتمد على أقواله و ان كان الكذب مصلحيا، و لماذا يكذب و الحق يملك كل حجج الصدق دونما حاجة الى أي كذب! و الرواية القائلة انه كذب مطروحة او مؤلّة، لمخالفتها الآية و مسها من ساحة الرسالة الصادقة «1».

عليه في ذلك المسرح المصرع ان يأخذ امرا بين أمرين تكون فيه نبهتم بحجة قارعة قاصعة في عاجله، قبل ان يعزموا عليه نقمة لآجله، و قد فعل فنسب الفعل في ظاهر الحال الى كبيرهم لكيلا يهجموا عليه دون امهال و لا مجال، ثم جعل هذه النسبة في شرطية مشتملة على حجتين:

قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ‏ 63.

ليّ في الصدق ما أحراه بساحة الرسالة الصادقة، حجة تجعلهم في لجة، «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا .. إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ»- «فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» فقد

«و الله ما فعله كبيرهم و ما كذب ابراهيم، انما قال فعله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 321 عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لم يكذب ابراهيم في شي‏ء قط الا في ثلاث كلهن في الله: قوله اني سقيم و لم يكن سقيما، و قوله لسارة أختي و قوله بل فعله كبيرهم هذا و فيه عن أبي سعيد ان النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: يأتي الناس ابراهيم فيقولون له اشفع لنا الى ربك، فيقول: اني كذبت ثلاث كذبات فقال النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) ما منها كذبة الا حل بها عن دين الله، قوله: اني سقيم بل فعله كبيرهم هذا و قوله لسارة انها أختي.

أقول: لقد صدق في: اني سقيم كما بيناه في آيته، حيث سقم روحه في ضلالهم، ثم في الحديث الثاني تضاد، فان لم يصلح ابراهيم للشفاعة لأنه كذب، فهو كذب غير معذور، و ان كان معذورا في كذبه فتركه للشفاعة غير مشكور!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 324

كبيرهم هذا ان نطق و ان لم ينطق فلم يفعل كبيرهم هذا شيئا» «1».

و هذه طبيعة الحال في الآلهة الناطقة الحية ان كبيرهم يصرع شركاءه ليتوحد هو بالألوهية: «وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ» (33: 94).

ثم‏ «إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» فهم أحرى ان يسألوا من فعل بهم هذا، إذا «فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» و لا تسألوني أنا، شرطية صادقة باهرة تحمل حججا قاهرة: فأسئلوهم هل قتلهم كبيرهم ام سواه، و لا بد لهم من اجابة «إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» فإذ لا ينطقون فما هم بآلهة، و لو نطقوا فليس إلّا كبيرهم فعله قضية التغالب في آلهة عدة، دون عبيد كأمثال ابراهيم.

فعدم نطقهم، و جعلهم جذاذا بفعل ابراهيم، هما برهانان اثنان انهم أضعف من احد من العباد فكيف يعبدهم العباد.

فلقد فسحت هذه الشرطية المجملة الجميلة تلك المجالات الفاسحة لاحتجاج ابراهيم على من حضر من عبدة الأصنام، و لا شك ان اجتماع القوم في صعيد واحد كان أمنية ابراهيم التي طالما جاشت نفسه بها و توخاها ليقيم عليهم الحجة جميعا.

و يا لها من تهكم ساخر يهزءهم هزء و يهزّهم هزّا، حيث يحمل برهانا صارحا صارخا في الحشد انها ليست بآلهة إذ لا تنطق و لا تحافظ على أنفسها، فضلا عن أن تنطق بصالح عبادها، و الحفاظ على مصالحهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 431 عن تفسير القمي في الآية: فقال الصادق (عليه السلام) و اللّه ....

فقيل كيف ذلك؟ فقال: انما قال ... أقول: ان كانوا راجع الى كلتا الجملتين: فعله فاسألوهم ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 325

و هنا نرى تلك الأنفس الفالتة عن عقولها، المتخبطة في كل حقولها، ترجع الى أنفسها عند الجواب الحاسم القاصم:

فَرَجَعُوا إِلى‏ أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ‏ 64.

بادرة خير في أنفسهم الخاوية ان يحكموا بظلمهم أنفسهم دون ابراهيم، حيث «أنتم» تحصر «الظالمون» فيهم، تبرئة لساحة ابراهيم عن الظلم فيما فعل، بل هو العادل فيما فعل حيث رجّعنا إلى أنفسنا و اشعرنا بظلمنا أنفسنا.

فاتحة فيها بارقة الأمل كما تفأّل: «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ» تفتحا لبصائرهم لأوّل مرة في حياتهم المشركة، و تدبرا في ذلك السخف الذي كانوا عنه صادرون، و الظلم الذي كانوا هم فيه سادرون، و قد قالوا من قبل‏ «مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ» فما مضى إلّا آونات حتى حكموا على أنفسهم: «إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» و ما أحلاه كلمة حق على لسان المبطل بحجة رسالية وامضة كهذه، تجعل حجتهم داحضة و تراهم «فقالوا» كل للآخر؟ و الكل غرقى في لجة الحجة! و لم يكونوا ليصارحوا بهذه النكسة أمام ابراهيم! ام كل لنفسه في نفسه؟ و هذه قضية الموقف، و «أنفسهم» دون «بعضهم الى بعض» كما «اقبل‏ بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ. قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ» (68: 31) دون‏ «عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ».

و قد تعني «أنفسهم» هنا ما عنته‏ «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» رجوعا لكلّ الى نفسه، ثم الى الآخرين دون مصارحة تعرف، في لمحات و إشارات فيما بينهم، و لكن ابراهيم و هو شيخ العارفين عرف رجوعهم الى ذات أنفسهم فضلا عن اشاراتهم لمن سواهم، و من ثم أدركتهم الحيرة و عقد الحصر ألسنتهم فأطرقوا برؤسهم منكرين و استجمعوا شارد عقولهم:

ثُمَّ نُكِسُوا عَلى‏ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ‏ 65.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 326

و يا لها من نكسة على الرئوس بعد رجعة الى النفوس، ثم قالة صارخة بتأكيد الخطاب‏ «لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ» ارتكاسة مثلثة الزوايا بحجة واحدة في المسرح كان فيها مصرعهم لو ظلوا منتبهين، و هذا وصف ما لحقهم من الخضوع و الاستكانة و الإطراق عند لزوم الحجة و قد شبّهوا بالمتردي على رأسه، تدويخا بنصوع البيان، و إبلاسا عند وضوح البرهان.

و هنا ينتهض الداعية الواعية بكلمتين كالمتين كحجة اخيرة فيها كل تأنيب على ضلالتهم:

قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ 66 أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ‏ 67.

«أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ. وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ» (37: 96) فعبادة الإله، اما هي لاستجراء نفع و ليست هي نافعة لأنفسها فضلا عن عابديها، ام لاستدفاع ضر، و ليس هي ضارة، بل متضررة كما جعلت جذاذا، ام لكمال ذاتي و ان لم تنفع او تضر، و هي ميتة لا تشعر، أم و حتى لو كانت تشعر فكيف تعبد و هي لا تنفع و لا تضر، «أف لكم» تضجرا و تبرّما لصنيعكم، «وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» فقد ضعف الطالب و المطلوب، «أَ فَلا تَعْقِلُونَ»؟

و انها قالة في حالة تقتضيها قضاء حاسما، استعجابا من السخف الذي يتجاوز كل مألوف و يتجاهل كل معروف، فضربة صارمة قاضية علّهم يفيقون، ام يفعلون كما يشتهون.

هنا لك احترقوا بما فعل، فاخذتهم العزة بالإثم، تجاهلا عما قالوه، و تغافلا عما فعلوه ف:

قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ‏ 68.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 327

«قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ» (37: 79) تحريقا عريقا كما احرق أكبادهم حيث جعل آلهتهم جذاذا كونا و كيانا، و جعلهم جذاذا فيما كانوا يعتقدون، فلم يجدوا بدا إلا ان يؤمنوا و هم لا يؤمنون، او يعكسوا امر الحرق عليه و قد فعلوا زعم انهم قاهرون.

و يا لها من آلهة كالحة ينصرها عبادها بعد جذاذها! و ذلك التحريق هو في الحق تحريق لأجداث الآلهة بعد جذاذها، ان لا حول لها و لا قوة، حيث هي بحاجة الى نصرة عبّادها، و ليسوا لينصروها و لو احرقوا ابراهيم!.

«قالوا» و افتعلوا ما بمكانتهم من بنيان الجحيم، فلما القوه في الجحيم أصبحت جنة بقالة تكوينية:

قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ‏ 69.

و هنا يطوي السياق الحال بين القالين، مما يلمح ان لم يكن لإبراهيم مقال آخر معهم، و لا مقال مع آخر، و إنما هي الحال و اللّه يرى الحال على أية حال.

في هذه الحالة المحرجة

يروى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن جبرئيل (عليه السلام) قال: لما أخذ نمرود ابراهيم ليلقيه في النار قلت يا رب عبدك و خليلك ليس في أرضك احد يعبدك غيره، قال اللّه تعالى: هو عبدي آخذه إذا شئت، و لما ألقي ابراهيم (ع) في النار تلقاه جبرئيل (عليه السلام) في الهواء و هو يهوي الى النار فقال: يا ابراهيم لك حاجة؟ فقال:

اما إليك فلا، و قال: يا اللّه يا احد يا صمد يا من لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا احد نجني من النار برحمتك، فأوحى اللّه تعالى الى النار: كوني بردا و سلاما على ابراهيم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 12: 39 بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 328

اجل‏

«اما إليك فلا و اما الى رب العالمين فنعم» «1».

«قلنا» هنا و في اضرابها من الأمور التكوينية هي الارادة القاطعة الإلهية، فالذي قال للنار كوني حرقا و ايلاما، هو القائل هنا «كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً» و النار هي النار، و قد تلمح له‏ «عَلى‏ إِبْراهِيمَ» إذا فلم تبرد النار حتى تتحول عن ماهية النار، بل بقيت نارا حارة إلّا على ابراهيم، و لو لم يقل «سلاما» بعد «بردا» لأثلجت ابراهيم ببردها، و لكنها البرد السلام فأصبح ابراهيم كأنه في روضة خضراء معتدلة الهواء، اصطيافية الفضاء «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اختبرني أبي عن جدي عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن جبرئيل قال: ...

و

فيه (35) عن الرضا (عليه السلام) قال: ان ابراهيم لما وضع في كفة المنجنيق غضب جبرئيل (عليه السلام) فأوحى اللّه عز و جل: ما يغضبك يا جبرئيل! قال: يا ربّ خليلك ليس من يعبدك على وجه الأرض غيره سلطت عليه عدوّك و عدوه فأوحى اللّه عز و جل اليه: اسكت انما يعجل العبد الذي يخاف الفوت مثلك، فاما انا فانه عبدي آخذه إذا شئت قال: فطابت نفس جبرئيل فالتفت الى ابراهيم (عليه السلام) فقال: هل لك حاجة، فقال: اما إليك فلا، فاهبط اللّه عز و جل عندها خاتما فيه ستة أحرف «لا اله الا الله- محمد رسول الله- لا حول و لا قوة الا بالله- فوضت امري الى الله- أسندت ظهري الى الله- حسبي الله» فأوحى اللّه جل جلاله اليه ان تختم بهذا الخاتم فاني اجعل النار عليك بردا و سلاما.

أقول و ليس هذا الا خاتما بيد خاتم حيث ابراهيم (عليه السلام) أصبح تجسيدا لهذه الكلمات.

(1). و فيه عن تفسير القمي مثله الا فيما نقلناه و قبله: هو عبدي آخذه إذا شئت فان دعاني أجبته فدعى ابراهيم بسورة الإخلاص: يا اللّه يا واحد يا احد يا صمد يا من لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا احد نجني من النار برحمتك.

(2)

نور الثقلين 3: 436 عن كمال الدين و تمام النعمة عن مفضل بن عمر عن الصادق (عليه السلام) قال سمعته يقول‏ أ تدري ما كان قميص يوسف (عليه السلام) قال قلت: لا قال ان ابراهيم (عليه السلام) لما أوقدت له النار نزل اليه جبرئيل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 329

فما

يروى انه‏ «ما انتفع أحد بها ثلاثة ايام و ما سخنت ماءهم» «1»

كأنه هباء و هراء، حيث النار الابراهيمية كانت تحرق غيره فضلا عن كل نار سواها، و لو بردت النيران كلها لتواترات فوق كل ما حدث في تاريخ الإنسان! ثم لم يكن إذا في برد النار على ابراهيم آية معجزة لو ان النيران بردت كلها، بما في ذلك البرد الشامل من ضر على سكنة الأرض دونما فائدة لهذه الآية الخارقة إلّا بائدة تقضي على كونها آية قضية الشركة بينها و بين سائر النار.

هذه آية إلهية ابراهيمية دون شك، لا تتحمل أي تأويل يجعلها خارجة عن خارقة، مثل أن تخلّي ابراهيم عن كل ما سوى اللّه حتى عن نفسه جعله لا يشعر بحرق النار، حيث أحرقته و لم يشعر أو لم تحرقه قضية الانقطاع عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بالقميص و البسه إياه فلم يضر معه حر و لا برد و فيه عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ان نمرود الجبار لما القى ابراهيم في النار نزل اليه جبرئيل بقميص من الجنة و طنفسه من الجنة فألبسه القميص و أقعده في الطنفسة و قعد معه يحدثه.

(1).

في الدّر المنثور عن عائشة ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان ابراهيم حين القي في النار لم تكن في الأرض دابة لا تطفئ عنه النار غير الوزغ فانه كان ينفخ على ابراهيم فامر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بقتله!.

و

في بحار الأنوار 12: 38 بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: لما قال اللّه عز و جل: يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ» ما انتفع احد بها ثلاثة ايام و ما سخنت ماءهم‏ و رواه مثله عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) و فيه: لم يعمل يومئذ نار على وجه الأرض و لا انتفع بها احد ثلاثة ايام ...

أقول: و يقابلها

المروي فيه عن الرضا (عليه السلام) قال: لما رمي ابراهيم في النار دعا اللّه بحقنا فجعل اللّه النار عليه بردا و سلاما» و المروي عن الباقر (عليه السلام) في حديث (40) فنزل جبرئيل يحدثه وسط النار قال نمرود من اتخذ إلها فليتخذ مثل آله ابراهيم فقال عظيم من عظمائهم إني عزمت على النيران ألّا تحرقه قال: فخرجت عنق من النار فأحرقته ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 330

حياة البدن؟.

و لكنها حالة ابراهيمية تقتضي البرد و السلام، لا القالة الربانية، و هي على أية حال لا تقتضي البرد مهما اقتضت زوال الحرّ، فان قصارى هذه الحالة ألّا يتأثر بحر النار، لا ان تبدّل بردا و سلاما!.

و كالقول ان في ذلك تضادا في النار لحالة واحدة، انها محرقة كل محترق سوى ابراهيم، و كما أحرقت وثاقه الملقى به في النار و لم تحرق نفسه‏ «1».

و ليس في نسبية الإحراق تضاد التناقض حتى يكون من المحال، و ما سواه ممكن بجنب القدرة الإلهية على أية حال، كما الزمهرير في النار و النار معه لا يتناحران.

أو انه ألبس قميصا من صنيع اللّه هو ضد الحرارة «2» و لا بأس به حيث الخارقة الإلهية لا تخرق ضوابط العلية و المعلولية، و انما تقفزها قفزة لا يستطيعها إلا اللّه، و لكن القميص ضد الحرارة لا يمنع المواضع الخارجة عنه، فعلى أية حال كوّنت النار على ابراهيم بردا و سلاما بما أراد اللّه بقميص و غير قميص!.

وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ‏ 70.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 322- اخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن كعب قال: ما أحرقت النار من ابراهيم إلا وثاقه و في نور الثقلين 3: 439- القمي عن الصادق (عليه السلام) في حديث النار فإذا هم بإبراهيم مطلقا من وثاقه ...

(2)

بحار الأنوار 12: 40 تفسير الإمام 115 قال الإمام قال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في احتجاجه على اليهود بمحمد و آله الطيبين نجىّ اللّه تعالى نوحا من الكرب العظيم، و برد اللّه النار على ابراهيم و جعلها عليه بردا و سلاما و مكنه في جوف النار على سرير و فراش وثير لم ير ذلك الطاغية مثله لأحد من ملوك الأرض و أنبت من حواليه من الأشجار الخضرة النضرة النزهة و غمر ما حوله من انواع النور بما لا يوجد الا في فصول اربعة من السنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 331

«فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ» (37: 98).

هم‏ «أَرادُوا بِهِ كَيْداً» ليحرقوه إحراقا لدعوته، و اجثاثا لدعايته‏ «فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ» إحراقا لأكبادهم في ذلك المسرح الصارح الصارخ حيث يسمعه كل العالمين.

وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ‏ 71.

لقد ضرب السياق عن مصير ابراهيم بعد البرد السلام صفحا، و قضية الحال ان الطاغية لم يسطع ان ينكل به بعد حيث أرغم في أشد نكاله به، «و نجيناه» هنا إجمال عن نجاته من يد الطاغية «نجيناه» من بابل نمرود «و لوطا» من سدوم و هي‏ «الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ» (74) نجينا هما «إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ» و هي القدس الشريف او الفلسطين ككل و هي الشام في إطلاقها العام، الشاملة للأردن و لسوريا و لبنان.

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ‏ 72.

هذه الوهبة المباركة بجمعية الصفات، اللامحة لمجموعة من الرحمات، هي «نافلة»: زائدة على سائر هباته الموهوبة، هبة منفصلة بعد متصلة، هي استمرارية للكيان الابراهيمي على طول خط الرسالة العظيمة الاسرائيلية التي تضم الوفا مؤلفة من النبيين و المرسلين.

و قد تعني «نافلة»- فيما عنت- نسبة إلى «إسماعيل» فانه اوّل وهبة زمنيا و رتبيا: «فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين. و قال اني ذاهب الى ربي سيهدين. رب هي لي من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعي ... و بشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. و باركنا عليه و على إسحاق و من ذريتهما محسن و ظالم لنفسه مبين» (37: 98- 117).

إذا «وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ» تحقيق لسئوله في سؤاله: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» و هم إسماعيل و إسحاق و يعقوب و من في ذريتهم من رسل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 332

و أئمة و نبيين، فهذه الهبة تحلّق على كافة الرسالات و القيادات المعصومة منذ إسماعيل و إسحاق و يعقوب إلى كافة المرسلين الاسماعيليين و الاسرائيليين، و هاتان الرسالتان هما كل خطوط الرسالات الإلهية منذ ابراهيم الى يوم الدين.

و يا لها من هبة عظيمة قائمة الأصول، منتشرة الفروع، حيث تشمل كافة الرسالات و الإمامات، اصالة في الاسماعيلية المحمدية مهما كانت خاتمتها، و فرعا في الإسحاقية الاسرائيلية، مهما كانت من بدايتها، هكذا:

وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ (73).

و «هم» في ذلك الجعل العظيم: ابراهيم و إسماعيل و محمد و المعصومون من عترته، كذلك و إسحاق و يعقوب و المرسلون من عترته، مهما اختلفت درجات الإمامة و الهداية بأمر اللّه بينهم، فمنهم أئمة اربعة من اولى العزم من الرسل محمد و ابراهيم و موسى و عيسى، ثم الاثنى عشر المحمديون، و هم في درجته العليا إلّا الوحي، و من ثم إسماعيل و إسحاق و الرسل الاسرائيليون.

فحين يفسّر «هم» بأئمتنا المعصومين‏ «1» فهو تفسير باصدق المصاديق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 441 في كتاب المناقب عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حديث طويل في فضل علي و فاطمة (عليهما السلام) و فيه قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): و ارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة و اجعل في ذريتهما البركة، و اجعلهم أئمة يهدون بأمرك الى طاعتك و يأمران بما يرضيك و فيه في اصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان الأئمة في كتاب اللّه عز و جل امامان قال اللّه تبارك و تعالى‏ «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» لا بأمر الناس، يقدمون ما امر اللّه قبل أمرهم و حكم اللّه قبل حكمهم قال: و جعلناهم أئمة يدعون الى النار- يقدمون أمرهم قبل امر اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 333

و أعلاها بعد الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و بعدهم هم كافة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و حكمهم قبل حكم اللّه و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب اللّه،

و

فيه و في العيون عن الرضا (عليه السلام) في حديث الامامة قال: ثم أكرمه اللّه عز و جل يعني ابراهيم بان جعلها يعني الامامة في ذريته و اهل الصفوة و الطهارة فقال عز و جل: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرنا قرنا حتى ورثها النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال اللّه جل جلاله: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فكانت خاصة ...

و

في تفسير البرهان 3: 65 ابن بابويه بسند متصل عن زيد بن علي قال‏ كنت عند أبي علي بن الحسين (عليهما السلام) إذا دخل عليه جابر بن عبد اللّه الانصاري فبينما هو يحدثه إذ خرج اخي محمد من بعض الحجر فاشخص جابر ببصره نحوه ثم قال يا غلام اقبل فاقبل ثم قال أدبر فأدبر فقال شمائل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ما اسمك يا غلام؟ قال: محمد قال: ابن من؟ قال ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السّلام) قال: اذن أنت الباقر (عليه السلام) فاتكى عليه و قبل رأسه و يديه ثم قال يا محمد ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقرئك السلام، قال: و على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أفضل السلام و عليك يا جابر بما فعلت، ثم عاد الى مصلاه فاقبل يحدث أبي و يقول ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال لي يوما يا جابر إذا أدركت ولدي محمدا فاقرأه مني السلام اما انه سميي و أشبه الناس بي علمه علمي و حكمه حكمي سبعة من ولده أمناء معصومون أئمة ابرار السابع منهم مهديهم الذي يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت جورا و ظلما ثم تلا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا و أوحينا إليهم فعل الخيرات و اقام الصلاة و إيتاء الزكاة و كانوا لنا عابدين.

و

فيه محمد بن العباس .. عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال (عليه السلام) يعني الأئمة من ولد فاطمة (عليها السلام) يوحى إليهم بالروح في صدورهم ثم ذكر ما أكرمهم اللّه به فقال: فعل الخيرات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 334

الرسل الإبراهيميين.

«و جعلناهم» هؤلاء المصطفين- ككل- من ذكروا هنا و من يذكروا «أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» فكما «جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» كذلك هم‏ «يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» فان «بأمرنا» متعلق بكليهما، فالإمامة المجعولة بأمر اللّه، هي الهادية بأمر اللّه، هدى معصومة من امامة معصومة لا قصور فيها و لا تقصير:

فليست الإمامة الهادية بأمر الأمة شورى و سواها، و لا بأمر الإمام معصوما و سواه، و انما الإمامة بجعل اللّه، و هدايتها بأمر اللّه لا سواه و حتى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، إذ لا يسمح له ان يجعل إماما معه أم يخلّفه بعده.

و «يهدون» يعم التكوينية و هي الإيصال الى الهدى، الى جانب التشريعية و هي الهدى نفسها، فهم يهدون الناس بشرعة اللّه بأمر اللّه، و يهدونهم توفيقا للهدى بأمر اللّه، فلا هم أنفسهم يهدون تشريعيا و لا تكوينيا، و انما هم اداة رسالية بيانا لشرعة اللّه، و إيصالا الى هدى اللّه:

«إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» (28: 56) «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ» (3: 128) و كما ان كلتا الهدايتين للأئمة رسلا و سواهم، هما بوحي اللّه و امره، كذلك‏ «فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ» حيث‏ «أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ ..» لا- فقط- كيف يفعلون؟ فانه وحي الشرعة، بل نفس ما يفعلون، فانها بوحي اللّه، عصمة و تسديدا من اللّه، و ليس ذلك الوحي فوضى جزاف دونما صلاحية لهم مسبقة، بل‏ «وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» قبل مثلث الوحي، حتى استحقوه فاصطفاهم اللّه له رساليا أم سواه.

هذه هي الامامة المعصومة لا تجعل إلا بأمر اللّه، كما هدايتهم للناس بأمر اللّه بنص خاص، و لتكن كذلك الإمامة غير المعصومة في أية درجة من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 335

درجاتها بأمر اللّه، ان تنطبق على النصوص الواردة في شروطات الامامة، حيث القيادة الروحية هي من اختصاصات الربوبية، فلا تصلح لمن سواه إلّا بامره.

وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ‏ 74.

علّ «حكما» هو حكم القيادة الروحية «و علما» علمها بماذا يقود و كيف يقود و هذه هي الإمامة و «القرية» هي سدوم و «تَعْمَلُ الْخَبائِثَ» مؤنثا قضية ادب اللفظ، حيث حلّقت خبائث أهلها جوّها تماما لحدّ كأنها كانت تعمل الخبائث، ثم و «انهم» مذكرا قضية المعنى و هم عاملوا الخبائث‏ «كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ» ... «نجيناه الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» فكان مع ابراهيم و في حضن رسالته و إمامته، مع انه ايضا كان اماما لأمته.

وَ أَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ‏ 75.

و هكذا يكون دور كل صالح في ميزان اللّه انه يدخله في حرمته قدر صلاحه و صلوحه، رحمة في النشآت الثلاث، و الرحمة الأخيرة هي حق الخلاص.

وَ نُوحاً إِذْ نادى‏ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ‏ 76.

«و نوحا» و من بعده عدة من هؤلاء الأئمة، منصوبين إعرابا لأنهم منصوبون كسائر الأئمة في‏ «جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً».

«وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ» (37: 75) «نادانا» بقوله «رب اني‏ مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ، ... وَ حَمَلْناهُ عَلى‏ ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 336

كانَ كُفِرَ» (54: 14) و «الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» هو الغم الشديد و الهم المديد من تماديهم في الطغيان، و هو الطوفان الشامل، كما «و اهله» آهل كقرينة على ثاني الكربين، و منهم من آمن معه في غير اهله‏ «وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ... (11: 40).

وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ‏ 77.

و لأن نوح من اولي العزم من الرسل، فشرعته عالمية تحلّق على كافة المكلفين، إذا «فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ» يستغرق كافة المكذبين به في الكرة الأرضية كلها.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 78 الى 91]

وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فاعِلِينَ (79) وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (80) وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى‏ الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عالِمِينَ (81) وَ مِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (82)

وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى‏ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى‏ لِلْعابِدِينَ (84) وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى‏ فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)

فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى‏ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى‏ وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ (90) وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (91)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 338

وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ 78 فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فاعِلِينَ‏ 79.

الحكم هنا هو القضاء فصلا لخصومة في قضية واقعة، لا الحكم الشرعي العام من الشرعة الإلهية، فان تفهمه من لزامات الرسالة، و ذلك الحكم المختلف فيه بين داود و سليمان كان مسرحا للامتحان دون امتهان لداود، و احترام لسليمان‏ «وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً» على سواء، بل‏ «وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ ..».

إنّما ذلك لكي يثبت داود و يعلم معه العالمون انه خاطئ في حكم خاص لولا تفهيم من اللّه، فضلا عن حكم الإمامة الرسالية و هو عامة الشرعة الإلهية.

و يبدو ان داود (ع)- لأنه كان الملك النبي و الحاكم المطلق في بني إسرائيل، و قد جعله اللّه خليفة في الأرض: «يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ» (38: 26)- يبدو أنه لذلك كان هو المسؤول في تلك المنازعة. «فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ» فأبدى ما فهّمه ربه و طبعا بإذن من داود، إظهارا للقصور الذاتي للمرسلين لولا الوحي، و لأهلية سليمان للخلافة بعده‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 14: 132 عن الكافي بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 339

«وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً»! و هل ان داود حكم قبل ان يفهّمه اللّه؟ و ذلك خلاف حكم اللّه و الحكمة الرسالية و لا سيما عند الاختلاف بين حاكمين رساليين!.

كلّا! و لا اشارة هنا انه حكم، بل «إذ يحكمان» دون «إذ حكما» دليل انهما كانا يتشاوران و يتناظران‏ «1» في حكم القضية، ثم الحاكمان المتفقان فضلا عن المختلفين ليسا ليحكما في قضية واحدة، و لا سيما إذا كان أحدهما الحاكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الامامة عهد من اللّه عز و جل معهود لرجال مسمين ليس للإمام ان يزويها عن الذي يكون من بعده، ان اللّه تبارك و تعالى اوحى الى داود (عليه السلام) ان اتخذ وصيا من أهلك، فانه قد سبق في علمي ان لا ابعث نبيا إلا و له وصيّ من اهله و كان لداود (عليه السلام) أولاد عدة و فيهم غلام كانت امه عند داود (عليه السلام) و كان لها محبا فدخل داود عليها حين أتاه الوحي فقال لها: ان اللّه عز و جل اوحى الي يأمرني ان اتخذ وصيا من اهلي فقالت له امرأته: فلتكن ابني، قال: ذاك أريد، و كان السابق في علم اللّه المحتوم عنده انه سليمان، فأوحى اللّه تبارك و تعالى الى داود ان اجمع ولدك فمن قضى بهذه القضية فأصاب فهو وصيك من بعدك فجمع داود ولده فلما ان اقتصى الخصمان قال سليمان: يا صاحب الكرم متى دخلت غنم هذا الرجل كرمك؟ قال:

دخلته ليلا، قال: قد قضيت عليك يا صاحب الغنم بأولاد غنمك و أصوافها في عامك هذا ثم قال له داود فكيف لم تقض برقاب الغنم و قد قوم ذلك علماء بني إسرائيل فكان ثمن الكرم قيمة الغنم؟ فقال سليمان: ان الكرم لم يجتث من أصله و انما أكل حمله و هو عائد في قابل فأوحى اللّه عز و جل الى داود ان القضاء في هذه القضية ما قضى سليمان به، يا داود أردت امرا و أردنا امرا غيره فدخل داود على امرأته قال: أردنا امرا و أراد اللّه غيره و لم يكن الا ما أراد اللّه عز و جل فقد رضينا بأمر اللّه عز و جل و سلمنا، و كذلك الأوصياء ليس لهم ان يتعدوا بهذا الأمر فيجاوزون صاحبه الى غيره.

(1).

المصدر عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال: لم يحكما، انما كانا يتناظران‏ «فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ»، و في الفقيه بسنده الصحيح عن جميل عن زرارة مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 340

الأصل و الثاني هو الفرع، اللهم إلّا تشاورا في «كيف الحكم»؟ فكل يرتإي رأيا في نقاش بينهما، حتى تنتج الشورى حكما واحدا.

ثم‏ «فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ» دليل انه كأبيه داود كان محتارا في الحكم خاطئا لولا تفهيمه.

ثم‏ «وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ» قد تعني احكام المرسلين ككلّ، و لذلك‏ «فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ» و إلّا فحق الصيغة «كنا لحكمهما شاهدين» «1» ام- و باحرى- لحكمه، و الشهادة هي الحضور علميا و تعليميا «فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ» قبل ان يحكم أحدهما.

ام و «لحكمهم» الواحد، حاكمين و محكوم عليهم، و لكنه- أن عني وحده كان خلاف الفصيح و الصحيح، و الجمع اجمع و أجمل.

فلم يحكم داود- إذا- بغير الحق خلافا لأمر اللّه‏ «فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ» إذ لم يكن الحكم بالحق في السنة الداودية إلا بالواقع المطلق، و ليس- إذا- إلّا بتفهيم اللّه و قد فهمه سليمان دونه للمصلحة.

و الروايات الواردة ان داود حكم بخلاف الحق الذي فهمّه سليمان،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 14: 141- عن تفسير القمي في الآية حدثني أبي عن عبد اللّه بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: كان في بني إسرائيل رجل كان له كرم و نفشت فيه غنم لرجل آخر بالليل و قضمته و أفسدته فجاء صاحب الكرم الى داود (عليه السلام) فاستعدى على صاحب الغنم فقال داود (عليه السلام) اذهبا الى سليمان ليحكم بينكما فذهبا اليه فقال سليمان: ان كانت الغنم أكلت الأصل و الفرع فعلى صاحب الغنم ان يدفع الى صاحب الكرم الغنم و ما في بطنها، و ان كانت ذهبت بالفرع و لم تذهب بالأصل فانه يدفع ولدها الى صاحب الكرم و كان هذا حكم داود و انما أراد ان يعرف بني إسرائيل ان سليمان (عليه السلام) وصيه بعده و لم يختلفا في الحكم و لو اختلف حكمهما لقال: و كنا لحكمهما شاهدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 341

هي مأوّلة ام خلاف الحق‏ «1» و لا يصدّق من سواها إلّا ما يصدقه القرآن انهما كانا يحكمان تشاورا غير بات‏ «فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ» فرضيا به حكما، دون ان يكون هناك نسخ فانه خلاف النص، و ان النسخ ليس إلّا في شرعة لولي عزم و لم يكن سليمان صاحب شرعة مستقلة «2».

و على الجملة فالقصد من ذلك التفهيم في ذلك التحكيم للرسول الفرع أمام الرسول الإمام الأصل ليس تحطيم ساحته و المس من كرامته تقديما للمفضول على الفاضل، و انما هو لبيان القصور الذاتي حتى للمرسلين حتى لا يزعم زاعم انهم على شي‏ء من عند أنفسهم، او انهم مخوّلون فيما يحكمون، بل هو فيض قدسي إلهي مستمر مع الرسالات، و ليست هذه الفلتات- ان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن الفقيه بسنده الصحيح عن الوشاء عن احمد بن عمر الحلبي قال‏ سألت أبا الحسن (عليه السلام) عن هذه الآية قال: كان حكم داود (عليه السلام) رقاب الغنم و الذي فهم اللّه عز و جل سليمان ان يحكم لصاحب الحرث باللبن و الصوف ذلك العام كله.

أقول: عل «كان حكم داود» غير حكمه البات، و انما كان يرتإي مشورة و لكن حكم سليمان بالصوف و اللبن خلاف حكمه إذ حكم بولدها كما في أحاديث اخرى.

(2)

نور الثقلين 3: 441 عن الكافي بسند عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت له: قول اللّه عز و جل‏ «وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ ...» قلت حين حكما في الحرث كان قضية واحدة؟ فقال (عليه السلام):

انه كان اوحى اللّه عز و جل الى النبيين قبل داود الى ان بعث اللّه داود: اي غنم نفشت في الحرث فلصاحب الحرث رقاب الغنم و لا يكون النفش الا بالليل فان على صاحب الزرع ان يحفظ بالنهار و على صاحب الغنم حفظ الغنم بالليل فحكم داود بما حكمت به الأنبياء (عليهم السلام) من قبله و اوحى اللّه عز و جل الى سليمان (عليه السلام) و اي غنم نفشت في زرع فليس لصاحب الزرع الا ما خرج من بطونها و كذلك جرت السنة بعد سليمان (عليه السلام) و هو قول اللّه عز و جل‏ «وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً» فحكم كل واحد منهما بحكم اللّه عز و جل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 342

صح التعبير- قاصدة مع المعصومين، إلّا بيانا عن ذاتياتهم‏ «لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ».

وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فاعِلِينَ‏.

اجل و ان داود هو النبي المفضل في بني إسرائيل بعد موسى و المسيح فان لهما شأنهما: «وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى‏ بَعْضٍ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً» (17: 55) «وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ» (34: 10) فليس- إذا- «فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ» اختراما لداود و احتراما لسليمان، بل هي حكمة بالغة إلهية و لطف خفي بأمر جلي مهما كان ظاهره إمرا.

و من تسخير الجبال معه‏ «يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ» أوبة منها تتبع أوبته كما يسمعها و كذلك الطير، و ليس ذلك بدعا منا لخصوص داود، بل‏ «وَ كُنَّا فاعِلِينَ» في سلسلة الرسالات بمختلف الجلوات.

و قد عرف داود بمزاميره الرنانة الحنانة، تسابيح للّه يرتلها بصوته الحنين الحزين، فتتجاوب معه الجبال و الطير، و كأنما الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة معه بجلال اللّه و حمده.

صحيح انه‏ «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (17: 44) إلا أن داود فقّه تسبيحهم بل و كان يسمعهم كيف يسبحون ربهم، فالجبال هنا مثل الجوامد، و الطير مثل الحيوان و بينهما النباتات، فعلّه فقّه منطق كل شي‏ء، ام ما حوله من الجبال و الطير دمجا للجماد في الحيوان الى تسبيحه!.

وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (80).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 343

«و علّمناه» تلمح بأنّ ذلك العلم المعلّم بادئ من داود، فلم يكن يصنع قبله لبوس، و هذا يلمح انه الدرع و المغفر ام و سائر ما يلبس لخصوص البأس إحصانا منه، و «لبوس» مبالغة «لباس» ما يبالغ في لبس الإنسان حالة البأس، و هو الحرب، و مما عبّد له علمها و صنعه بسهولة «وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ» إلانة دون اسباب معوّدة «... وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ.

ان اعمل سابغات و قدر في السرد و اعملوا صالحا اني بما تعملون بصير» (34: 11) و السابغة هي الدرع التام، و تقدير السرد هو نضج الحديد فنسج الدرع «لتحصنكم» اللبوس المقدّر المسرود، ام و المغفر و علّه أحرى «من بأسكم» حربا «فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ» ذلك الإحصان الإحسان إليكم منذ داود (عليه السلام) بما في هذه الصفة من تطوّرات حيث الحضارة البشرية سائرة في طريقها الى التقدم خطوة خطوة وراء الكشوف المتجددة يوما فيوما دون قفزة و لا طفرة، و لكن صنعة لبوس لكم بإلانة الحديد و عمل السابغات كانت قفزة و طفرة تخترق العادة المألوفة.

وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى‏ الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عالِمِينَ‏ 81.

«وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ ..» (34: 12)

«تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ» (38: 36)، و الريح منصوب حيث هو معطوف على مفعول التسخير «و سخرنا لسليمان الريح ..».

ريح عاصفة غدوها شهر و رواحها شهر، تجري بامره رخاء حيث أصاب، الى الأرض التي باركنا فيها و سواها حيث أصاب‏ «1» «و كنا» من قبل و من بعد و في ذلك الذي علمناه و سخرناه‏ «بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عالِمِينَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآيتين في سبأ و ص تجد فيهما تفصيل جريان الريح حيث أصاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 344

و ليس فقط تسخيرا لمن لا يعقل و ليس له اختيار، بل و سخرنا له‏ «مِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ ...»:

وَ مِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ‏ 82.

«وَ مِنَ الشَّياطِينِ» و هم بعضهم الذين استخدمهم لشاقة الأعمال‏ «مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ» في البحر لاستخراج متاع منه‏ «وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ» حيث‏ «يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ ..»

(34: 13) ام و دون ذلك مما لا نعلمه و اللّه يعلمه‏ «وَ كُنَّا لَهُمْ» الشياطين العاملين له «حافظين» عن شيطناتهم و تخلفاتهم في اعمالهم لسليمان، حفظا عن الهرب و أي إفساد و جرب، لصالح الخدمة السليمانية.

و علّ الشياطين هنا تعم شياطين الجن و الانس، و قد لا ينافيه‏ «... وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ ...» (34: 13)

فالشياطين نص في الكفار ظاهر في شياطين الجن و الانس، و الجن نص في الجن ظاهر في كفارهم و سواهم، و النصان متوافقان في شياطين الجن، فهم القدر المعلوم من عماله، ثم يخرج مؤمنوا الجن و الانس، و يبقى شياطين الانس في الظاهر الاول، و لا ينافيه نص الجن لعدم الحصر.

«و لو ان أحدا يجد الى البقاء سلما او لدفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان بن داود الذي سخر له ملك الجن و الانس مع النبوة و عظيم الزلفة فلما استوفى طعمته و استكمل مدته رمته قسي الفناء بنبال الموت و أصبحت الديار منه خالية و المساكن معطلة، ورثها آخرون» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة 1: 341- 342.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 345

و يا لها من نعمة سابغة لسليمان حيث يسخر له الشياطين رغم أنوفهم، و لكي تظهر رحمة اللّه و عنايته الخاصة لسليمان النبي الملك، حيث يحلّق في سلطته على الجبال و الطير و الشياطين، لا فقط على الانس المؤمنين، و لكي نعلم ان العاقبة للمتقين، و انه يأتي على العالم زمان يسيطر فيه من يصطفيه اللّه حاكما و قائدا على كل العالمين، و هو الإمام القائم المنتظر المهدي من آل محمد (عليهم السلام).

وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى‏ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ 83 فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى‏ لِلْعابِدِينَ‏ 84.

و قصة أيوب مفصلة في «ص» و مجملة هنا، و قد فصلناها هناك كما فصلت، و نجملها هنا كما أجملت، و هي دعاء و استجابة و مزيد، و ما الطفه و انظفه دعاء لا يتطلب فيه المبتلى كشف بلاءه، و انما هو عرض بلاءه: «أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ» و عرض الرب بعليائه‏ «وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» فلا يدعو بتغيير حاله، و لا يقترح شيئا على ربه، تأدبا معه و توقيرا و صبرا على بلائه، فهو من أفضل النماذج للعبد الصابر في بليته، دون اي تململ!.

ثم نرى الاستجابة «فَاسْتَجَبْنا لَهُ» سؤله المعلوم عن عرضه و سؤاله‏ «فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ» و الضر ضما يختص بما يمس غير الروح، و ليس للشيطان سبيل الى أرواح النبيين‏ «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ» (38: 41) و هي فتحا يعمهما، و ضما كما هيه يخص غير الروح، و علّ العذاب عبارة عنه اخرى.

و علّ «اهله» يعم زوجه و ولده، أم و كل من كان يعوله من أقربائه و انسباءه، سواء الذين هلكوا في ضره، ام تفرقوا عنه، ف «آتيناه» تعم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 346

إحياء من هلك، و رجوع من سلك، ثم‏ «وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» قد تعني مماثلة الكم و الكيف، و المعية و هي الملائمة الموافقة، قد تلمح ان الزوجة الثانية انضمت الى الاولى بكل وئام و احترام، و كل ذلك‏ «رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا» لأيوب الصابر في محنته‏ «وَ ذِكْرى‏ لِلْعابِدِينَ» على مر الزمن ليقتفوا اثره في الصبر على الضر للّه و في اللّه، دونما شكوى على اللّه! و هنا اللمحة اللامعة ان العبودية كلما ازدادت و تقدمت ازداد العبد بلاء، و لكي يرتقي العابد بذلك المرقى ما لا يرتقي بسواه.

وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ 85 وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ‏ 86.

و اذكر «إسماعيل» ابن ابراهيم‏ «وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ» في حياتهم الرسالية «كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» و لا سيما إسماعيل إذ قال له أبوه‏ «يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى‏ قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ».

فلذلك الصبر البالغ ذروته‏ «وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ» فالصبر الصالح و الصالح الصابر داخل في رحمة اللّه، و الصبر مفتاح الفرج‏ «1».

وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى‏ فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ 87 فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ‏ 88.

«ذا النون» هذا و هو يونس بن متى النبي، يضرب هنا مثلا مذكّرا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير قصة إدريس في «مريم» و إسماعيل في «الصافات» و ذي الكفل في «ص».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 347

لقصور الصبر اللائق في تطبيق الرسالة، بعد التذكير بأنبياء صابرين، و كما يلمح في «القلم»: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى‏ وَ هُوَ مَكْظُومٌ. لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (68: 50) و القصة مذكورة فيها و في يونس و الصافات، و في كلّ تفصيل كما تعنيه آيتها، و هنا كما هيه، دون اعادة شاملة للثلاثة الباقية.

و تراه هنا «إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً» ممن؟ أمن ربه؟ و هو كفر به، و اين يذهب مغاضبا من ربه و ليس له مكان، فانه محيط بكل كائن و مكان، و هو مع كل انس و جان! ثم «مغاضبا» تعني غضب المتناوئين، فليس غضبانا حتى يعنيه هو على ربه و سبحانه، و انما «مغاضبا» و طبعا مع من كانوا معه في قريته، فقد غضب عليه قومه لكرور دعوته و صموده في دعايته، فأيس منهم و غضب عليهم‏ «ذَهَبَ مُغاضِباً» غضبا على قومه في ذات اللّه إذ غضبوا عليه لدعوته الدائبة الى اللّه، فأيس من ايمانهم باللّه، و لكنهم كان لهم استعداد للايمان ما كان يعلمه يونس و لا رجاه:

«فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ» (10: 98).

فلان الموقف كان موقف الإياس من ايمانهم، فلم ير- إذا- بأسا من الذهاب عنهم مغاضبا، و لان ذهابه كان ذهاب المغاضب دون فرار عن الدعوة ام تمهّل فيها «فظن» حسن ظنه بربه‏ «أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» تضييقا في ذلك الذهاب، فليس «نقدر» من القدرة، بل هو القدر الضيق كما «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ» في آيات عدة «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي 13: 26 و 17: 30 و 28: 82 و 29: 62 و 30: 37 و 34: 36 و 39 و 39: 52 و 42: 12، ثم لا نجد «لا يقدرون» بمعنى القدرة الا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 348

«وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ» (65: 7).

فقضية الموقف الحاسم، ان لن نضيق عليه بذهابه عنهم مغاضبا، فلم يكن يرى في ذلك الذهاب بأسا، بعد ما استعصى عليه قومه و هو مستقص في دعوتهم، فغادرهم مغاضبا و لم يصبر على معاناتها بمماداتها و عرقلاتها، ظانا ان اللّه لن يضيق عليه الأرض، فهي فسيحة و القرى باقوامها كثيرة، و انه لن يضيق عليه توبيخا لذهابه عنهم، إذ رأى نفسه معذورة في ذهابه.

هذا الذي ظنه ذا النون، و لكن الرسالة الإلهية لها مسئوليتها الخطيرة، المحلّقة على سائر المسؤوليات، فليس لصاحب الدعوة الرسالية ان يتركها، او يترك جو الدعوة بسند الإياس عن تأثيرها، فانها ليست- فقط- نذرا، بل‏ «عُذْراً أَوْ نُذْراً» فحتى إن أيقن الداعية بعدم تأثير الدعوة فعليه المواصلة فيها حتى النفس الأخير، و لا يسمح له بالذهاب عنهم إلّا إذا خاف على نفسه عذابهم الناكل ام عذاب اللّه عليهم، ام مسا من كرامة الدعوة، فهنالك المهاجرة حفاظا على الدعوة و الداعية، لا إراحة لنفسه عن الدعوة غير المؤثرة.

إذا فقد كان من ذا النون بعض التقصير في الدعوة الصامدة، مهما يعذره بعض الإعذار ظنّه ان لن يضيق عليه ربه في ذهابه عنهم مغاضبا، و لكنه كان ظنا بغير حساب و لا صواب، حيث الموقف الصالح لذلك الظن او اليقين بعدم التضييق هو تمام الدعوة، و لا تتم بنفس الإياس الا إذا واجه امرا أهم إمرا من واجب الدعوة العاذرة غير المؤثرة، كالخطر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

2: 264 و 14: 18 و 57: 29، مما يجعل الترجيح للمعنى الاول عند التردد، فضلا عن موضع اليقين كما في ذا النون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 349

على الدعوة او الداعية، و قد هاجر الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أرض الدعوة الاصيلة الى اخرى لما هجّروه و أرادوا ليقتلوه، فانقلب واجبه المقام الى المهاجرة الى المدينة، حتى أسس فيها دولة الإسلام و رجع في نهاية امره الى مكة فاتحا محبورا مشكورا.

و هاجر موسى و من معه فرارا من بأس فرعون و ملئه، و ابراهيم و لوط حيث نجا هما اللّه الى الأرض المباركة، و لوط حيث نجّي باهله عن قومه الهاجم عليهم الخطر الناجم عن تكذيبهم‏ «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ»!.

و اما ان يذهب الداعية عن جو الدعوة بمجرد انهم بالفعل لم يتأثروا بها، فلا، علّهم يتأثرون في المستقبل، ام تلزمهم الحجة الدائبة عليهم إذا كانوا ممن‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» و لكن الدعوة المتواصلة ليست سواء عليك و انما عليهم.

فأصحاب الدعوات رسولية و رسالية لا بدل لهم ان يتحملوا تكاليفها، صبرا على التكذيب بها و الإيذاء من أجلها، و مهما كان تكذيب الصادق الأمين مريرا عليه و لكن الصبر عليه هو بعض تكاليف الرسالة.

لا يجوز للداعية ان ييأس من إصلاح النفوس المتمردة، فإذا كانت المئات لم تصل الى القلوب فلتكن ألفا و آلافات، فقد تصل مرة الى القلب مهما كان كرور الدعوة المستمرة مرّة، و حتى إذا أيقن- و كيف له ذلك و أنّى- انه سواء عليهم الإنذار و تركه، فليواصل في دعوته عذرا، كما كانت قبل نذرا.

اجل، و ان طريق الدعوات ليست هينة و لا استجابة النفوس يسيرة، فهناك ركام من مختلف الشبهات و الشيطنات تجثم على القلوب لا بد من إزالتها بكرور الدعوة، باية وسيلة ممكنة، تلمّسا لكافة المراكز الحساسة، محاولة العثور على العصب الحساس، و قد تصادف إحدى اللمسات ذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 350

العصب فيتحول تحولا، و كما قوم يونس آمنوا لما رأوا بأس اللّه، ايمانا صالحا لدفع العذاب، رغم ان الايمان عند رؤية البأس لا يفيد: «فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ» (10: 98).

ان الدعوة هي الأصل‏ «عُذْراً أَوْ نُذْراً» لا شخص الداعية ام شخصيته، اللهم الا فيما أصبحت الدعوة في خطر بالقضاء عليها ام على الداعية، فالى المهاجرة حفاظا على أصلها و استمراريتها في مجالات اخرى.

لقد سجن ذا النون في بطن الحوت النون تأديبا له أديبا لماذا استعجل عن قومه‏ «فَنادى‏ فِي الظُّلُماتِ»

ظلمة بطن الحوت و ظلمة الليل و ظلمة البحر» «1»

«أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ» إقرارا بالتوحيد «سبحانك» تنزيها للّه عن كل ما يمس من كرامته و عن ان يظلم عبده في ظلماته، ثم إقرارا بظلمه: انتقاصا عن واجب الدعوة «إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ظلما بنفسي لمكان نقصي كرسول.

و تراه كيف ناله عهد من اللّه رسالة «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» إذا كان ظلما قبل الرسالة، و هو ظالم حين الرسالة؟ «وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (37: 140)!.

ان «عهدي» الذي لا ينال الظالمين هو عهد الإمامة دون مطلق الرسالة، و الظلم الذي ينافي الرسالة هو المعمّد الخائن في حمل الرسالة او أدائها، دون الانتقاص عن كمالها، المجبر بتأديب اللّه، و لا سيما إذا كان اللّه يمتحن الرسول بذلك الانتقاص، تنبيها له انه ليس على شي‏ء لولا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 14: 383 في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قال في تفسير الظلمات ... و في 387 روى مثله عن الإمام الرضا (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 351

رحمة من اللّه و عصمة و تسديد، و قد يصدق فيه ما

يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في دعاءه «اللهم و لا تكلني الى نفسي طرفة عين ابدا» فسألته ام سلمة في ذلك فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يا ام سلمة و ما يؤمنني و انما وكل اللّه يونس بن متى الى نفسه طرفة عين فكان منه ما كان» «1»

و قد يشبهه ظلمه هذا ظلم موسى‏ «قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ» (28: 16) مهما كان ذلك قبل رسالته، و هما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 14: 384 عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد اللّه ابن سنان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في بيت ام سلمة في ليلتها فقدته من الفراش فدخلها من ذلك ما يدخل النساء فقامت تطلبه في جوانب البيت حتى انتهت اليه و هو في جانب من البيت قائما رافعا يديه يبكي و هو يقول:

اللهم لا تنزع مني صالح ما اعطيتني ابدا، اللهم و لا تكلني الى نفسي طرفة عين ابدا، اللهم لا تشمت بي عدوا و لا حاسدا ابدا، اللهم لا تردني في سوء استنقذتني منه ابدا، قال: فانصرفت ام سلمة تبكي حتى انصرف رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لبكائها فقال لها ما يبكيك يا ام سلمة؟ فقالت: بابي أنت و امي يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و لم لا ابكي و أنت بالمكان الذي أنت به من اللّه قد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر، تسأله ان لا يشمت بك عدوا ابدا و ان لا يردك في سوء استنقذك منه ابدا و ان لا ينزع منك صالح ما أعطاك ابدا و ان لا يكلك الى نفسك طرفة عين ابدا فقال يا ام سلمة ... (نقلناه بكامله عن الهامش نقلا عن الأصل).

و

فيه (387) عن الكافي 2: 581 عن ابن أبي يعفور قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول- و هو رافع يده الى السماء- رب لا تكلني الى نفسي طرفة عين ابدا» لا اقل من ذلك و لا اكثر، قال: فما كان بأسرع من ان تحدرّ الدموع من جوانب لحيته، ثم اقبل عليّ فقال: يا ابن أبي يعفور ان يونس بن متى و كله اللّه عز و جل الى نفسه اقل من طرفة عين فأحدث ذلك الذنب قلت: فبلغ به كفرا أصلحك اللّه؟ قال: لا و لكن الموت على تلك الحال هلاك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 352

على أية حال أدنى من ظلم آدم حين عصى ربه فغوى.

ثم و علّها لابن متى كما لموسى كانت رسالة تدريبية تجريبية، حتى إذا اكتمل بعثه لرسالة اصلية، و قد تشهد له‏ «وَ أَرْسَلْناهُ إِلى‏ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» بعد قوله بعدة آيات‏ «وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» و لكي يثبت على حاق رسالته و حقها دون اي تفلّت عنها او تلفّت!.

فلما أناب ذا النون الى ربه بما أناب‏ «فَاسْتَجَبْنا لَهُ» دعاءه‏ «وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ» عما قصّر «وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» حين يدعون كذلك الذي دعى ذا النون.

و لقد تكاثرت الروايات و تضاربت حول قصة يونس، بين ما تكذبها الآيات ام لا تصدقها، و ما تصدقها الآيات، فلا نصدق منها إلا ما صدقته، و لا نكذب إلا ما كذبته، ثم نتردد في عوانها لا مصدّقة و لا مكذّبة.

وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى‏ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ‏ 89.

ان قصة ولادة يحيى العجيبة مضت في سورة آل عمران و مريم، و هنا «لا تَذَرْنِي فَرْداً» استدعاء لولد «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» (19: 6).

و لما كانت هذه الوراثة المطلوبة توهم أن لولاها لم تكن هناك وراثة و اللّه خير الوارثين، يلحّق دعاءه بتلك الوراثة الإلهية، و انه يطلب وارثا من جنسه حتى يرثه في حمل الرسالة الإلهية، فحتى ان لم ترزقني ولدا «أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ» و ان رزقتنيه ايضا «أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ».

فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى‏ وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ‏ 90.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 353

«و أصلحنا» زوجه عن عقرها إذا كانت عاقرا، ثم‏ «وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى‏» من قبل، قد تعني فيما عنت إصلاح حاله عن كبره إذ «قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ... وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا».

هذه تبين لنا ان المسارعة في الخيرات و الدعاء رغبا و رهبا و الخشوع للّه، ان في ذلك مادة الاجابة الخارقة للعادة في الادعية الصالحة، و كما نرى السابقين و المقربين و شطرا من اصحاب اليمن تستجاب لهم دعواتهم العجيبة.

و العبادة «رغبا» هي الرغبة في اللّه ثوابا و لقاء و رضوانا، و «رهبا» هي الإشفاق من اللّه خوفة و رهبة و فرقا منه، و الدرجة العليا من الرغب و الرهب تناسب السابقين و المقربين الذين يعبدون اللّه حبا له، ثم سائر الناس عبيد «رهبا» ام تجار «رغبا» «1».

وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ‏ 91.

و الروح المنفوخ فيها هو المسيح، و في الطلاق‏ «وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا ...» (12) بيانا ان الموضع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 457 في كتاب الخصال عن يونس بن ظبيان قال قال الصادق (عليه السلام) ان الناس يعبدون اللّه على ثلاثة أوجه فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء و هي الطمع و آخرون يعبدونه فرقا من النار فتلك عبادة العبيد و هي الرهبة و لكني اعبده حبا له فتلك عبادة الكرام.

أقول: و لان هؤلاء الرسل هم من الكرام فعبادتهم رغبا و رهبا لا تعني ما عنته هذه الرواية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 354

المنفوخ فيه الروح منها هو فرجها لا سواه، و قد فصلناه في محالها الأنسب كالطلاق و سواها.

و ترى كيف جعلا هما «آيَةً لِلْعالَمِينَ» لا «آيتين» و المسيح بنفسه آية إلهية بما معه من آيات؟ القصد من «آية» هنا هي الذاتية الكونية، و هذه الولادة المنقطعة النظير آية واحدة، قائمة بكلا الولد و الوالدة، لولا أحدهما لم يكن الآخر آية، إذا فهما آية نظرا الى هذه الولادة القائمة بهما كليهما، آية واحدة فذة في تاريخ الإنسان على مر الزمان، و مثل واحد من ذلك النوع يكفي تأملا للإنسانية في اجيالها على طولها و عرضها في سماءها و ارضها، لمسا معرفيا و واقعيا ليد القدرة الطلقية المطلقة الإلهية التي تخلق النواميس، دون حصر و احتباس داخل النواميس! و «روحنا» هنا هي روح المسيح اضافة الى جسمه و قد جرت من مجراها في مريم نفخا دون علوق من ذكر، و لا انتقال من طبق إلى طبق، و أضيفت الى اللّه لمزية الاصطفاء بالتكريم و الاختصاص بالتعظيم في بعدي خرق العادة لخلقها، و الميزة على سائر الأرواح، اللهم الا التي ساماها بل فضّلت عليها كروح محمد و المحمديين من عترته الطاهرين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 92 الى 112]

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (94) وَ حَرامٌ عَلى‏ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96)

وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (97) إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (98) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (100) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (101)

لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (102) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (104) وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (106)

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّما يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى‏ سَواءٍ وَ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (110) وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ (111)

قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى‏ ما تَصِفُونَ (112)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 356

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ 92 وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ‏ 93.

«ان هذه» الأمم بأسرها و عن بكرتها «أمتكم» ايها الرسل بأسركم و عن بكرتكم‏ «أُمَّةً واحِدَةً» في مغزاها و مرماها، كما الرسالة واحدة مهما حملها مرسلون عدة، و هما تتلاقيان في‏ «وَ أَنَا رَبُّكُمْ» دون سواي، إذا «فاعبدون» دون سواي: «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ» (23: 54).

آيتان كريمتان في الذكر الحكيم تؤكدان على وحدة الرسالة و وحدة الأمم في عبادة اللّه الواحد و تقواه و الرجوع اليه‏ «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 357

و يا له من اله واحد و رب واحد مبدء و مرجعا، و يا لهم من امة واحدة على ضوء رسالة واحدة تلتقيان على عبادة واحدة و تقوى واحدة «وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ..»! خطابا شاملا للرسل باممهم، هم يحملون «كيف يعبد الله و يتقى» الى كل الأمم، فمهما اختلفت الطقوس و الصور فالأصل و الاتجاه واحد هو عبادة اللّه و تقواه.

و لان الرسالة تعم العالمين ككل من الجنة و الناس و من سواهما أجمعين، فالكل هم «أمتكم» كما و «كم» تعم رسل الجن الى جانب رسل الانس مهما كانت الرسالة الاولى على هامش الثانية.

فالرسالات كلها هي باتجاه واحد من آله واحد و الى آله واحد، و كل رسول يحمل شرعة خاصة من الخمس، يجمع العالمين على رسالته، و كل لاحق هو على خط سابقه، و على كل امة لاحقة اتباع شرعتها اللاحقة، تركا للسابقة صورة، و تمسكا بها سيرة، فلم يكن القصد من شرعة بعد شرعة- و هي كلها عن دين واحد- ان تختلق امم متصارعة طول تاريخ الرسالات، حيث الاختلافات على اية حال مرفوضة، و الوحدة في كل حال ملحوظة مفروضة «وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ» (11: 118)!:

«لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (5: 48) «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...» (42: 13).

فقد أمروا بالتوحد في دين اللّه بشرعته و لكنهم‏ «تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ..» تقطعا الى امم، و تقطعا في كل امة الى مذاهب، و تقطعا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 358

كل مذهب ايضا الى مذاهب ... «تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ» و هو دينهم بشرعتهم، رغم ان‏ «كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ» في الاولى تكوينا و دينا، و في الاخرى خلقا جديدا و جزاء على دين! امر واحد للّه هو أمرهم، «ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى‏ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها ..» (45: 18) و لكنهم بديل ان يظلوا تحت ظله متوحدين، جعلوا أمرهم فرقة و إمرا، تفرقا في الأهواء، و اختلافا في الآراء، و تقسّما في المذاهب، و تشعبا في الولائج.

فقد كانوا حسب وحدة التكوين و وحدة الدين امة واحدة، بينهم وسائل متناسجة، و علائق متشابكة، ثم تباعدوا تباعد قطع لتلك العلائق، و شذب لتلك الوسائل، فصاروا أخيافا مختلفين، و اوزاعا مفترقين، و اوضاعا مختلقين.

و هل من منجى في ذلك البين البائن، و الاختلاف الشائن، ام كل في شأنهم شائنون؟.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ‏ 94.

انما الأصل المنجي في هذا البين و البينونة هو عمل من الصالحات على ركيزة الايمان، جناحان لاي مؤمن يعمل من الصالحات، يجنحان به عن كل مصيدة و مكيدة الى سماء الرحمة و الرضوان، فأيا كان الايمان و عمل من الصالحات، و من اي كان و أيان‏ «فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ» لصالح العمل بصالح الايمان «و انا» بجمعية الصفات رحمانية و رحيمية «له» لسعيه ايمانا و عملا صالحا «كاتبون» في مختلف الكتابات الأربع: أعضاء و اجواء و ملائكة و أنبياءهم شهداء على الأعمال يوم يقوم الأشهاد، و هي كتابة الاستنساخ لمثلث الأحوال و الأعمال و الأقوال في سجلاتها كما هيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 359

اجل، فالإيمان أينما حلّ بصالح العمل كان مشكورا محبورا مهما اختلفت الدرجات، كما ان ما سواه أينما حل كان مكفورا منكورا مهما اختلفت الدركات.

و كضابطة شاملة توضّح الآية آية البقرة: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى‏ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 62) و كذلك الأمر في آية المائدة (69) و آية آل عمران أوضح من جهة: «لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» (113:- 115).

إذا «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» (4: 123).

«فَلا كُفْرانَ» إذا لسعي الساعي المؤمن العامل من الصالحات مهما كان يهوديا او نصرانيا، و لا شكران لغير الساعي بمجرد انه مسلم و لكنه لا يعمل من الصالحات و هو مؤمن، الا ان الايمان الاسلامي و عمل الصالحات على ضوءه له درجته بين الدرجات، «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً».

وَ حَرامٌ عَلى‏ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ 95 حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ 96 وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ‏ 97.

آية «لا يرجعون» بما بعدها هي معركة الآراء المتضاربة بين المفسرين، كل يحوم فيها حول ما يروم تأويلا لها كما يروم، و التجرد في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 360

تفسيرها مع التأمل فيها و ما يحتفّ بها دون تحميل عليها، يهدينا الى معناها و مغزاها.

هنا الموضوع‏ «قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها» و هي كل قرية هالكة لذنوبها بعذاب الاستئصال، على مدار الزمن في تاريخ الرسالات‏ «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ».

ثم‏ «وَ حَرامٌ عَلى‏» هي طابع الحرمان على القرى الهالكة «حَتَّى إِذا ...» و «أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ» هي مادة الحرمان، فذلك الحرمان أيا كان هو لزام القرى الهالكة «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ» فيزول عنهم حرمانهم هذا، فلم يكن- إذا- حرمانهم الى يوم الوعد الحق على طول خط البرزخ، و انما «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ‏ ... وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ» فهم فيه يرجعون.

و لأن الحرمان عرفيا ليس إلا عما يرام، فليكن رجوع القرى الهالكة قبل الفتح مما يرومونه، و كما هو الواقع المذكور في آيات عدة «وَ لَوْ تَرى‏ إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ» (32: 12)- «حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها ..»

(23: 100).

فالرجوع الى حياة التكليف هو أمل المجرمين، و آية «لا يَرْجِعُونَ» تخيّب ذلك الأمل رجاء العمل‏ «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ‏ ... وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ» فإذا هم راجعون لا للإصلاح، و انما لذوق العذاب يوم الرجعة.

و ذلك مضاعفة للعذاب الحساب، في ثالوث منه، هلاك في الاولى، ثم في رجوعهم يوم الرجعة إليها، و من ثم في‏ «الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 361

فلأن الحرمان عن عدم الرجوع يوم القيامة لا يخص‏ «قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها» فانها يوم الجمع، و ان ذلك الحرمان محدّد ب «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ ...» فليكن رجوعا خاصا قبل يوم الجمع، و ذلك حسب تلميحات آيات و تصريحات روايات محتوم على‏

«من محض الايمان محضا او محض الشرك محضا» «1».

إذا «أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ» هي بيان لمادة الحرمان‏ «حَرامٌ‏ ... أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ» أم هي بتقدير اللام «لأنهم لا يرجعون».

فقيلة القائل ان «لا» هنا زائدة، هي نفسها قيلة زائدة بائدة، اللهم إلا على غرار «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ» حيث تعني ما منعك عن السجود، و لكن الممنوع هناك غير مذكور، يعرف من‏ «أَلَّا تَسْجُدَ» ما منعك عن السجود الا تسجد، فلا زائدة هنا و هناك.

ثم‏ «حَتَّى إِذا» تحتّم رجوعهم عند الفتح لأنه غاية محتومة لحكم الحرمان أيا كان، فان كان حرمانا عن الرجوع الى الدنيا فهو رجوع عند الرجعة و اقتراب الوعد الحق، كما يلوح من الآية، و ان كان حرمانا عن عدم الرجوع فهم يرجعون‏ «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ» رجوعا محتوما عند الفتح، و محروما عنه قبل الفتح.

و في الحرمان الثاني تعريض على الناكرين للرجوع يوم الدين، فإنهم لو صدقوا رجوع‏ «مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» فما هم بمصدقي رجوعهم، و الآية هنا تقول «و حرام عدم رجوعهم» يوم الدين، بل و عدم رجوعهم حتى يوم الفتح، فهم على أية حال راجعون مرة ليوم الجمع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 53: 39 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) .. و ان الرجعة ليست بعامة و هي خاصة لا يرجع الا من محض الايمان محضا او محض الشرك محضا».

أقول و القرى الهالكة هي القدر المعلوم ممن محض الشرك محضا فهم يرجعون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 362

ككل، ام و اخرى قبلها «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ ..» و هو للقرى الهالكة، و قد يعنيهم‏ «فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا» في النمل‏ «وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا ..» (83).

فالرواية القائلة ان القرى الهالكة لا ترجع لا تناسب آيتي الأنبياء و النمل، فهي مأوّله أو مطروحة «1».

و في رجعة اخيرة الى الآية «وَ حَرامٌ عَلى‏» تعني حرمانا شاملا على القرى الهالكة، يبيّنه‏ «أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ حَتَّى ..» ام ل «أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ حَتَّى ..» ام هم محرومون عن عدم الرجوع- إذا- فهم يرجعون حتى ..

فهم على آية حال راجعون يوم الرجعة ليذوقوا وبال أمرهم مرة اخرى، و لعذاب الآخرة أمرّ و أنكى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 53: 52 عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي بصير و محمد بن مسلم عن أبي عبد اللّه و أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية قالا: كل قرية أهلك اللّه اهله بالعذاب لا يرجعون في الرجعة فهذه الآية من أعظم الدلالة في الرجعة لان أحدا من اهل الإسلام لا ينكر ان الناس كلهم يرجعون الى القيامة من هلك و من لم يهلك فقوله: «لا يرجعون» عني في الرجعة فاما الى القيامة يرجعون حتى يدخلوا النار.

أقول: و لكن لا يرجعون- أيا كان- محدد ب «حَتَّى إِذا ...» فهم إذا يرجعون! و

فيه (61) عن القمي و قال الصادق (عليه السلام) كل قرية أهلك اللّه أهلها بالعذاب لا يرجعون في الرجعة فاما الى القيامة فيرجعون و من محض الايمان محضا و غيرهم ممن لم يهلكوا بالعذاب و محضوا الكفر محضا يرجعون.

و

فيه (118) تفسير النعماني في ما رواه عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: و اما الرد على من أنكر الرجعة و قوله سبحانه‏ «وَ حَرامٌ عَلى‏ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ» في الرجعة فاما في القيامة فهم يرجعون،

أقول و يرد كل ذلك‏ «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ» إذا فهم عنده يرجعون!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 363

«حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ ...» فصلناها في آية الكهف، و انه فتح الشر الشامل للأرض، حيث تملأ به الأرض ظلما و جورا، ثم يملأها اللّه بالمهدي (عليه السلام) قسطا و عدلا.

«فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا» و هم كل من محض الكفر محضا أحياء و أمواتا، حيث هم يحشرون يوم الرجعة عند اقتراب الوعد الحق.

ثم‏ «وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» قد تعني كافة الاحداب و المرتفعات الجوية و البرية و البحرية، و النسل هو الانفصال عن الشي‏ء، انفصالا عن مثلث المرتفعات لإفساد الأرض بمن عليها، و انفصالا عن احداب الأصلاب و الأرحام، إذا فالأشرار كلهم ينسلون ولادة عن كل حدب، و نزولا عن كل حدب.

و قد يعني: «يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ» فيما يعنيه، المفسدين من بني إسرائيل و سواهم ممن يعيث في الأرض فسادا في المرة الثانية من مرتي الإفساد الاسرائيلي، حشرا من كل حدب لجموع المفسدين، يرأسهم‏ «يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ» و «بنو إسرائيل» كأصول، ثم و سائر المفسدين في الأرض هم على هوامشهم و آثارهم يهرعون.

فآية الإسراء «وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً» تؤصّل بني إسرائيل في عالمية الإفساد، و هذه توصل‏ «يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ» إذا فهما أصلان في ذلك الميدان، يتمازجان ام يتناحران في الإفساد العالمي بعلو كبير «فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً»!.

فطالما لا ذكر عن‏ «يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ» في الإفساد الاول، و لكنهم محادبون مع بني إسرائيل في الثاني‏ «وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 364

ان احزاب الإفساد العالمي باحدابها، ليست لتنهض النهضة الاخيرة المدمرة إلّا عند ما «اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ» تعبيدا سلبيا لاقامة دولة الحق، كما و ايجابيته هي التحصّل على أنصار هذه الدولة المباركة.

فدولة الباطل الاخيرة تكرّس كافة الطاقات المفسدة و امكانياتها لكي تملأ الأرض ظلما و جورا، ثم دولة الحق تملأها قسطا و عدلا.

و علّ «كل حدب» دون «كل مرتفع» للتأشير الى أصلاب الأحداب الناسلة عنها كل يأجوج و مأجوج، و كذلك كافة القوات المتظاهرة المتظافرة، فان اصل الحدب هو مرتفع الظهر، فانه ظهير القوة البدنية، إذا ف «كل حدب» قد تعني كل طاقة مرتفعة مترفعة انتسالية، ام حربية و سياسية و اقتصادية و ثقافية و عقيدية اما هيه من احداب و قوات بشرية، حيث تحشر في آخر الزمن، فتهدر الانسانية الى هوّات البهيمية من ناحية و الى سقطات مختلف الموتات روحية و بدنية من اخرى، فتصبح الحياة الانسانية ظلمات بعضها فوق بعض، و يحلّق الظلم على كافة جنبات الحياة، فلا يبقي من الحيوية الانسانية أثرا و ثمرا الا اجترم، و لا حرمة الا اخترم، حتى يقوم قائم الحق الذي «به يملأ الله الأرض قسطا و عدلا بعد ما ملئت ظلما و جورا»! و قد تؤشر «وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً» لبني إسرائيل، ان يأجوج و مأجوج، هم أيا كانوا، ليسوا إلا من جنودهم الأصلاء في الإفساد العالمي بعد الجنود الاسرائيليين، حين يسيطر بنو إسرائيل على كافة الأحداب، فتنسل يأجوج و مأجوج و من معهم من «كل حدب» و كما هم أنفسهم ينسلون.

فإذا تم فسادهم و طمّ‏ «وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا» هنا في دولة الإمام القائم المهدي (عليه السلام)، و هناك في القيامة الكبرى قائلين هنا و هناك:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 365

«يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ» فانها كانت غفلة التغافل التجاهل، عامدة مقصرة غير قاصرة، تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة الرائعة المروّعة بغتة فيذهل و يشخص ببصره فلا يطرف، و يدعو بالويل و الثبور، معترفا بالتقصير متندما و قد فات الأوان.

فهذه الدولة المباركة السعيدة- بتلك الرجعة عندها- هي من أشراط الساعة، كما و الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هو نبي الساعة و نبوته من أشراط الساعة، كما و بعض آياته الرسالية كانشقاق القمر، هي من أشراط الساعة: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ» و لكنما الدولة الاخيرة هي اقرب شرط من أشراط الساعة، و هي باقية حتى الساعة!.

إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ‏ 98.

«ما تَعْبُدُونَ» تعم كل ما يعبد من دون اللّه أوثانا و طواغيت، فلا تعني «ما» فقط غير ذوي العقول بل و ذوي العقول ايضا كالطواغيت فإنهم أحرى حصبا لجهنم مما لا يعقل، و لا ضير في شموله- إذا- لعباد اللّه الصالحين حيث هم ناجون لمكان مكانتهم من اللّه، و انهم لم يدعوا أحدا الى عبادتهم، و قد سبقت لهم الحسنى فهم عنها مبعدون كما بعد آيتين، و استعمال «ما» في ذوي العقول، او في المجموعة غير شاذ في القرآن، و «لَوْ كانَ هؤُلاءِ» تؤيد هنا العموم، و علّ «ما» هناك دون «من» للتأشير الى ان عبادتهم خلاف المعقول، و ان الداعي منهم الى نفسه داع الى غير معقول، فغير الداعي الذي لا يدعي لنفسه ما يدّعون، كالذين سبقت لهم الحسنى، فهم عنها مبعدون.

و ترى هؤلاء الطواغيت حقا عليهم انهم معهم حصب جهنم، فما بال الأصنام و هي لا تشعر و ليست لها دعوة؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 366

انها لا تلمس العذاب و لكن عابديها يلمسونه بما تدخل هي في النار، عذابا لهم فوق العذاب ان آلهتهم كامثالهم وقود النار، فكما ان أبدانهم أنفسهم لا تحس العذاب و انما الاحساس للأرواح، كذلك أوثانهم، و القصد إيصال العذاب نفسيا الى أرواحهم الجهنمية، و كما تبينه:

لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ‏ 99.

حيث الإله يورد النار و لا يردها، إذا فما هؤلاء الواردون فيها بآلهة، و كل من العابدين و المعبودين فيها خالدون، و هذه الحجة برهان واقعي و وجداني ينتزع من نفس المشهد الواقع هناك، المعروض عليهم هنا و كأنه المشهود الآن! و حصب جهنم هي وقودها التي تتقد النار بها، لأنهم اصول الضلالة عابدين و معبودين، فليكونوا اصول الجحيم‏ «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» (2: 24) فالناس هم العبدة و الطواغيت هم المعبودون و الحجارة هي الأصنام‏ «وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (3: 10).

فما الحصب- فقط- الحطب، إذ لا حطب في الجحيم، و انما الوقود أجسادا و أحجارا هنا، و وقودات اخرى تناسب تلك النار المتأججة الشديدة، من طاقات حرارية فوق ما نعرفها في حياتنا الدنيا.

و الحصب في اصل اللغة هو ما يرمى به من الحصباء و هي الحصى الصغار، يقال: حصبنا الجمار: قذفناها بالحصبات، فشبه سبحانه قذفهم في جحيم النار بالحصباء المرمية فيها، من ذلّ مقاذفهم، و هوان مطارحهم.

و لماذا هناك‏ «أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» و هنا «ما وَرَدُوها»؟ علّ اللام للتأشير انهم كحصب الوقود يصلحون للنار حيث يصلحونها إحراقا لمن في النار، فمن اهل النار من يردها و هم المصطلون بوقودها الصلاء، و منهم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 367

يردونها لأنهم أنفسهم الصلاء.

لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ‏ 100.

«لهم» العابدين و المعبودين اللهم إلا غير ذوي العقول منهم‏ «فِيها زَفِيرٌ» و هو صوت برد النفس الى داخل ضغطا عليها حتى تنتفخ منه الضلوع، و ازدفر فلان كذا، إذا تحمله بمشقة فتردد فيه نفسه، «وَ هُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ» بعضهم أصوات بعض كما لم يسمعوا يوم الدنيا صوت الحق.

و حين يصل الأمر الى ذلك الحد الحديد الإمر، قد ينبري المشركون قائلين للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): تزعم ان اللّه انزل عليك هذه الآية «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ ...» و قد عبدنا الشمس و القمر و الملائكة و عزير و عيسى بن مريم، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟! فتنزل إذا:

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ‏ 101 «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 459 عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: لما نزلت هذه الآية وجد منها اهل مكة وجدا شديدا فدخل عليهم عبد اللّه بن الزبعري و كفار قريش يخوضون في هذه الآية:- انكم و ما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم ...- فقال ابن الزبعري أ محمد تكلم بهذه الآية؟ فقالوا:

نعم- قال ابن الزبعري لئن اعترف بها لأخصمنه فجمع بينهما فقال: يا محمد أ رأيت الآية التي قرأت آنفا فينا و في آلهتنا خاصة ام الأمم و آلهتهم؟ فقال: بل فيكم و في آلهتكم و في الأمم و في آلهتهم الا من استثنى اللّه فقال ابن الزبعري خصمتك و اللّه الست تثني على عيسى خيرا و قد عرفت ان النصارى يعبدون عيسى و امه و ان طائفة من الناس يعبدون الملائكة؟ أ فليس هؤلاء مع الالهة في النار؟ فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): لا، فضجت قريش و ضحكوا، قالت قريش خصمك ابن الزبعري فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): قلتم الباطل اما قلت: الا من استثنى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 368

... «مبعدون» عابدين و معبودين، و سابق الحسنى و سابغة الأحرى هو للملائكة و النبيين، من عبدوا من دون اللّه و سواهم على سواء، فانما حصب جهنم هو للدّاعي الى نفسه كإله، و المتقبل ان يعبد من دون اللّه و ان لم يدع الى نفسه صراحا، و العابد من دون اللّه، فذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللّه و هو قوله تعالى: ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون، لا يسمعون حسيسها و هم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، و قوله: حصب جهنم يقول يقذفون فيها قذفا و قوله: أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ‏ «و يعني الملائكة و عيسى بن مريم (عليهما السلام).

و

فيه عن قرب الاسناد للحميري باسناده الى أبي عبد اللّه (عليه السلام) عن أبيه عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان اللّه تبارك و تعالى ياتي يوم القيامة بكل شي‏ء يعبد من دونه من شمس او قمر او غير ذلك ثم يسأل كل انسان عما كان يعبد فيقول كل من عبد غير اللّه: ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏، قال: فيقول اللّه تبارك و تعالى للملائكة اذهبوا بهم و بما كانوا يعبدون الى النار ما خلا من استثنيت فأولئك عنها مبعدون.

و اخرج مثله في الدر المنثور 4: 338 بألفاظ عدة يجمعها ذلك الاستثناء، ابن مردويه و الضياء في المختارة عن ابن عباس قال جاء ابن الزبعري الى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: تزعم ...

و

في تفسير البرهان 3: 72 عن محمد بن العباس عن النعمان بن البشير قال: كنا ذات ليلة عند علي بن أبي طالب (عليه السلام) سمارا إذ قرأ هذه الآية «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ» فقال: انا منهم و أقيمت الصلاة قريب و هو يقول: لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ» ثم كبر للصلاة، و رواه ايضا صاحب كشف الغمة عن النعمان بن بشير.

و في تعليقات احقاق الحق 3: 390 عن أبي حيان الاندلسي و

روي‏ ان عليا كرم اللّه وجهه قرء هذه الآية ثم قال: انا منهم (بحر المحيط 26: 342)

و ممن أخرجه الترمذي في مناقب مرتضوي (59) و الآلوسي في روح المعاني 17: 89 و البيضاوي 3: 100.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 369

الثالوث المنحوس‏ «حَصَبُ جَهَنَّمَ» ثم سائر اهل النار يتحصّبون بهم اتقادا في النار، حيث يتحسّبون منهم أتباعا.

«الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏» هم السابقون و المقربون و شطر من اصحاب اليمين الداخلين الجنة بغير حساب، مبعدين عن النار على طول خطها في البرزخ و الاخرى، ثم بين من هم حصب جهنم و السابقة لهم الحسنى، درجات و دركات لم يذكروا هنا و هناك.

و الحسنى السابقة، منها الصابغة لهم استجابة لربهم: «لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى‏» (13: 18) و هي السابغة لهم الحسنى الأخرى كما هنا و في سواها: «وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» (53: 31).

و هي الحياة الحسنى الموعودة لهم سابقة فقد «سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏» واقعا هنا و وعدا لما هناك.

و لماذا «مبعدون» و هي تلمح بدخولهم فيها ثم إبعادهم عنها؟ علّه لأنه‏ «إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى‏ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا. ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا» (19: 72).

لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ‏ 102.

و الحسيس هو الصوت المحسوس من زفير و شهيق، و لكنهم و هم واردوها مع أهلها كما لا يعذبون بحرها، كذلك‏ «لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها» ثم‏ «وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ» عند ورودها و خروجها و دخول الجنة، دون اي سغب و لا لغوب.

لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ‏ 103.

و من الفزع الأكبر ما يطمّ كل اهل الحشر في النفخة الاولى: «وَ يَوْمَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 370

يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» (27: 87) و ذلك فزع الصعقة للأرواح موتا ام غشية: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» (39: 68) «إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْ‏ءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى‏ وَ ما هُمْ بِسُكارى‏ وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (33: 1- 2).

فلانهم- و هم ممن شاء اللّه- لا يفزعون و لا يصعقون في تلك النفخة و لا يعذبون بعذابها الشامل إذا «لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ» بل و «تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ» لقيامة الإحياء في النفخة الثانية

«ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ»

«فلا يبقى ذو روح إلا انخلع قلبه و طاش لله و ذكر ذنبه و شغل بنفسه الا ما شاء الله» «1».

قائلين لهم‏ «هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» و هذه الحياة المشرقة فيه هي من الحسنى السابقة لهم.

ليس فقط انه‏ «لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ» بل‏ «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 461 في ارشاد المفيد و لما عاد رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من تبوك الى المدينة قدم عليه عمرو بن معد يكرب الزبيدي فقال له النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اسلم يا عمر و يؤمنك اللّه من الفزع الأكبر فقال: يا محمد و ما الفزع الأكبر فاني لا أفزع؟ فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): انه ليس كما تظن و تحسب ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت الا نشر و لا حي الا مات الا ما شاء اللّه ثم يصاح بهم صحية اخرى فينشر من مات و يصفون جميعا و تنشق السماء و تهد الأرض و تخر الجبال و تزفر النار بمثل الجبال شررا فلا يبقى ذو روح الا انخلع قلبه و طاش لبه و ذكر ذنبه و شغل بنفسه الا ما شاء اللّه فأين أنت يا عمر و من هذا؟ قال: الا اني اسمع امرا عظيما، فآمن باللّه و رسوله و آمن معه من قومه ناس و رجعوا الى قومهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 371

خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» (27: 89).

فلا الموت عن الحياة الدنيا يفزعهم لأنه لقاء اللّه، و لا النفخة المفزعة المصعقة تفزعهم او تصعقهم، لأنهم ممن شاء اللّه، و لا اي فزع يومئذ، فانما «تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ» بكل سلام و وئام الى يوم اللّه.

«فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران اللّه في داره، رافق بهم رسله، و أزارهم ملائكته، و أكرم اسماعهم عن أن تسمع حسيس نار ابدا، و صان أجسادهم ان تلقى لغوبا و نصبا، «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» «1».

و في ظل‏

«الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏» «المتحابون في الله في ظل الله يوم لا ظل الا ظله على منابر من نور يفزع الناس و لا يفزعون» «2».

«الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏» «لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ» «وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ..» و تراه اي يوم «يومكم ..» و «لا يحزنهم؟ انه:

يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ‏ 104.

و ذلك يوم قيامة الاماتة، فإذا لا يحزنهم ذلك الفزع العام الطام لأهل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام علي امير المؤمنين (عليه السلام).

(2) الدر المنثور 4: 340- اخرج الطبراني في الأوسط عن أبي الدرداء قال سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ... و

اخرج البزار و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) للمهاجرين منابر من ذهب يجلسون عليها يوم القيامة قد امنوا من الفزع،

و

اخرج الطبراني عن أبي امامة ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال‏ بشر المدلجين في الظلم بمنابر من نور يوم القيامة يفزع الناس و لا يفزعون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 372

الحشر لأنهم ممن شاء اللّه فبأحرى الا يحزنهم الأفزاع التي بعده في مسارح الحساب و الجزاء.

و طي السماء هو نقض بنيتها و إعفاء جملتها عن صورتها، حيث تطوى حتى تجتمع بعد انتشارها، و تتقارب بعد تباعد أقطارها، فتصبح كالسجل المطوي و هو ما يكتب فيه، و الكتب هنا جمع الكتابة.

إذا نطوي أوراق السماء المتفرقة المتباعدة بما كتب عليها من كواكب، نطويها للكتب جديدا، لا طيا فيه القضاء التام الحاسم على السماء بكتبها، فللأخرى سماء كما للأولى، و لسماء الاخرى كتب كما للأولى بل هي احسن و أحرى‏ «وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (39: 67).

و قد يحتمل ان الكتب هنا كما في غيرها هي المكتوبات، فالسجل هو الصحيفة المكتوبة هي فيها، إذا طويت انطوت بطيّها كتبها عن الشهود، و هي في الغيب لا تخلو عن وجود، فكما السجل المطوي لا ينعدم، و كتبها لا تنمحي عن الوجود، كذلك سجل السماء بكتبها الأنجم، و كتبها الأعمال المسجلة عليها، المستنسخة فيها، انها لا تنمحي، فمهما تنمحي صورة الكون، و لكن صور الأعمال باقية في سجلات الكون، حيث سجلت فيها للشهادة يوم يقوم الأشهاد «1».

و علّ «السماء» هنا هي صيغة اخرى عن الكون كله، فانها مطلق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 75 ابن بابويه بسند عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ان في الهواء ملكا يقال له إسماعيل على ثلاثة آلاف ملك كل واحد منهم على مائة الف يحصون اعمال العباد فإذا كان رأس السنة بعث اللّه إليهم ملكا يقال له السجل فانتسخ ذلك منهم و هو قول اللّه تبارك و تعالى: يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 373

الجو الحامل للكرات، و الأرض كسائر الكرات من المعلقات في جو السماء.

و المعنيان- علهما- معنيّان، فالطيّان إذا مرعيّان، و ذلك يناسب الحالة الطليقة في أسلوب القرآن، و هما يناسبان هنا ادب اللفظ و حدب المعنى!.

آيات ثلاث بين اضرابها تقرر ان هناك مضاهاة بين العود و البدء، فكما كان اوّل خلق من الإنسان- و هو آدم- «خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ» كذلك ثاني خلقه.

و كما الإنسان الأوّل خلق من صلصال من حماء مسنون (15: 26) و من طين لازب (37: 11) كالفخار (55: 14) و كل ذلك دون تحوّل للتراب منيا ثم جنينا، و دون نسل من صلب و مكوث في رحم، بل هو قفزة من تراب الى انسان تسلّلا في سلالات، فكذلك خلقه ثانيا في المعاد، حيث يعاد كلّ من طينه كما يناسب العدل و الحكمة الإلهية و قضية الحساب و الجزاء و الخلود.

فأصل القفزة في المعاد للمعاد كما الإنسان الاوّل، و التسلل فيها كما يخلق كل انسان‏ «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ» (23: 13) «وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ» (32: 11).

فسلالة الماء المهين هي النطفة الجرثومية المتسللة عنه، فليكن كذلك العود طبق البدء في صورتيه، قفزة في التحول، و تسللا عن ترابه.

إذا فالمعاد في المعاد هو نفس النطفة التي خلقت منها، بما معها من الاجزاء الاصيلة التي تعيشها طول حياتها، و قد نمّتها فطمّتها و أتمّتها جنينا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 374

حتى‏ «أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» «1».

ثم و كما بدأنا عراة حفاة كذلك الاعادة حيث‏

«استبدلوا بظهر الأرض بطنا و بالسعة ضيقا، و بالأهل غربة، و بالنور ظلمة، فجاءوها كما فارقوها حفاة عراة، قد ظعنوا عنها بأعمالهم الى الحياة الدائمة و الدار الباقية كما قال سبحانه‏ «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ» «2».

وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ‏ 105.

بشارة عظيمة في إشارة تحملها هذه الكريمة بين الكريمات الى الدولة الاسلامية الاخيرة العالمية، وعدا من اللّه محتوما لا حول عنه كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 340- اخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال يبعثهم اللّه يوم القيامة على قامة آدم و جسمه و لسانه السريانية عراة صفاة عزلا كما ولدوا» أقول:

المصدق منه الجملة الاخيرة و اما قامة آدم و لسانه فلا اللهم ان يعني كما خلق آدم من تراب.

(2)

نهج البلاغة عن الإمام علي امير المؤمنين (عليه السلام) و في المجمع و يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: تحشرون يوم القيامة عراة حفاة عزلا (جمع الأعزل و هو الذي لم يختن) «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ».

و

في الدر المنثور 4: 340- اخرج ابن جرير عن عائشة قالت‏ دخل علي رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و عندي عجوز من بني عامر فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من هذه العجوز يا عائشة؟ فقلت: احدى خالاتي، فقالت ادع اللّه ان يدخلني الجنة فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ان الجنة لا يدخلها العجوز فأخذ العجوز ما أخذها فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ان اللّه ينشئهن خلقا غير خلقهن ثم قال: تحشرون حفاة عراة غلفا، فقالت: حاش اللّه من ذلك فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بلى ان اللّه تعالى قال: كما بدأنا اوّل خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 375

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى‏ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ..» (24: 55).

فذلك وعد للحياة الدنيا في عاقبتها «وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (38: 83) و كما وعدوا كذلك ميراث ارض الجنة طبقا عن طبق: «وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ» (39: 74) «أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ» (23: 11).

فلا يختص الوعد المكتوب‏ «فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» فقط ميراث الأرض بعد الموت برزخا و أخرى‏ «1» كما لا يختص بالحياة الدنيا و ان كانت هي الظاهرة من «الأرض» حين إطلاقها، و قد يؤيد الشمول لهما، تلحيق الآية بالأخرى و قبلها الرجعة الى الاولى: «فَمَنْ يَعْمَلْ‏ .. وَ حَرامٌ‏ .. حَتَّى إِذا فُتِحَتْ‏ .. وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُ‏ .. إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ‏ .. يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ .. «وَ لَقَدْ كَتَبْنا ..» فلتحقّ آية الوارثة ل «عِبادِيَ الصَّالِحُونَ»- «لِقَوْمٍ عابِدِينَ» كلتا الوراثتين في كلتا النشأتين، فمهما كانت الاولى هي القدر المعلوم من نفس الآية، و لكن الثانية تلحقها بآيات القيامة و آية الزمر و اضرابهما، مهما اختلف ميراث الاخرى عن الاولى في درجات، و لكنهما يلتقيان في ظاهرة باهرة لدولة الايمان، و لا سيما بين دويلات الكفر التي يقضى عليها في هذه الدولة المباركة الكريمة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 75 عن محمد بن العباس بسند عن أبي الحسن موسى بن جعفر (عليهما السلام) في الآية قال: آل محمد صلوات اللّه عليهم أجمعين و من تابعهم على منهاجهم و الأرض ارض الجنة أقول قد يئول ارض الجنة بان ارض الدنيا حينئذ تصبح كأرض الجنة، ام انها تشمل ارض الدنيا الجنة و ارض الجنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 376

و الوراثة الاولى ل «عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» هي السلطة الطليقة عن أسر الطواغيت بأسرها، ليبلغ بها «الصالحون» لها كما لا تهم المقدرة لهم في هذه الحياة، مادية- هي من الذريعة- و معنوية هي الغاية المعنية في دولة مباركة عالمية، فلا ينتكسون حيوانا في وسط الحضارة المادية المزخرفة، و لا يهبطون الى دركات اللاإنسانية المتخلفة، و لا يبتعدون عن مظاهر الحياة متقشفين عن الماديات، أخلاء لميادين الحياة للشيطنات و الفرعنات، و انما صلاحا تاما طاما كافة جنبات الحياة، دون ان تزوى عنها شطرات، جاعلين غير الصالحين في زواياهم منعزلين عن كل حيوية الا صالحة.

و نحن نرى طول التاريخ الرسالي و الانساني عدم التوازن و التناسق في الحياة الارضية المرضية، حيث تشيل كفة من ميزانها و ترجح اخرى.

فقد يغلب- تغلبا- على الأرض بكل ثرواتها و بركاتها جبارون و ظلمة و طغاة، ام همج متبربرون غزاة، ام كفار فجار يحسنون استغلال طاقاتها و ثرواتها في الشهوات و الحيونات، و هي الاكثرية المطلقة في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، فلا تبقي للصالحين رمقا إلّا محقا و سحقا، و هم بين قاصرين لا حول لهم و لا قوة، و مقصرين متقشفين يرون الحياة انعزالية عن وراثة الأرض.

فحيثما يجتمع صالح الايمان- و هو ايمان القلب- و صالح العمل الجبار في امة صامدة قائمة، فعندئذ تتحقق وراثة الأرض في كافة الحيويات الميسورة منها.

و لكن حين يفترقان هذان العنصران، فالميزان يتأرجف، فتقع الغلبة للآخذين بالواجهة المادية للحياة، حين يهمل المؤمنون الأخذ بها ذريعة لتحقيق دولة الايمان و دولته.

«عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» هم الجامعون لكل صلاحيات الحياة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 377

و حسنييها، إذ لا قوة للايمان بجنب القوات الكافرة و زخرفات الحياة، إلا على ضوء دولة قاهرة باهرة تحلّق على كافة الطاقات الحيوية، مجتثة جذور الافسادات و الشيطنات، ليخلو جو الحياة لتطبيق الحق كما يحق.

تلكم البشارة المسجلة «فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» هي الشاملة للصالحين ورثة للأرض، و للطالحين منعزلين عن وراثة الأرض، و هي كما يعلمه العالمون لم تتحقق حتى الآن، و حتى في زمن المرسلين، فلها- إذا- ميعاد يأتي.

و ترى ما هو الزبور من بعد الذكر، المكتوب فيه هذه البشارة، و ما هو الذكر؟.

اللائح من «الزبور» مفردا هو زبور داود تحمله آيات ثلاث، هذه‏ «وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً» (4: 163) و 17: 55) مهما كانت هنالك سبع اخرى في جمعه الجامع لكل الزبر «1» و قضية الإفصاح في كتاب البيان القرآن «الزبر»- ان كان المعني من «الزبور» كل الزبر، اضافة الى ان «الذكر» ايضا من الزبر، توراة ام قرآنا ام سواهما مما زبر من كتابات الوحي.

و «الذكر» السابق على هذا الزبور هو التوراة، و لأنه الأصل في الكتابات الاسرائيلية، و ما تخصيص الزبور بالذكر «مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» الا لبالغ اهميته بين الكتابات الملحقة بالذكر، اللاحقة له، و ان هذه البشارة بينة صريحة في آيات من الزبور.

و قد اطلق الذكر على التوراة في هذه السورة مرتين‏ «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» (7)- «وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ» (48)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي 3: 184 و 16: 44 و 26: 196 و 35: 25 و 54: 43 و 52 و 23: 53.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 378

و «مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» كما تتعلق بمقدر «الكائن» و لقد كتبنا في الزبور الكائن من بعد الذكر، كذلك تتعلق ب «كتبنا» فهذه الكتابة تعم الذكر، و من ثم- و على هامشه- الزبور، كتبنا في الزبور من بعد ما كتبنا في الذكر.

بشارة مسجلة في كتابات التوراة خاصة و عامة «1» و من بعد «في الزبور» و هو ابعد من التحريفات و التجديفات التي ابتلي بها الذكر، و قد يعني الذكر هنا كل ذكر سماوي قبل الزبور «2» كما نجد هذه البشارة تصريحة و اشارة في كتابات اخرى قبل التوراة و بعدها، و لا سيما في «الزبور».

ام ان «الذكر» هو الذكر الحكيم في اللوح المحفوظ «عند اللّه» و «الزبور» هو جنسه الشامل لمطلق الزبر السماوية «3».

و قد يعني‏ «الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» كل ما ذكر على الترتيب الرتيب، دون اختصاص بواحدة دون الاخرى، مهما كان الأولى كل أولى فأولى حسب القرائن المسرودة عندها.

و زبور داود، المخصوص بالذكر هنا، يحمل تصريحات عدة بشأن وراثة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التوراة الخاصة هي الاسفار الخمسة، و العامة هي هيه و سائر أسفار الأنبياء من بني إسرائيل.

(2) البرهان 3: 75 القمي في معنى الآية قال قال الكتب كلها ذكر اللّه ان الأرض يرثها عبادي الصالحون قال قال: القائم (عليه السلام) و أصحابه.

(3)

نور الثقلين 3: 464 في اصول الكافي بسند عن عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه سأله عن قول اللّه عز و جل‏ «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» ما الزبور و ما الذكر؟ قال: الذكر عند اللّه و الزبور الذي انزل على داود و كل كتاب نزل فهو عند اهل العلم و نحن هم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 379

الأرض في الدولة الاخيرة التي يقودها ابنه من بنته: القائم المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

و إليكم فيما يلي نصوصا من تلك البشارة الغالية، تجدو تفاصيلها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و هنا نماذج ملتقطة تحلق على كل ذكر في كتابات السماء.

ففي المزمور 37 من الزبور: الا تفر من الأشرار و لا تحسد عمّال الإثم 2 فإنهم مثل الحشيش سريعا يقطعون و مثل العشب الأخضر يذبلون 8 كفّ عن الغضب و اترك السخط و لا تغتر لفعل الشر 9 لان عاملي الشر يقطعون و الذين ينتظرون الرب هم‏ يَرِثُونَ الْأَرْضَ‏ 10 بعد قليل لا يكون الشرير تطلع في مكانه فلا يكون 11 اما الودعاء يَرِثُونَ الْأَرْضَ‏ و يتلذذون في كثرة السلامة 12 الشرير يتفكر ضد الصديق و يحرّق عليه أسنانه 14 الأشرار قد سلوا السيف و مدّوا قوسهم لرمي المسكين و الفقير لقتل المستقيم طريقهم 15 سيفهم يدخل في قلبهم و قسّيهم تنكسر .. 18 الرب عارف ايام الكملة و ميراثهم الى الأبد يكون .. 21 الشرير يستقرض و لا يفي اما الصديق فيترأف و يعطي 22 لان المباركين منه‏ يَرِثُونَ الْأَرْضَ‏ و الملعونين منه يقطعون .. 29 الصديقون يرثون الأرض و يسكنونها الى الأبد .. 34 انتظر الرب و احفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض إلى انقراض الأشرار تنظر .. 38 لاحظ الكامل و انظر المستقيم فان العقب لإنسان السلامة 38 اما الأشرار فيبادون جميعا، عقب الأشرار ينقطع 39 اما خلاص الصديقين فمن قبل الرب حصنهم في زمان الضيق».

هذه آيات بينات مكررات ثمان عدد أبواب الجنة تصرح‏ «أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» و الآية (34) تصرح ان داود (عليه السلام) من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 380

سواعد تلك الدولة المباركة في وراثة الأرض!.

و هذا الفصل فقط من الزبور يحمل أربعين آية كلها تحوم حوم انقراض الأشرار و وراثة الأرض للأخيار «1».

و في المزمور 71: 1- 20 مواصفات للقائد الأول لهذه الوراثة و منها 17 «يكون اسمه الى الأبد، ما دامت الشمس، ينمو اسمه و يتبارك فيه جميع قبائل الأرض و تغبطه كل الأمم .. 19 و تبارك اسم مجده الى الأبد و لتمتلئ الأرض كلها من مجده. آمين ثم آمين‏ «2».

و في مزمور 45: 18 «يكون بنوك عوضا عن آبائك تقيمهم رؤساء على جميع الأرض».

و في «أهونود گات» في يسنا گاتها 48: 2- 11: الترجمة الحرفية عن الأصل البهلوي الاوستائي‏ «3»: «عرفني يا أهورامزدا! (اللّه) هل ان قبل القيامة يوم الجزاء المحتوم سوف يهزم أتباع الصدق أتباع الكذب فإنه حقا بشارة حسنة لهذا العالم.

و في يسناها 30: 10 بعد استرجاء الحياة الجديدة في آخر الزمن يقول «و في ذلك الزمان ينكسر عالم الكذب بفلاح الصدق، و كذلك في عالم الخير (القيامة) ..».

و في يسناها 46: 3 «متى يا مزدا (اللّه) يصلنا اوّل النهار، الشريعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية 227- 228.

(2) راجع رسول الإسلام 229- 233.

(3) نقلنا عن الترجمة الفارسية عن الأصل للاستاذ بور داود أستاذ اللغة الاوستانية في جامعة طهران.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 381

الصادقة تشمل و تعم الكون .. للإنباء و الإعلان بعثتك» «1».

و هنا آيات توراتية تدلنا على اجتماع كافة الأمم في آخر الزمن، و ليس ذلك إلا عند وراثة الأرض للصالحين.

ففي سفر التكوين 40: 10 «لا تنهض عصى السلطنة من يهودا و لا الحكم من بين رجليه حتى يأتي شيلوه الذي يجتمع فيه كافة الأمم».

و ذلك الاجتماع أمر واقع لا مردّ له، دون ان يكون أملا لا يتحقق، فانه يعم اولي العزم من الرسل كافة دون اختصاص ب «شيلوه» و في التراجم العربية 1722 و 1821 و 1844 فسر «شيلوه» ب «الذي له الكل و إياه تنتظر الأمم» و هذا هو حقا رسول الإسلام الذي تجتمع الأمم في دولة المهدي القائم من آله‏ «2».

و في دانيال 2: 44 «و في ايام هؤلاء الملوك يقيم آله السماء مملكة لا تنقض الى الأبد و ملكه لا يترك لشعب آخر فتسحق و تفني جميع تلك الممالك و هي تثبت الى الأبد، و في الآية (29) يعبر عنها بمملكة رابعة تكون صلبة كالحديد لان الحديد يسحق و يطحن كل شي‏ء فكما ان الحديد يحطم كذلك هي تسحق و تحطم جميع ذلك.

و في دانيال 7: 27 «و يعطى الملك و السلطان و عظمة الملك تحت السماء بأسرها لشعب قديسي العلي و سيكون ملكه ملكا ابديا و يعبده جميع السلاطين و يطيعونه».

و في حبقوق 3: 3- 6 «الله من جبل فاران يأتي ابديا. غطى جلاله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع رسول الإسلام 209- 222- و اوست يعزى الى زردتشت لما قبل ستين قرنا و هو خليط من تعليمات ابراهيمية من صحفة و زيادات من زردشت ام سواه.

(2) راجع رسول الإسلام 23- 27.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 382

السماوات و امتلأت الأرض من تسبيحه 3 شعاعه كالشمس و شع من يمينه النور و هناك استتار قوته 5 وقف و مسح الأرض و أذاب الأمم و تبددت الجبال القديمة و خسفت و انحنت آكام و أتلال القدم مسالك الأزل له» «1».

و في إنجيل متى 25: 31- 46 يذكر قيام المهدي (عليه السلام) قائلا: 31 و متى جاء ابن الإنسان في مجده و جميع الملائكة معه فحينئذ يجلس على عرش مجده 32 و تجمع لديه كل الأمم فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء 33 و يقيم الخراف عن يمينه و الجداء عن يساره 34 حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي خالقي ورثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم .. 41 حينئذ يقول ايضا للذين عن يساره، اذهبوا عني يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لإبليس و ملائكته ...» «2».

و في اشعياء 11: 9 بعد ما يذكر ميزات لذلك الزمن يقول «لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر 10 و في ذلك اليوم اصل يسي القائم راية للشعوب إياه تترجى الأمم و يكون مثواه جيدا» و فيه 6: 21 «و يكون شعبك كلهم صديقين و الى الأبد يرثون الأرض ...».

و في إنجيل متى 25 ... 32 و تجمع لديه كل الأمم .. 34 حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي خالقي ورثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم ..».

هذه نماذج يسيرة من هذه البشارة و التفصيل راجع الى رسول الإسلام.

ثم «الأرض» هي الأرض كلها بكافة سلطاتها الروحية و الزمنية حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2) راجع رسول الإسلام 46- 53.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 383

تلتقيان في زعيم الدولة الاخيرة، ثم آخرون من أضرابه الذين يجمعهم‏ «عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» و كما

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قوله سنادا الى الآية «فنحن الصالحون» «1»

فانه يرأسهم يوم الدنيا و يوم الدين، و

«هم آل محمد (صلى الله عليه و آله و سلم)» «2»

و

«هم اصحاب المهدي في آخر الزمان» «3»

فهم- إذا- كل صالح ليكون من أعضاء هذه الدولة المباركة و اعضادها من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا، بمختلف درجاتهم.

إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ‏ 106.

«هذا» هنا هو إرث الأرض للصالحين، و طبعا فيه بلاغ لقوم عابدين، حيث يأخذون حريتهم و حيويتهم الطليقة الايمانية في ذلك الزمن.

و ذلك البلاغ يدفع قوما عابدين للصمود في عبادة اللّه مهما بلغت بهم الصعوبات، ناظرين بلوغهم الى ذلك الزمن، فلذلك يحضّرون أنفسهم ليكونوا من أعضاء تلك الدولة الكريمة، دون تقشّف و تقاعس عن القيام بواجباتهم الجماعية سياسية و ثقافية و اقتصادية و عسكرية أمّا هيه، و كما أمرهم اللّه: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ..».

فلقد جاءت هذه الرسالة الاخيرة كتابا مفتوحا للعقول المتفتحة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 341- اخرج البخاري في تاريخه و ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال اللّه تعالى: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» فنحن الصالحون.

(2)

تفسير البرهان 3: 75 عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال: هم آل محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

(3)

المصدر عنه (عليه السلام) في الآية هم اصحاب المهدي في آخر الزمان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 384

شاملة لكافة الأصول الحيوية البنائة للحضارة الحقيقية المرضية، واضعة اصول المنهج الدائم للحياة الانسانية المتجددة، كافلة للعقل الانساني حرية العمل بكفالة حقها في التفكير الطليق.

و من قيم هذه المنهجية الحيوية انها متوازنة متناسقة، لا تعذّب الجسد لتسمو بالروح، و لا يهمل الروح ليستمتع الجسد، و لا تقيد الفرد- فقط- لتحقيق مصلحة الجماعة او الدولة، و لا تطلقه في نزواته و شهواته الطاغية لتوذي الجماعة، و لا تقيد- كذلك- الجماعة لخدمة الفرد، بل يستخدم كل فرد فرد لصالح نفسه و لصالح الجماعة على سواء.

و هذه هي المصلحية اللابقة اللائقة لتأسيس الدولة العالمية، من عباد صالحين، و «إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ».

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ‏ 107.

و تلك الرحمة العالمية الرسالية لا تطبّق إلّا على ضوء دولة عالمية، و لكي ينتفع منها العالمون اجمع و يستظلوا في ظلها، حين تذوب الفوارق الجغرافية و الجنسية و العنصرية و الطائفية امّا هيه تحت رعاية هذه الدولة الاخيرة الاسلامية العالمية، و ذلك من المعني لقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (48: 28)، حيث الظهور الغلبة على الدين كله، و هو الطاعة كلها، ان ذلك يتخطى الأمل الى العمل و ليس الا في دولة القائم (عليه السلام).

صحيح ان كل رسالة مستقلة هي عالمية الاتجاه و الرحمة مبدئيا، و لكنها- و حتى الرسالة المحمدية (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ما حلّقت زمن رسولها و أئمتها- إلا الغائب- على العالمين ككلّ، و ليس‏ «رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ» غاية خيالية غير واقعية، بل ان لها واقعها في مستقبل الزمن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 385

لا بد في ذلك الزمن ان يتأثر العالمون أجمعون بتلك الرحمة طوعا او كرها، ليستروحوا فيها نسائم السماء الرخية في هجير الأرض المحرق المطبق، كلما ازدادوا تخلفا عن الشرعة الإلهية، يلمسون حاجة اكثر بهذه الرحمة.

و من آيات تحليق هذه الرحمة الرسالية على واقع العالمين مستقبلا، ان‏ «رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ» تختص بهذا الرسول دون سواه كما النذارة المحمدية عالمية بواقعها، لا فقط في مغزاها «تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى‏ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» (25: 1) «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» (38: 87) و «العالمين» مكررة في القرآن (73) مرة، و هم جموع المكلفين و لا اقل من ثلاثة مهما لم نعرف حتى الآن الثالثة، و تلك النذارة الذكر الرحمة تصلهم- يوما مّا- أجمعين، و لم تصل لحد الآن كافة الناس و حتى نذارته، فضلا عن واقع رحمته، التالية لتأثير نذارته!.

و قد يروى عن رسول الرحمة و مضات من تلك الرحمة العالمية و كما

يقول‏ «انما انا رحمة مهداة» «1»

و لأنه كله رحمة ما كان يلعن أحدا من الطاغين قائلا

«ان الله بعثني رحمة للعالمين و هدى للمتقين» «2»

و إذا «قيل يا رسول الله الا تلعن قريشا بما أتوا إليك؟ قال لم ابعث لعانا إنما بعثت رحمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 343- اخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ... و

في المجمع روى ان النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال‏ لجبرئيل لما نزلت هذه الآية هل أصابك من هذه الرحمة شي‏ء؟ قال: نعم اني كنت أخشى عاقبة الأمر فآمنت بك لما اثنى الله علي بقوله: ذي قوة عند ذي العرش مكين «و قد قال (صلى الله عليه و آله و سلم): انما انا رحمة مهداة.

(2) المصدر اخرج ابو نعيم في الدلائل عن أبي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 386

يقول الله: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ» «1».

اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام و أهله و تذل بها النفاق و اهله، اللهم انا نشكو إليك فقد نبينا و غيبته ولينا و شدة الفتن بنا و تظاهر الزمان علينا، اللهم فسهل مخرجه و اجعلنا من أنصاره و أعوانه آمين.

قُلْ إِنَّما يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ 108 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى‏ سَواءٍ وَ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ‏ 109.

فالتوحيد و التوحيد فقط هو العنصر الموحّد الوحيد في تلك الرسالة الاخيرة المكملة لما قبلها، و منه تنبثق الرحمة العالمية في كافة الجهات و الجنبات، انقاذا للعالمين من أوهام الجاهلية الجهلاء، و من أثقال الوثنية الحمقاء، و من ضغوط الخرافات الجارفة العمياء.

التوحيد الذي يربط الكائنات كلها إلى بعض، و يربطها الى اللّه الواحد القهار، و يوحّد كافة الفعليات و الانفعاليات دون أية شتات و اختلافات و اختلاقات.

ذلك هو طريق الرحمة العالمية، و ملتقى النعمة الشاملة للعالمين، الذين يتبناهما دين اللّه كله، و شرعة اللّه كلها.

هنا «إنما .. أنما» حصر على حصر يحصران ما يوحى الى الرسول في‏ «إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» توحيدا اكيدا يحلّق على الدين كله، مما يتفرع عليه او ينحل اليه ام يتبناه عقائديا و عمليا و قوليا و في كافة الأمور المختارة «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» لذلك الوحي ام معرضون؟.

«فَإِنْ تَوَلَّوْا» بعد كافة الحجج على التوحيد «فقل» لهم «آذنتكم»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر اخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال قيل يا رسول اللّه الا تلعن ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 387

اعلاما مجازا بالوحي بحق التوحيد و بمصير الذين يقولون عنه «على سواء» حيث شملتكم الحجة فيها على سواء دون تمييز و لا تبعيض، و إذا أنتم تتساءلون متى هذا الوعد «إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ» إذ لم يوح الي الا أصله دون أمده و فصله، سواء أ كان وعدا لعذاب الاستئصال هنا، ام لعذاب البرزخ بالموت، ام عذاب الآخرة بقيام الساعة مهما كانت قريبة نسبيا، فهذه الساعات الثلاث غيب إلا ما أظهره اللّه، و لم يظهر لي إلّا اصل «ما توعدون» فانه غيب من غيب اللّه لا سواه إلّا من أعلمه إياه.

فطالما الإيذان متعوّد في الحرب كإعلام الإنذار لفترة السلم الاختبار، و لكنه هنا في العهد المكي حرب باردة في جبهة الإحتجاج المنذر، فالقصد منه- إذن- انني قد نفضت يدي منكم، و تركتكم على علم بمصيركم في مسيركم.

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ‏ 110.

«يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ- وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ»، من قول أو نية أم فعل، على سواء، «سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ» (13: 10).

فأمركم مكشوف له كله، يعذبكم على علم و حكمة او يرحمكم على علم و حكمة دونما فوضى جزاف.

وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ‏ 111.

و ذلك اللّاادري هنا بارقة أمل لهم علّهم يفيقون عن غيهم فيرجعون، علّ اللّه يحدث بعد ذلك الإيذان امرا بغير إمرا، إن أحدثتم أنتم أمرا فيه نجاتكم ام لأقل تقدير «وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» تأجيلا لعاجل العذاب الى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 388

مستقبل من حياة التكليف، ام بعد الموت‏ «1».

فهو بذلك التجهيل تأجيلا و تعجيلا يلمس قلوبهم المقلوبة لمسة قوية و يذرهم يتوقعون كل احتمال، و توقع العذاب على غير موعد محدّد مضروب يترك النفس متوجّسة ترتقب في كل لحظة لحظة ما توعّدت من عذاب، ام‏ «وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» تأجيلا له فتنة و ابتلاء فالى رحمة ام مزيد عذاب.

و لما وصلت حالته الدعائية في بلاغه لهذا الحد الحديد المديد، هنا يتركهم مؤديا أمانته، متوجها الى من حمله إياها، ملتمسا منه متطلبا:

قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى‏ ما تَصِفُونَ‏ 112.

«رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ» بيني و بين هؤلاء المكذبين، حكما لي بما بلّغت الرسالة كما حمّلت، و حكما عليهم بما كذبون، حكما عينييا بما كانوا يوعدون، كما حكمت بوحي من قبل، حكما يطبّق ما حكمت.

و قد كانت الأنبياء تقول في نهايات الأمور «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» فاستنّ الرسول بسنتهم في قوله‏ «رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ» طلبا لإنجاز الوعد الحق، و قد كان إذا شهد قتالا قال رب احكم بالحق» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور اخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان ...

(2)

نور الثقلين 3: 467 في عيون الاخبار في باب جمل من اخبار موسى بن جعفر مع هارون الرشيد و مع موسى بن المهدي حديث طويل يقول فيه‏ رأيت النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ليلة الأربعاء في النوم فقال لي: يا موسى أنت محبوس مظلوم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏19، ص: 389

هذا- و من ثم تأكيد للحكم الحق في رجعة اخيرة إليهم‏ «رَبُّنَا الرَّحْمنُ» صاحب الرحمات كلها، «المستعان» لرسله و المؤمنين به‏ «عَلى‏ ما تَصِفُونَ» فلا يعجز عن عونهم و لا يخلف الميعاد.

و يا لهذه السورة ختاما كما بدأت، تجاوبا في طرفيها بإيقاع نافذ باهض و بينهما حجاجات من حملة الرسالات، ثم تصديقات من كتلة مؤمنة و من الآخرين لجاجات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقلت: نعم يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) محبوس مظلوم فكرر ذلك علي ثلاثا ثم قال: و ان ادري لعله فتنة لكم و متاع الى حين.

و

فيه عن الاحتجاج للطبرسي و روى‏ انه لما قدم معاوية الى الكوفة قيل له ان الحسن بن علي (عليهما السلام) يرتفع على انفس الناس فلو امرته ان يقوم دون مقامك على المنبر فتدركه الحداثة و العي فيسقط من أعين الناس، فأبى عليهم و أبوا عليه الا ان يأمره بذلك فأمره فقام دون مقامه في المنبر فحمد اللّه و اثنى عليه ثم قال: اما بعد فانكم لو طلبتم ما بين كذا و كذا لتجدوا رجلا جده نبي لم تجدوه غيري و غير اخي و انا أعطينا صفقتنا هذه الطاغية- و أشار بيده الى أعلى المنبر الى معاوية- و هو في مقام رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و رأينا حقن دماء المسلمين أفضل من إهراقها «وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» و أشار بيده الى معاوية فقال له معاوية: ما أردت بقولك هذا! فقال: أردت به ما أراد اللّه عز و جل.